دكتور عبد اللطيف محمد عامر

القرآن والقيم الإنسانية

يطلب من
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة . تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الأولي

١٤١٨ هـ - ١٩٩٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

تتوفر حول القرآن الكريم جهود علمية وإنسانية كثيرة ، وتتناول آيات القـــرآن وسوره أقلام متعددة تدور حول مجالات كثيرة فيه .

فمنهم من يتناوله بالتفسير ، ومنهم من يتناوله بدراسة آيات الأحكـــام فيـــه ، ومنهم من يتتبع الناسخ والمنسوخ والقرآن إلى جانب هذه المجالات أو قبلها كتاب وصفه ربه بقوله ﴿ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ﴾ .

فهو كتاب تتوفر فيه السمات التالية :

١ – توثيق العلاقة الدائمة بين الله وبين عباده ، ومن هنا وصفه الرسول ﷺ بأنه " مأدبـــة الله " ، ودعا المؤمنين إلى الإقبال على هذه المأدبة .

٢ – تأكيد الإيجابية الخاصة بالقرآن ، وتتمثل فى " الحركة " الخاصة بإخراج الناس مـــن ضيق الدنيا إلى سعتها .

٣ – الغاية من هذه " الحركة " هى نقل الناس من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان .

والظلمات معنى شامل لكل معانى الشر والرذيلة ، كما أن النور معنى جامع لكل معـــانى الخير والفضيلة .

ومن هنا كان الرسول ﷺ داعياً إلى الله بالحكمة والموعظـــة الحســـنة ، ومنفـــذاً بالقدوة والأسوة الطيبة .

كان هادياً يهدى الناس إلى طريق الحق عملاً بقوله تعالى ﴿ يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾ [1]

وكان إلى جانب ذلك بانياً يضع أساساً لأمة الفضائل ويجمع الناس حول المبادئ ويقودهم فى ميادين الجهاد لحراسة هذه المبادئ ، وإذن فإن مبادئ الإسلام هى النظريات وإن أمة الإسلام هى التطبيق العملى ، فلا قيمة لها فى عالم الناس ، وإن كانت فى القمـــة من عالم المبادئ والنظريات ، ولقد بين القرآن الكريم أن حقيقة الإيمان هى التطبيق العملى

[1] المـــائدة : ٣ .

لمبادئ الإسلام والرضا الكامل بعد هذا التطبيق ﴿ فلا وربّك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم .... ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ... ويسلموا تسليما [1] .

ولا يفيد الإسلام شئ إذا كتب الكتاب عنه بأقلامهم ، وأشاروا بمبادئه على ألسنة خطبائهم ... ثم لم يكن أهله صورة لمبادئه ، وإذا لم تكن حقيقة الأفعال صدى لروعة الأقوال .

ومن هنا نرى أن المبادئ التى جاء بها القرآن إنما تشكل قيماً ثابتة فى نفوس المؤمنين به .

والقيم الثابتة لا تخضع لعوامل الزمن ، ولا تتأثر بمتغيرات البيئة ، ولا تتغير بتغير الأماكن والعصور .

وهذه القيم تقوم على أساس آنسانى خالص ، كما أنها ترتبط بمبادئ الدين التى دعا إليها رسل الله جميعاً ، وهى من أجل ذلك موصولة بالآخرة .

أما القيم المتغيرة فإنها مرتبطة بالبيئة والزمن ، متغيرة بتغيرهما . وهى تتبلور فى إطار الحاجة الاجتماعية وتطور المجتمعات .

بناء على هذا الفهم لطبيعة القيم – الثابتة منها والمتغيرة – نرى أن القيم الثابتة فى الإسلام هى القيم التى تتعلق بالدين وصبغة التدين فى المؤمنين ، وبالأخلاق العامة المستمدة من هذا التدين .

كما أن القيم المتغيرة هى التى تتعلق بحياة الناس ووسائلهم فى إقامة شئون الحياة .

وهى التى يعالجها الفقهاء والدارسون تحت ما يسمى بالعرف والإستصلاح والإستحسان والمصالح المرسلة وغير ذلك .

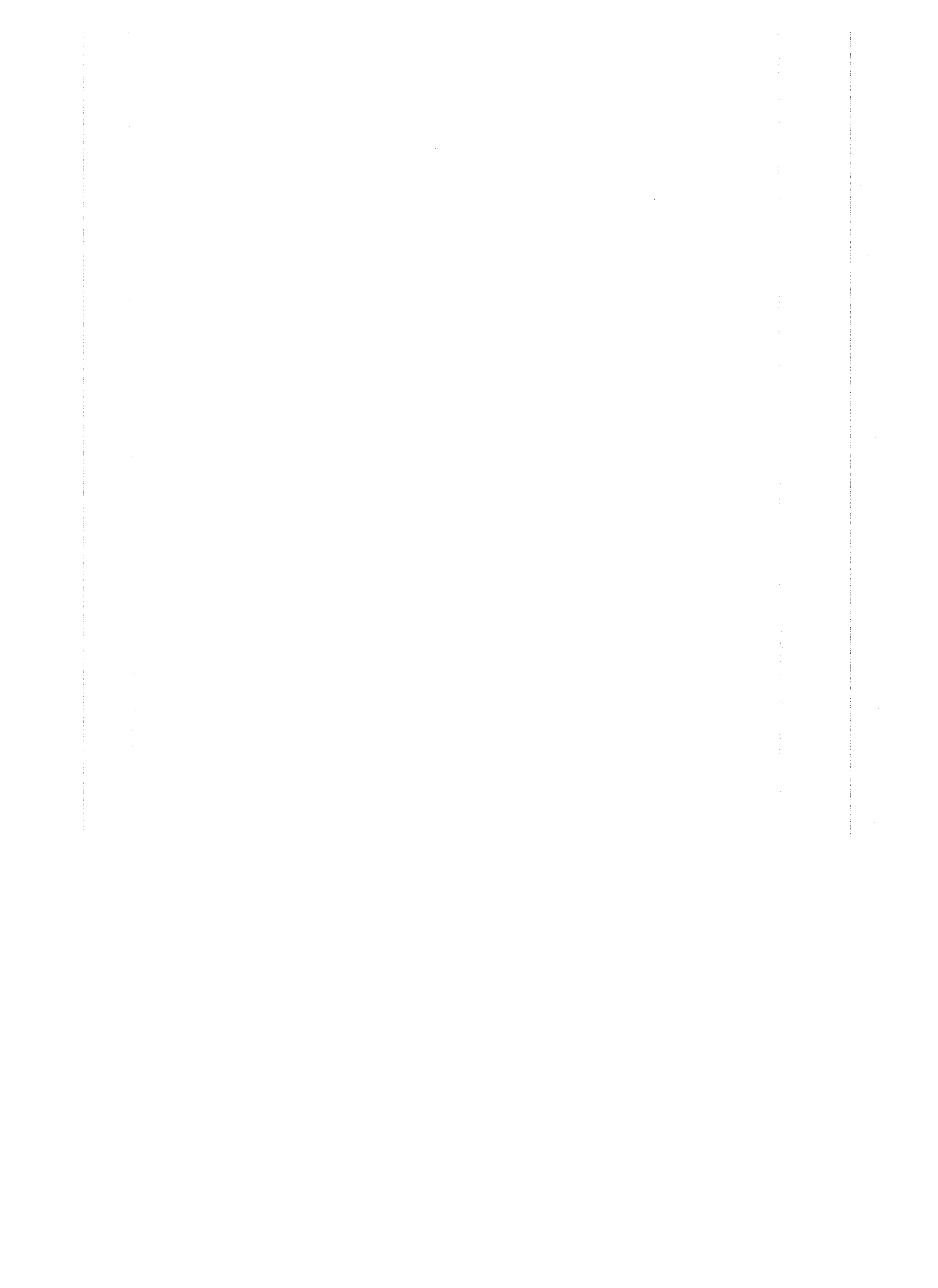
والقيم بقسميها – إشارة إلى أن القرآن الكريم جاء ليحكم الدنيا بالدين ، وليهيئ الحياة للآخرة وهذا ما نرجو أن نبرزه فى الصفحات التالية .

---

[1] النساء : ٦٥ .

والله ولى التوفيق ...

القيم الإنسانية ومناهج المفسرين



إلمامه بالمناهج التفسيرية :

نزل القرآن الكريم على رسول الله ﷺ ليبلغه لقومه خاصة وللناس كافة .

وهنا مرحلتان : مرحلة نزول جبريل بالقرآن على قلب رسول الله ﷺ مصداقاً لقوله تعالى :

﴿وإنه لتتريل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين ﴾ [1] .

ومرحلة تبليغ الرسول ﷺ ما نزل عليه إلى أمته تنفيذاً لقول الله سبحانه ﴿ يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾ [2] .

ولقد كان الرسول ﷺ فى المرحلة الأولى حريصاً على حفظ القرآن فور تلقيه من الوحى ، فكان يلهج بلسانه ، ويردد ما يسمع حتى لا يضيع منه شئ ، وحتى يستوعبه فلا يشرد منه معنى .

ولكن لأن القرآن قد نزل ليخلد بين العالمين ، وليكون كتاباً لخاتم الرسالات ، فقد طمأن الله نبيه إلى أنه يتكفل بحفظه كما يتكفل ببيانه فقال ﴿ لا تحرك بـه لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ... ثم إن علينا بيانه ﴾ [3] .

فكأن الوحى لم يتوقف عند نزول القرآن ، وإنما تكفل أيضا ببيان هذا القرآن وتوضيح معانيه للرسول حتى يتيسر تبليغه بعد ذلك للناس .

ومن ثم فإن المرحلة الثانية – هى مرحلة التبليغ – تبدأ اعتمادا على المرحلة الأولى ، حيث يحمل الرسول القرآن إلى أمته ويتكفل هو – ﷺ – ببيان ما أبهم من آياته حيث يقول تعالى ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون ﴾ [4]

---

[1] الشعراء : ١٩٢ – ١٩٤ .

[2] المائدة : ٦٧ .

[3] القيامة : ١٦ – ١٩ .

[4] سورة النحل : ٤٤ .

وبيان القرآن وتبليغه للناس واضحاً ييسر لهم أمر التدبر فيه ، كمـــا يهيئـــهم للامتثـــال لأحكامه ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب ﴾ [1] .

فإذا لم يتدبروه وقد نزل بلسانهم ، ووضحت معانيه بواسطة نبيهم فإنـــه يلـــوم المفكرين منهم بمثل قوله ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ [2] .

وإذا فهموه وتدبروه فقد لزمتهم الحجة ، وقد وجب عليهم ان يستقبلوا أحكامه بالطاعة وأوامره بالامتثال .

وإذا كان الرسول ﷺ قد تولى – فى مرحلة التبليغ – بيان بعض المعانى القرآنيـــة التى غابت على الناس ، فلقد كان فى هذا البيان يستلهم الوحى ، ويتوقف أحياناً حـــتى يأتيه البيان .

ولقد روى عن عائشة قولها :"" ما كان رسول الله ﷺ يفسر من كتـــاب الله إلا آيات معدودة علمه إياهن جبريل "" . المقصود بهذا الحديث أنها الآيات التى لا سبيل إلى معرفتها إلا بالوحى ، والتى قال الله فى مثلها ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ فتفســـيرها إذن تفسير توقيفى لا مجال لاجتهاد البشر فيه ، ومن أمثلة ذلك أصحاب الكـــهف ، وقصـــة العبد الصالح مع موسى و أخبار ذى القرنين ويأجوج ومأجوج وغير ذلك .

أما تفسير المعانى القريبة التى يسهل بيانها ، أو تعتمد علـــى اســـتقراء المقـــاصد الشرعية من مجموع آيات القرآن ، فإن الرسول ﷺ يتكفل ببيانها دون حاجـــة لـــترول الوحى فيها .

وحين يجئ دور الصحابة – وهم أقرب الناس إلى الرسول – فى فهم القرآن وفى تفسيره ، فإن بعضهم يتميز على البعض الآخر بفهم الآية و الآيتين . فلقد قيل إن عليا – رضى الله عنه – ذكر جابر بن عبد الله فوصفه بالعلم فقال رجل : جعلت فداك ، تصف جابراً بالعلم وأنت أنت ؟ قال إنه كان يعرف تفسير قوله تعالى :

---

[1] سورة ص : ٢٩ .

[2] سورة محمد : ٢٤

﴿ إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ﴾ [1] .

فكأن علياً يعرف فضل جابر وعلمه لمعرفته معنى هذه الآية .

التحرج فى تفسير القرآن :

ومن حيث أن القرآن يترل على رسول الله ﷺ وحياً من السماء ، ومن حيث أن الرسول كان يتلقى تفسير بعض المعانى بوحى آخر ، أو يفسر بعض المعانى بما رآه قريبـــاً من دلالته الشرعية المأخوذة من مجموع الاتجاه التشريعى ، فلم يكن للصحابة إذن مجـــال واسع لهذا التفسير .

وإذا عرض لأحدهم موقف يتطلب القول فى القرآن فإنه يتردد أن يقول فيه برأيه فلقد سئل أبو بكر عن معنى آية فى القرآن فقال : " أى سماء تظلنى ، وأى أرض تقلنى إذا أنا قلت فى كتاب الله ما لا أعلم !! .

وواضح من ذلك أن أبا بكر – رضى الله عنه – يتهيب أن يقول فى القرآن لا بما لا يعلم فقط بل ما لم يؤثر فيه قول الرسول ﷺ .

كما أن عمر – رضى الله عنه – قرأ على المنـــبر قوله تعالى ﴿ وفاكهة وأبا ﴾ فقال : هذه الفاكهة قد عرفناها ، فما الأب ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال : إن هـــذا لهـــو التكلف يا عمر .

أى أن السؤال عن مثل هذا اللفظ غير المفهوم يدخل فى باب التكلف ، لأنه – حتى إن فهم – فإنه لا يعود على قضية الإيمان بشئ كبير .

كما يندرج تحت ذلك أيضا ما روى أن رجلاً سأل ابن عباس عن يوم ﴿ كـــان مقداره خمسين ألف سنـــه ﴾ ؟ قال له الرجـــل : إنما سألتك لتحدثنى ، فقال ابن عباس : هما يومان ذكرهما الله فى كتابه ، الله أعلم بهمـــا ، فكـــره أن يقول فى كتاب الله ما لا يعلم [2] .

---

[1] القصص : ٨٥ .

[2] أنظر مقدمة ابن كثير على تفسيره .

وهذه المواقف وغيرها كثير تدل على توقف الصحابة عند المأثور عن رسول الله فى توضيح القرآن ، وتحرجهم فى القول بالرأى خشية الخطأ أو إخراج القرآن عن مدلوله ومعناه .

تفسير القرآن بالمأثور :

التفسير المأثور يعتمد على ما اثر عن الرسول والصحابة من أقـــوال فى تفســـير لبعض آيات القرآن ولقد كانت هذه الأقوال تصدر من الرسول أو من صحابته رداً على سؤال أو توضيحاً لمعنى قرآنى يحيطه بعض الإبهام .

والاعتماد على هذا النوع من التفسير كان ينبغى أن يكون هو الأصل فى تفسير القرآن ، إذ أن الرسول ﷺ كان فى حياته هو المصدر الأساسي للتفسير وكان صحابتــــه يسألونه عن معنى الآية فيجيبهم بناء على ما أطلعه الله على علم بالمعنى المراد مصدقاً لقوله سبحانه ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ﴾ [1] . أو كان يجيبهم بما يراه هو حتى يترل عليه الوحى فيثبت إجابته أو يصححها .

وكان التفسير بالمأثور عن الصحابة أيضا مأموناً لأنه راجع فى النهايـــة إلى مـــا عرفوه عن الرسول المؤيد بالوحى .

وقيمة هذا النوع من التفسير أنه كان يرجع إلى أسباب الترول ، فتكون الآيـــة مرتبطة بواقعة معينة ، وتكون هذه الواقعة بعداً يحدده المقصود منها دون الاقتصار علـــى بعدها اللغوى أو معناها الدلالى .وغالباً ما يكون هذا اللون من التفسير بالمأثور مما لا مجال لإعمال الرأى فيه .

وحينئذ يكون فى حكم المرفوع إلى رسول الله ﷺ ، لأن الصحابى لا يقـــول فى هذه المسائل برأيه.

ومن هنا يكون هذا القسم من التفسير مما يجب الأخذ به ، ولا يجوز رده اتفاقاً وأما إذا كان تفسير الصحابى مما يكون للرأى فيه مجال ، ومما يعتمـــد فيه قول

---

[1] النســـــاء : ١٠٥ .

الرسول ، فإنه يظـــل موقوفا على الصحابى نفسه ، وينسب الرأى إلى قائله ولا يتعداه إلى غيره .

وحين ذلك تختلف الاتجاهات فى الأخذ عن قول الصحابى ورأيه فى القرآن ، من اعتمد قوله ورأيه وأخذ عنه رأى أن الصحابى قريب العهد برسول الله ﷺ ، وأنه يحتمـــل أنه سمع منه وتأثر به ، فهو حتى إذا سر برأيه فرأيه أقرب إلى الصـــواب ، لأن الصحابـــة أدرى الناس بكتاب الله ، ومن لم ير الأخذ عن الصحابة فى التفسير ، فلأنهم لما لم يرفعوه إلى الرسول فقد علم أنهم اجتهدوا فيه ، والمجتهد يخطئ ويصيب والصحابة فى إجتهادهم كسائر المجتهدين [1] .

أما أخذ المفسرين عن التابعين ، فقد ذهب كثير من العلماء إلى الامتناع عن ذلك لأن التابعين ليس لهم سماع من رسول الله ﷺ .كالصحابة ، ولأنهم لم يشاهدوا القرائـــن والأحوال التى نزل عليها القرآن فيجوز عليهم الخطأ فى فهم المراد من النص القرآنى [2] .

ومن هنا قد يدخل التفسير فى منعطف غامض ، وتدخل إليه روافد غريبة عـــن مساره ، وتبعده عن الغرض المراد منه .

ولقد كثر الوضـــــع فى التفسير بالمأثور ، حيث اختلط الصحيح بـــالعليل من الروايات .

ولقد روى أن أبا عصمة نوح بن أبى مريم المروزى كان يضع الأحاديث فى فضل القرآن ، ويدعى أنه يفعل ذلك حسبة فسئل : من أين لك عن عكرمة عن ابن عباس فى فضل القرآن سورة سورة ؟ فقال : إنى رأيت الناس أعرضوا عن القرآن ، واشتغلوا بفقه أبى حنيفة ، ومغازى محمـــد بن إسحاق ، فوضعت الحديث حسبة ، فكأن (النيـــات الحسنة) كانت تدخل أحيانا فى وضع الحديث وفى تفسير القرآن فتكون النتيجة الســـيئة أنها قالت على الرسول ما لم يقله ، وأدخلت على القـــرآن مـــا لم يحتملـــه ، كمـــا أن

---

[1] انظر : د / محمد حسين الذهبى . علم التفسير : ٢٦ .

[2] الســـــابق : ٣٢ .

الإسرائيليات قد دخلت أيضا فى تفسير القرآن ، وبدأ ذلك منذ عصر الصحابة ، وانتشر فى عهد التابعين ، وشغف الناس بهذه الإسرائيليات فالصقوها بالقرآن وإن كانت بعيدة عن معانيه ومراجعه .

كما تهاون كثير من الرواة فى الرواية ، فلم يحصلوها برواتها واختصروا الأسانيد أو حذفوها ونقلوا الأقوال غير منسوبة إلى قائليها [1] .

ومن هنا تسرب الشك فى التفسير بالمأثور ، لأنه إن بدأ سليما نقيا مأخوذا عن الرسول أو عن صحابته ، فقد انتهى إلى أن تسرى فيه روايات الزنادقة من اليهود والفرس ومسلمة أهل الكتاب .

وكان أكثر هذا الدس فى قصص الرسل مع أقوالهم وما يتعلق بكتبهم ومعجزاتهم (كأصحاب الكهف ومدينة إرم ذات العماد وسحر بابل ، وفى أمور الغيب من أشراط الساعة وقيامتها وما يكون فيها وما بعدها ، ولذلك قال الإمام أحمد : ثلاثة ليس لها أصل : التفسير ، والملاحم ، والمغازى)[2] .

وكان من نتائج هذه الجرأة على القرآن والدس عليه من الآثار المتروكة والآراء الغريبة مما ليس فيه ، أن أصبحت (صنعة) التفسير عبئا على القرآن ، لا وسيلة إلى توضيحه .

ودخل إلى هذه (الصنعة) من ليس أهلا لها ، فأدخلوا على التفسير الصحيح ما أفسده من الخرافات والأساطير ، وأخرجه من مجال الروايات الصادقة إلى مجالات الوضع والأباطيل.

تفسير القرآن بالرأى :

يقصد بتفسير القرآن بالرأى معنيان :

---

[1] د . محمد حسين الذهبي (المصدر السابق) ٤٣ -٤٦ .

[2] تفسير المنار : ٩/١ .

المعنى الأول :

إعمال الرأى أو العقل فى فهم القرآن وتأويل آياته تأويلا يتفق مع الإتجاه الكلى للشريعة وعدم التناقض مع أدلتها المقطوع بها ، ويتجه العلماء إلى جواز هذا اللون ، لأن الله سبحانه يدعونا إلى التدبر فى فهم القرآن ، واستيعاب معانيـــــه ومراميه فى مثل قوله ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ (1) . وقوله ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبــــارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب﴾ (2) .

كما ان الرسول ﷺ قد دعا لابن عباس فقال : " اللهم فقهه فى الدين وعلمــــــه التأويل " . فقد عطف الرسول العلم بالتأويل على الفقه بالدين ، وكلاهما مما يستخدم فيه العقل ، ويعتمد على الرأى بإستخدامه الأدلة الشرعية المعتبرة فى أصول الدين .

وإذا كان الإجتهاد سائغا فى إستنباط أحكام الشريعة بوجه عام ، فإن اســــتخدام الرأى من أصحاب الرأى يكون جزءا من الإجتهاد العام ، ويكون كذلك سائغا فى تفهم الاتجاهات العامة لآيات القرآن الكريم وإلا لتعطل كثير من الأحكام الشرعية المستنبطة من القرآن .

وفى هذا الاتجاه كثير من مؤلفات المفسرين من أشهرها كتاب القرطبى (الجامع لأحكام القرآن) وكتب أحكام القرآن للجصاص وابن العربى وألكيا الهـــراس ، ومعـــانى القرآن للفراء ... وغيرهم .

ويدخل تحت هذا المعنى المباح أيضا أن يفسر اللغويون لغة القرآن ، والنحويــــون نحوه ، والفقهاء معانيه ... وأن يقول كل واحد بإجتهاده المبنى على قوانين العلم والنظر وإن القائل على هذه الصفة لا يكون قائلا لمجرد رأيه وهواه (3) .

أما المعنى الثانى :

---

(1) سورة محمــــد : ص ٢٩ .

(2) ســـــورة ص : ٢٩ .

(3) انظر علم التفسير : د. / محمد حسين الذهبي ص ٤٨ - ٥٠ ، تفسير القرطبي ج١ /٢٧، ٢٨ .

فإنه الوجه الذى يحذر منه العلماء والمشتغلون بالتفسير ، وهو القول فى القـــرآن عن جهل أو عن هوى ، وكلاهما يسئ إلى القرآن ويخرجه عن غاياته وأهدافه الجليلة .

ولقد حذر الرسول ﷺ من القول فى القرآن بمجرد الرأى فقال : مـــن قـــال فى القرآن برأيه فأصاب فقد اخطأ .

وهذا الحديث الشريف يحذر من القول فى القرآن بالرأى سواء أكان عن جهل ، أو كان عن هوى ، وقد روى الترمذى عن ابن عباس عن النـــبى ﷺ قولـــه :"" اتقـــوا الحديث على إلا ما علمتم فمن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار ""[1] . وقـــد فسر هذا الحديث تفسيرين :

أحدهمـــــا : هو التفسير عن جهل ، ويتمثل ذلك فيمن يقول فى كل القرآن بما لا يعرف من مذاهب الأوائل من الصحابة والتابعين .

والآخـــــر : هو الصادر عن هوى فى نفوس " الذين فى قلوبهم زيغ ، فهم يقولون فى القرآن أقوالاً يعلمون أن الحق فى غيرها ، معنيون بتهديد الرسول ﷺ " فليتبوأ مقعده من النار " .

والقرآن الكريم يعرض للموقف المطلوب والموقف المرفوض من متشابه القرآن فى قول الله سبحانه ﴿... فأما الذي فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه إبتغـــاء الفتنــة وإبتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله . والراسخون فى العلم يقولون أمنا به كل من عنـــد ربنا ﴾[2] .

ولقد حمل بعض أهـــل العلم معنى القول فى القرآن بالرأى علـــى أنـــه الهـــوى والتشهى ، ويعنون بذلك أن من قال فى القرآن قولاً يوافق هواه ، و لم يأخذه عن أئمـــة السلف فأصاب ، فإنه قد أخطأ لحكمه على القرآن بما لا يعرف أصله ولا يقـــف علـــى مذاهب أهل الأثر والنقل فيه ، ويحرم هذا الإتجـــاه لأن القائل به قد تكلف ما لا علم

---

[1] صحيح البخاري باب العلم ٣٨ ، صحيح مسلم كتاب الزهد / ٧٢ .

[2] سورة آل عمـــران : ٧ .

له به ، وسلك غير ما أمر به .

(فلو أنه أصاب المعنى فى نفس الأمر ، لأنه لم يأت الأمر من بابه كمن يحكم بين الناس على جهل فهو فى النار ، وإن وافق حكمه الصواب فى نفس الأمر ، لكن يكون أخف جرما ممن أخطأ)[1] .

ولقد روى عن عائشة قالت : ما كان رسول الله ﷺ يفسر من كتاب الله إلا آيات بعدد علمه إياهن جبريل .

وقال ابن عطية : معنى هذا الحديث فى مغيبات القرآن وتفسير مجمله ونحو هذا كوقت قيام الساعة ، وعدد النفخات فى الصور ورتبة خلق السموات والأرض وهذه الرواية توضح حدود القول بالرأى فى القرآن .

فلا ينبغى للإنسان المسلم أن يقول فى القرآن برأيه فى مسائل الغيب ولا فى المسائل الأخرى التى فصل فيها القرآن أو حسمتها السنة بناء على وحى منزل ، ولقد قال الله سبحانه لنبيه ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾ فأضاف الله سبحانه البيان إلى رسوله ﷺ .

علم من ذلك أنه ليس لغير الرسول شئ من البيان لمعانى القرآن .

وتبقى بعد ذلك مساحة محدودة للإنسان لفهم القرآن تتمثل فى الطاقة اللغوية لإدراك التراكيب والمعانى التى تعبر عنها آيات القرآن الكريم .

تفسير القرآن بالقرآن أو بالسنة :

إن من أحسن طرق التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن ، فما أجمل فى مكان فإنه يفصل فى مكان آخر ، وذلك مصداقا لقوله تعالى فى وصف القرآن ﴿ كتاب فصلت آياته ﴾ [2] . وقوله ﴿ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم ﴾[3]. وما أبهم فى مكان فإنه يوضح فى مكان آخر وهكذا .

---

(1) مقدمة ابن كثير فى تفسيره .

(2) سورة فصلت : ٣ .

(3) سورة الأعراف : ٥٢ .

وليس أقدر على تفسير النص من صاحب النص نفسه ، ولقد نزل القرآن علـــى رسول الله ﷺ وتكفل الله ببيانه كما تكفل بحفظه ، وذلك هو معنى قوله تعالى ﴿ ... إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأنه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه ﴾[1] .

فإذا لم يهتد القارئ إلى بيان فى القرآن ، فإنه يبحث فى السنة ، حيـــث تكـــون السنة شارحة للقرآن وموضحة له .

ولقد قال الأمام الشافعى : كل ما حكـــم به رســول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن .

ومن أجل هذا قال رسول الله ﷺ :"" ألا إنى أوتيت القرآن ومثله معه "" والسنة مثل القرآن من حيث الترول على رسول الله بالوحى .

والأمثلة على تفسير القرآن كثيرة نسوق بعضها فيما يلـــى :

قوله تعالى ﴿فتلقى أدم من ربه كلمات فتاب عليه ﴾[2] . نجد تفسير هذه (الكلمات) وبيانها فى قوله تعالى ﴿ قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونـــن مـــن الخاسرين ﴾[3] . وكأن هذه الآية استغفار عن الذنب الـــذى وقع فيه آدم ، وتلـــك هى (الكلمات) التى تلقاها آدم من ربه فرددها فتاب الله عليه . وهى من أجـــل هـــذا تصلح إستغفارا عاما يردده عباد الله التائبون رجاء عفو الله وغفرانه .

قوله تعالى ﴿ ... ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيمـــا ﴾[4] فإن الاسم الموصول فى هذه الآية " الذين " مفسر فى آية أخرى بأنه يعنى أهل الكتاب

وذلك قوله تعالى ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالـــة ويريدون أن تضلوا السبيل ﴾[5] . اخرج أحمـــد والشيخان وغيرهم عن ابن مســـعود قال : " لما نزل قوله تعالى :

---

(١) القيامـــة : ١٧ - ١٩ .

(٢) البـــقرة : ٣٧ .

(٣) الأعراف : ٢٣ .

(٤) النســـاء : ٢٧ .

(٥) النســـاء : ٤٤ .

﴿ الذين أمنوا و لم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ [1] .شق ذلك على الناس فقالوا : وآينا لا يظلم نفسه ؟ فقال الرسول ﷺ :"" إنه ليس الظلم الذى تعنون ، ألم تسمعوا قول العبد الصالح ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ [2]

فالظلم هنا يقصد به الشرك ، ومعنى ذلك أن الآية فى سورة لقمان قد فسرت الآية فى سورة الأنعام .

كما نجد أمثلة كثيرة أخرى لتفسير القرآن بالسنة نذكر منها – على سبيل المثال – ما يلى : –

أخرج الترمذى عن على رضى الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ عن يوم الحج الأكبر الوارد فى قوله تعالى ﴿ ... وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برئ من المشركين ورسوله﴾ [3] فقال الرسول ﷺ هو يوم النحر ، ولا يملك تفسير هذا اليوم إلا الله ، وإلا رسول بوحى من الله سبحانه وتعالى ، حيث السؤال عن هذا اليوم سؤال عن شئ غيبى ، والإجابة عن هذا السؤال أمر توقيفى وأمر الغيب "" لا يعلم تأويله إلا الله "" .

وأخرج مسلم وغيره عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر : ﴿ واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾[4] . ... ثم يقول بعدها : ألا وإن القوة الرمى فقد فسر رسول الله القوة بالرمى ، وهذا التفسير يتسع لكل وسائل الرمى ، كالرمى بالسهام والنبال والحجارة فى القديم ، والرمى بالنيران والقنابل والصواريخ فى العصر الحديث .

ويقول الله سبحانه ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾[5] .

---

[1] الأنعام : ٨٢ .
(٢) لقمان : ١٣ .
[3] التوبة : ٣ .
[4] الأنفال : ٣ .
[5] يونس: ٢٦.

ويقول الرسول ﷺ فى تفسير ذلك : "" الحسنى : الجنة . والزيادة : النظر إليه تعالى . ولا يملك هذا التفسير أيضا إلا الرسول الذي يوحى إليه .

ويقول الله سبحانه ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ﴾ [1] وقد فسر الرسول ﷺ استطاعة السبيل إلى الحج بالزاد والراحلة [2] .

هذه أمثلة قليلة لتفسير كثير للقرآن بالقرآن أو للقرآن بالسنة ، وهى - كما ذكرنا - من أحسن طرق التفسير . ولكننا إذا لم نجد التفسير فى القرآن ولا فى السنة فإننا قد نجد ذلك فى أقوال الصحابة وهم أقرب الناس إلى الرسول ، كما أنهم - بهذا القرب - أدرى بموضوع التفسير ، ولقد قال ابن مسعود : " كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن ".

وقال أبو عبد الرحمن السلمى : " حدثنا الذين كانوا يقرئوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبى ﷺ فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعلموا بما فيها من العمل ، فتعلمنا القرآن والعمل جميعا " [3]

وإذن فإن تعرض الصحابة لتفسير القرآن ليس آتيا من فراغ ، وإنما هو يعتمد على قربهم من رسول الله ﷺ ، وعلى سماعهم منه وعلى تلقيهم لتفسيره وأقواله فى القرآن وهو الذى نزل عليه كما نزل عليه تفسيره . وفى ذلك يقول الله سبحانه ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾ [4] .

ولقد بين ابن تيميه أن تفسير القرآن يكون على نوعين :

النوع الأول :

وهو الذى يستند على النقل فقط مما قدمناه فى تفسير القرآن بالقرآن أو بالسنة ، فإذا كان منقولا نقلا صحيحا عن النبى قبل ، وأما إذا نقل عن أهل الكتاب ككعب

---

[1] آل عمران : ٩٧ .

[2] أخرجه الحاكم والترمذى وابن ماجه .

[3] مقدمة ابن كثير على تفسيره ، تفسير ابن جرير ج٢ /٧٢ .

(٤) النساء : ١٠٥ .

ووهب توقفنا عن تصديقه وتكذيبه لقول الرسول ﷺ : "" إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم "" .

النوع الثانى :

وهو ما يمكن معرفة الصحيح منه من غيره ، ومنه ما لا يمكن ذلك .

ويأتى الخطأ فى هذا النوع من جهتين :

إحداهما : حمل ألفاظ القرآن على معان اعتقدوها لتأييدها به كما يفعل ذلك أصحاب الفرق وأتباع المذاهب فى الأصول والفروع المتعصبون لها .

وهم حين يفعلون ذلك فإنهم يجعلون مذاهبهم أصولا والقرآن فرعا لها يحمل عليها .

ثانيهما: التفسير بمجرد دلالة اللغة العربية من غير مراعاة المتكلم بالقرآن وهو الله عز وجل ، والمترل عليه والمخاطب به [1] .

ويرى الإمام محمد عبده [2] أن هذا النوع الأخير وهو اتجاه التفسير اللغوى الذى لا يقصد به إلا حل الألفاظ وإعراب الجمل ، وبيان ما ترمى إليه العبارات والإشارات من النكت الفنية ... نوع جاف مبعد عن الله وعن كتابه وهذا لا ينبغى أن يسمى تفسيرا ، وإنما هو ضرب من التمرين فى الفنون كالنحو والمعانى وغيرها .

وفى مقابل هذا النوع المرفوض نوع آخر يكون فرض كفاية حيث يستجمع المفسر فيه شروط التفسير ، ويذهب فيه إلى فهم المراد من القول ، وحكمة التشريع فى العقائد والأحكام على الوجه الذى يجذب الأرواح ويسوقها إلى العمل والهداية المودعة فى الكلام ليتحقق فيه معنى قوله تعالى ﴿ هدى ورحمة ﴾ ونحوهما من الأوصاف .

فالمقصد الحقيقى وراء كل تلك الشروط والفنون هو الاهتداء بالقرآن على الوجه الذى يتفق مع الآيات الكريمة المترلة فى وصفه وما أنزل لأجله من الإنذار والتبشير والهداية

---

[1] انظر تفسير المنار ج ١/٨ - ١٠ .

[2] السابق : ٢٢ .

والإصلاح ، ثم العناية إلى مقتضى حال هذا العصر فى سهولة التعبير ومراعاة إفهام صنوف القارئين ، وكشف شبهات المشتغلين بالفلسفة والعلوم الطبيعية وغيرها [1] .

وخلاصة ذلك أن القرآن ما دام قد نزل هداية للإنسان ، وأن الغاية من نزوله تتمثل فى قوله سبحانه ﴿ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ﴾ [2] .

فإن فيه – كما ترسم هذه الآية علاقة السماء بالأرض المتمثلة فى نزوله إلى الناس وهو – كما وصفه الرسول – " مأدبة الله فأقبلوا من مأدبته " .

وفيه الحركة المتمثلة فى إخراج الناس من كل ظلمات الحياة إلى نور الإيمان فى الدنيا ونور الجزاء فى الآخرة ، وفيه مصدر الهداية المتمثل فى قوله تعالى ﴿ بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ﴾ .

وتفسيره إذن يجب أن يكون فى هذه الضوابط حتى لا ينحرف به إلى غير ما أراد الله من هذا القرآن ومن أجل الإنسان .

ولقد لخص مفسر كبير هو الطبرى فى كتابه (جامع البيان فى تفسير القرآن) القضايا التفسيرية فى كتابه على النحو التالى [3] .

١ – شرح الحديث الشريف "" أنزل القرآن على سبعة أحرف "" والانتهاء من ذلك إلى أن معناه أنزل القرآن بسبع لهجات من لغة العرب .

٢ – بيان اللغة التى نزل بها القرآن والرد على من قالوا إن فيه كلمات غير عربية .

٣ – وجوه تأويل القرآن ، وما يمكن الوصول إليه ، وما لا يمكن الوصول إليه .

---

[1] انظر تفسير المنار ج١ / ١٠-١١ .

[2] إبراهيم : ١ .

[3] انظر : الطبرى . د / أحمد محمد الحوفى ، سلسلة أعلام العرب / ١٠٨ – ١١٧ .

فالتأويل فى رأيه على ثلاثة أوجه :

أحدهما : ما استأثر الله بعلمه ، وحجب معرفته عن جميع خلقه مثل وقت قيام الساعة والنفخ فى الصور .

وثانيهما : ما خص الله بعلم تأويله نبيه ﷺ دون سائر أمته ، فلا سبيل إلى علم ذلك إلا ببيان الرسول لهم تأويله .

وثالثها : ما كان علمه عند أهل اللسان الذى نزل به القرآن وذلك علم تأويل عربيته وإعرابه .

فصل فى بعض الأخبار التى رويت فى الحض على العلم بتفسير القرآن ومن كان يفسره من الصحابة وواضح من عرض هذه القضايا أنها داخلة فى علوم القرآن وعلوم التفسير دون الدخول فى التفسير ذاته ، كما ظهر فى تفسير القرآن ما يسمى بالتفسير الموضوعى وهو الذى يتناول جانبا واحدا من جوانب القرآن بالدارسة والبحث ، وغالبا ما تكون الدراسة لموضوع معين متناوله له من كل الجوانب ، مستوعبه لكل ما فيه من جزئيات ربما لا يتاح تناولها فى التفسير العام .

ومن أمثلة هذا اللون من التفسير [1] :

- التبيان فى أقسام القرآن . – لابن القيم .
- مجاز القرآن . – لأبى عبيدة.
- مفردات القرآن . – للراغب الأصفهانى .
- الناسخ والمنسوخ – لأبى جعفر النحاس
- أسباب نزول القرآن – لأبى الحسن الواحدى
- أحكام القرآن (للجصاص – ابن العربى – ألكيا الهراس) .

---

[1] انظر : علم التفسير . د/ محمد حسين الذهبى / ٦٩ .

من نماذج القيم الإسلامية

- قيم التدين .
- قيم الأخلاق .
- قيم الاجتماع .

تكوين القيم من خلال بناء العقيدة

ضرورة الدين للحياة فى كل العصور

منذ أربعة عشر قرنا من الزمن جاء رسول الله ﷺ بالاسلام من عنـــد ربـــه ، فخاطب به قوما من الأميين الذين إرتبطت حضارتهم وقيمهم بالجزيرة التى عاشوا فيها ، وبالرحلات التى قاموا بها بين اليمن شتاء والشام صيفا ، ثم فتحوا عيونهم على هذا الدين الجديد ، فرأوا شيئا جديدا ، وفتحوا آذانهم فسمعوا مبادئ جديدة ، وأحسوا أن هـــذا الدين ينقلهم إلى حضارة واسعة تمتد ظلالها إلى الحياة والمجتمع حيث تغير لهم كثيرا مـــن العادات والتقاليد .

فبينما كان الجاهلى يفتخر بالعدوان على جيرانه ، ويرى فى هذا العدوان مظهرا من مظاهر القوة والمنعة ، جاء الاسلام فدعا إلى العفو والتسامح ، وجعله مـــن مكـــارم الاخلاق ، وسمع العربى مثل قول الله عز وجل ﴿ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ، وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾ [1] .

وأخرج الاسلام العرب من حدود إجتماعية ضيقة إلى أفاق عالميـــة واســـعة ، وكون لهم فكرا وثقافة كما بنى لهم مجدا وحضارة .

ولكن إذا كان قد فعل ذلك لقوم من الأميين ولمجتمعات البداوة منـــذ قـــرون ، فماذا يمكن ان يقدمه لأبناء القرن العشرين رواد المخترعات وبناة الحضارات ؟ .

إن إنسان القرن العشرين قد سيطر على الأرض فأستخرج كنوزهـــا ، وســـخر البحر فأكتشف أعماقه ، وهتك حجاب الفضاء فأستقر على القمر ، وهو بـــين ذلـــك يفرض إرادته وينشر سلطانه على موجات الأثير وأسلاك الـــبرق ، ويضـــرب بجـــذور حضارته فى أعماق العالم .

فماذا يمكن أن يصنع له الديـــن بعد ذلك وما ضرورة الدين لحياتـــه الحديثة

---

[1] فصلـــت : ٣٥ .

المتطورة ؟ قد يكون لهذا التساؤل وجاهته إذا كان مدلول الحضارة ثابتا لا يتغير ، وإذا كانت الغاية التى يسعى اليها الإنسان هى الغاية التى تسعى اليها الأديان ، ولكننا حيث نتأمل الطريق الطويل الذى سلكه أنبياء الله وهم يحملون الدين إلى أقوامهم تجدهم لا يخدعون الناس ولا يعدونهم بالطعام الشهى والكساء الفاخر ، ولكنهم يعرضون عليهم الحقيقة التى بعثوا بها من عند الله فيقول نوح لقومه ﴿ ولا أقول لكم عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، و لا أقول أنى ملك ، ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما فى أنفسهم إنى إذا لمن الظالمين ﴾ [1] .

وحين حاول المشركون أن يجروا رسول الله ﷺ إلى لون من التعجيز المادى فقالوا له ﴿ لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار ... ﴾ إلى آخر هذه التحديات ، كان جواب الرسول عليهم ﴿ سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا ﴾ [2] .

وإذن فإن ضرورة الدين للإنسان فى كل عصر لا تتمثل فى الرغيف الذى يأكله أو القرش الذى ينفقه ، أو الثوب الذى يرتديه ولكنها تتمثل فى مصاحبته لهذا الإنسان فى طريق الحياة موجها ومرشدا وصديقا ، وفى تنشئته على مبادئ دائمة وعقيدة ممتدة وإنسانية لا يحدها قطر من الأقطار ولا تتوقف على جيل من الأجيال ، ومن هنا لم يكن الإسلام مقصورا على طقوس معينة ، فالإسلام هو الحياة .

وإذا كان الدين ضرورة لحياة الناس فإن التدين فطرة فى طباعهم ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها ﴾ [3] .

وهو صبغة تنتظم الحياة بمدلولها الشامل وتعم الإنسانية على مسارها الطويل ﴿صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون ﴾[4].

---

[1] هود : ٣١ .

[2] الإسراء : ٩٢ .

[3] الروم : ٢٠ .

(٤) البقرة : ١٣٨ .

وإذا كان الدين بوجه عام ضرورة لحياة الإنسان ، وفطرة فى طبيعته وصبغة فى نفسه ، فما موقع الإسلام من هذا التعريف الشامل ولماذا اعتنقنا الإسلام بالذات ؟ .

الواقع أننا لما انتهينا إلى أن الدين فطرة فى نفس الإنسان وأن فى طبيعته منذ الأزل شيئا يبحث عن الله المعبود فإننا نتفق إلى جانب ذلك على أن الدين عند الله الإسلام ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ [1] .

ولقد ذكرت كلمة الإسلام قبل نبينا محمد ﷺ ، وهى تعنى الاتجاه الصحيح والتسليم الكامل لله رب العالمين يقول الله تعالى ﴿ ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ﴾ [2] . ويقول ﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه : ما تعبدون من بعدى ، قالوا : نعبد الهك وإله ابائك إبراهيم واسماعيل واسحق إلها واحدا ونحن له مسلمون ﴾ [3] .

ويبعث سليمان رسالته إلى ملكة سبأ بقوله :"" ألا تعلوا على وائتونى مسلمين ""وحين تؤمن هى تقول :"" رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين "" [4] .

ولقد جاء الاسلام مصدقا للأديان كلها ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ [5] .

وإذا كانت الاديان من عند الله وإذا كان الانبياء جميعا سفراء الله إلى البشر فإننا مكلفون بأن نعتنق آخر الأديان ونتبع آخر الأنبياء .

---

(1) آل عمران : ٨٥.

(2) آل عمران : ٦٧ .

(3) البقرة .

(4) النمل : ٣١ - ٤٤ .

(5) الشورى : ١٣ .

والإسلام – إلى جانب ذلك – دين يتفاهم مع طبيعة الإنسان ويحـــترم آدميتـــه ويعترف بحقوقه فى الحياة ويشرع له ما ينظم أمر دنياه كما يرسم له ما يهيئ أمر آخرته ، والمسلم يساير فطرته حين يعتنق الإسلام ويمضى فى طريقه فى الحياة وهو يشعر أن هـــذا الدين صديق له إن أحس بوحشة من الناس ، ومرشد له إن تفرقت به السبل ، ويقـــرأ فى كتاب الله عز وجل مثل قوله تعالى ﴿ إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم ﴾ [1] . وإذا كنا قد انتهينا إلى ضرورة الديـــن لإقامة الحياة والسمو بكيان الإنسان وإذا كنا قد إرتضينا الإسلام دينا حيث هدانا الله اليه وارتضاه لنا دينا ، فإن ذلك يقتضى أن نقتنع اقتناعا كاملا بالإسلام منهجا وطريقا ، والى أن نؤمن به إيمانا واعيا فكرا وتطبيقا إلى أن ندافع عنه دفاعا حاسما ضد خصومه الجاهلين به أ والمعاندين له ، وهذا يدعونا أيضا إلى الاعتقاد الجازم بقدرة الإسلام على مواجهـــة التيارات العصرية وحل المشكلات العالمية .

وليس هذا الإيمان ضربا من التعصب الأعمى أو العصبية المذمومة ، فإنه ليس من الإيمان ان نسخر من معتقدات غيرنا ، أو أن نسفه اراء المخالفين لعقيدتنا .

إنما الإيمان الذى نقصده هو حب الدين والارتباط بنظمه وشريعته ، والإلـــتزام بأحكامه وتعاليمه .

وهذا هو الإسلام الذى نعتقده ونؤمن به ، دين مصدق للأديان كلها ، وفطـــرة فطر الله الناس عليها ، ومرشد ينظم أمر الدنيا والآخرة وهو الدين الخاتم الذى ختم الله به الرسالات والشرائع ونبيه هو خاتم المرسلين .

والإسلام بهذا الفهم عقيدة معروضة على العالم ومنهج شامل لكل مرافق الحياة ، فقد بعث الله به رسوله إلى الناس كافة ، وبث فيه من المقومات ما جعله صالحـــا لكـــل عصر موجها إلى كل جيل ، ونحن اخيرا مكلفون بأن نأخذه برفق فأنه متـــين ، " ولـــن يشاد الدين أحد الا غلبه " وأن نعرضـــه أيضا على النـــاس برفـــق مستضيئين بقول الله

---

[1] النجـــم : ١٣ .

عز وجل ﴿ وقل أمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنـــا أعمالنا ولكم اعمالكـــم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا واليه المصير ﴾ [1] .

وقوله ﴿ قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن أتبعنى وسبحـــان الله وما أنا من المشركين ﴾ [2] .

---

[1] الشـــورى : ١٥ .

[2] يوســـف : ١٠٨ .

تكريم الإنسان فى ظل الإسلام

يقول الله عز وجل ﴿ ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ [1] .

وهذه الآية الكريمة تشريف للإنسان وشهادة بسمو منزلته عند ربه سبحانه وتعالى ولكن ما المقصود بالتكريم فى هذه الآية ؟ إن البعض يرى أنه حمل الناس فى البحر والبر ورزقهم من الطيبات وتفضيلهم على كثير من المخلوقات أى أن آخر الآية يفصل أولها ويفسره ، ولكن عطف هذه النعم على تكريم الانسان يفيد أنهما شيئان متغايران فإن تكريم الله للإنسان تكريم للمعنى الانسانى السامى فيه ، وتقدير للجانب النبيل فى طبيعته - ولعله سبحانه - من أجل ذلك قد جعله فى الأرض خليفة ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال إنى أعلم ما لا تعلمون ﴾ [2] .

وهذا التكريم أيضا بهذا المدلول يفسره اصطفاء الله رسلا من الناس يبلغهم رسالته ويصلهم به عن طريق ملائكته ، ويجعلهم سفراء بينه وبين عباده ،بل إن تكليف الله للإنسان فى الدنيا ومحاسبته فى الآخرة ليدل على كرامة هذا المخلوق وعلو منزلته ، لأن تكليفه شهادة بجدارته وشرفه على كثير من المخلوقات كالجماد والطير والحيوان .

ولذلك فإن القرآن ينعى على الذين عطلوا مواهبهم وتجاهلوا العطايا النفسية الممنوحة لهم فلم يستجيبوا لداعى الله ، وعجزوا عن استيعاب ما انزل الله -- يقول عز وجل ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ [3] .

---

[1] الإسراء : ٧٠ .
[2] البقرة : ٣٠ .
[3] الأعراف : ١٧٩ .

وإن الميراث الذى يتركه رسول الله ﷺ للمسلمين فصاروا به خير أمة أخرجت للناس ، لم يكن ثروة مما تعارف عليها الناس و لم يكن عرضا من أعراض الدنيا ، وإنما كان هذا الميراث مبادئ مسوقة للبشر يتعاملون بها على الأرض ويتصلون من خلالها بالسماء ، ولقد روى أن أبا هريرة : مر يوما بسوق المدينة فقال : ما أعجزكم يا أهل السوق قالوا : وما ذاك يا أبا هريرة ؟ قال : ذاك ميراث الرسول يقسم ، فبادروا ليأخذ كل منكم نصيبه قالوا : وأين يقسم ؟ قال : بالمسجد .. فدخلوا المسجد مسرعين ، وخرجوا فقالوا : يا أبا هريرة ، ما رأينا تركة تقسم . قال : فماذا رأيتم ، قالوا : رأينا قوما يصلون وقوما يقرءون وقوما يتدارسون الحلال والحرام ، فقال : ويحكم ، فهذا هو ميراث الرسول ﷺ .

وهذا الفهم يدل على احترام كيان الإنسان الذى يحيا بمبادئه لا بشهواته ، ويعيش على سمو عقيدته لا على سعار غرائزه ﴿ أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها . كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾ [1] .

فإذا كرم الله عباده هذا اللون من التكريم ، فإنه يدعوهم إلى أن يكرموا أنفسهم وأن يقدروا المنح الإلهية المبثوثة فيهم ، فالحاكم يحترم المحكومين لأنه واحد منهم غير مفروض عليهم والمحكومون يحترمون الحاكم لأنه يمثلهم ويسهر على مصالحهم ولقد نظم أبو بكر رضى الله عنه عند العلاقة بين الحاكم والمحكوم فى خطبته المشهورة حيث قال :" اطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لى عليكم " .

هذا بين الحكام والمحكومين ، أما بين الناس بعضهم والبعض الآخر ، فقد دعا الاسلام إلى الحب فى الله وبشر الرسول ﷺ المتحابين فى الله بالجنة ، فنصب لهم كراسى حول العرش ، ويفزع الناس وهم لا يفزعون .

---

[1] الأنعام : ١٢٢ .

ونهى الإسلام عن الشحناء والبغضاء فقال الرسول ﷺ "" لا تشاحنوا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا .. وكونوا عباد الله إخوانا "" . وبغض في الغيبة لأنها اعتداء على الغائب وانتقاص من كرامة المغتاب ، كما بغض في احتقار الإنسان لأخيه الإنسان ، وبحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه .

وهذا يشير إلى أن كيان الانسان فى الإسلام مصون وبأن كرامته فى ظل عقيدته مضمونه ، وبأنه بهذا الدين يزكى الجانب الإنسانى فيه ، وبغير هذا الدين يرتد كما يقول القرآن ﴿ أسفل سافلين ﴾ .

ولقد جاءت الأديان كلها تحرر وجدان الإنسان من العقائد الفاسدة وتحرر ارادته من الطواغيت المتسلطة ، ونطلق إسارة من عبوديته لغير الله ، ولقد اجتمعت كلمة الأنبياء جميعا على مبدأ واحد وهو عبادة الله وحده وعدم الإشراك به ، فنجد نوحا يقول لقومه ﴿ إنى لكم نذير مبين ألا تعبدوا إلا الله ﴾ [1] .

وهودا يقولها لقومه ﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ [2] . وكذلك صالح ولوط وشعيب لأقوامهم ، ويأتى ابراهيم فيستنكر على قومه عبادة الأصنام قائلا ﴿ ماذا تعبدون أئفكا آلهة دون الله تريدون فما ظنكم برب العالمين ﴾ [3] .

ويسجل القرآن حوارا بين موسى وفرعون يتمثل فيه صمود العقيدة الصحيحة وعلوها على الإدعاء المذموم ﴿ قال فرعون : وما رب العالمين ، قال : رب السموات والأرض وما بينهما ان كنتم موقنين ، قال لمن حوله : ألا تستمعون . قال ربكم ورب آبائكم الأولين ، قال : إن رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون ، قال : رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ﴾ [4] .

وحول هذه الحقيقة أيضا نسمع قول الله عز وجل والخطاب للمسيح عليه السلام

---

[1] هود : ٣٥ - ٣٦.

[2] هود : ٥٠ .

(٣) الصافات : ٨٥ - ٨٧ .

[4] الشعراء : ٣٣ - ٣٨ .

﴿وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذون وأمى ألهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب ، ما قلت لهم إلا ما آمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم ﴾ [1] .

ثم يأتى الإسلام تتويجا لهذا المنهج الربانى وإتماما لهذا البيان الذى أسس على العقيدة الصالحة وينادى نبى الإسلام عليه الصلاة والسلام بنداء لأهل الكتاب ﴿ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ [2]

وإذا كنا هكذا قد رأينا الأديان كلها قد وجهت عنايتها الأولى إلى تحرير عقيدة الانسان من الزيغ ، فذلك لأن تحرير العقيدة للإنسان هو الخطوة الأولى لتحرير الإنسان نفسه ، فإنه إذا عبد الله وحده و لم يشرك به شيئا ، تحرر ضميره من الشك ، وتحررت إرادته من الضعف ، وتحررت نفسيته من الخوف ، ووقف فى وجه كل تحديات الحياة يحمل عقيدته فى قلبه ، ويضع عزمه نصب عينيه ، ولعل هذا هو تفسير رسول ﷺ "" إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى "" .

هذه العقيدة الصحيحة فى نفس المسلم كفيلة بمحو ما عداها من العقائد الزائفة ، وإشراق معنى الوحدانية فى قلب المؤمن قادر على طمس كل الخواطر الزائغة وحين تتجسد الحقيقة الألوهية فى المشاعر تتحطم فيها كل الأوثان ، سواء أكانت هذه الأوثان من حجارة أو من الثروة أو من البشر .

ومن هنا نشأ الصدام بين الرسل وهم أصحاب الدعوات وبين المكذبين وهم أصحاب السلطات ، ولقد سجل القرآن أكثر من صورة لهذا الصدام ﴿ ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحى

---

[1] المائدة : ١١٥ - ١١٦ .

[2] آل عمران : ٦٤ .

وأميت ، قال إبراهيم فإن الله يأـــي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ وكان فرعـــون موسى رمزا على العناد والتكذيب ﴿ وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا ، وكذلك زين لفرعـــون ســـوء عمله وصد عن الســـبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب ﴾ (1) .

ومن خلال هذا الصدام أيضا نحس السر فى تمسك اصحاب الدعوات بطريقتهم وإن ساروا فيه على الأشواك ، فهم بأيمانهم قد تحرروا من كـــل الخـــوف ، وبصـــبرهم أستعذبوا كل بلاء ، وكان حداؤهم على طـــريق الله مثل قوله عز وجل ﴿ أحســـب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمـــن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ (2) .

وإذا جاز أن تكون الفلسفات المختلفة أفكارا مجردة تخـــالط العقـــل وتصـــافح الوجدان ،فليس الإسلام محسوبا – بالطبع – من هذه الفلسفات ، لأنه جاء دينا ، والدين لا يساق إلى الانسان فلسفة ضارية فى الخيال أو آرقاما مغرقة فى المادية ، ولكنـــه جـــاء هداية إلى الناس ينهد لهم طريق الحياة ، ويمد لهم هذا الطريق حتى يصلهم بالآخرة .

ولقد لخص القرآن الكريم الغاية من نزوله على رسول ﷺ وذلك حيث يقول الله عز وجل فى جزء من آية كريمة ﴿ ... كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ﴾ (3) .

ويتضح لنا كلما أمعنا النظر فى آيات القرآن الكريم أن الاسلام يصـــور حقيقـــة الايمان فيجعله شطرين لا غنى لأحدهما عن الآخر : شطرا عقائديا يتمثل فى الإيمان بالله ، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

---

(1) غافـــر : ٣٧ .

(2) العنكبوت : ٢ .

(3) إبراهيم : ١ .

وشطرا سلوكيا يتمثل فى الترجمة العملية عن الشطر العقائدى ، بالإمتثال لأوامر الله ، والألتزام بتكاليف الإسلام ، وليس الإيمان كما قال الرسول ﷺ بالتمنى ، ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل ، ونقول أنه لا غنى لأحد الشطرين عن الآخر ، لأن الإيمان بلا عمل إيمان عقيم ، والعمل بلا إيمان عمل مردود ، ولا يتصور الإسلام إيمانا خالصا لا يحرك صاحبه إلى العمل الخلاق والسلوك القويم كما لا يقبل عملا لا يقوم على قاعدة صلبة من الإيمان بالله .

ويقول الله عز وجل ﴿ أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أمن أسس بنيانه على شفا جرف هار فإنهار به فى نار جهنم ﴾ (1) .

وعندما اهتدى المؤمنون إلى الله فهتفوا من قلوبهم ﴿ ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ﴾ .

وعندما أتجهوا اليه أن يتجاوز عن زلتهم ويغفر لهم ذنوبهم .. ﴿ ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ﴾ وعندما طلبوا منه النصر الذى وعدهم إياه .. ﴿ ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد ﴾ كانت استجابة الله لهم مشروطة بالعمل والجهاد فى سبيله ، والصبر على بلاء الدعوة إليه ..﴿ فأستجاب لهم ربهم إنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾ (2) .

فالإيمان هنا إيمان مقترن بالعمل ، والعمل هنا عمل صالح يستظل بالإيمان ، ولقد قيل لرسول ﷺ قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك ، قال : " قل آمنت بالله ثم أستقم " . فالاستقامة مطلوبة بعد الإيمان. استقامة على حقيقته والتزام بأعبائه وأرتباط بمبادئه .

---

(1) سورة التوبة : ١٠٩ .

(2) آل عمران : ١٩٤ .

وإن سلوك الفرد فى ظل الإيمان يجب أن ينعكس على المجتمع رحمة وبرا وتعاونا ، فالفرد فى تصور الاسلام لبنة فى بناء المجتمع ، وكلما كانت اللبنة صالحة كان البناء قويا متينا ، ولا يرحب المجتمع برجل كثير الصلاة كثير الصيام ، ولكنه قليل النفع لإخوانه ، سريع الإيذاء بلسانه ، فصورة هذا الرجل كصورة المرأة التى عرضت على الرسول ﷺ والتى تصوم وتصلى ، وتؤذى جيرانها بلسانها ، فقال : هى فى النار ، فلم ينفعها صيامها و لم تنفعها صلاتها ، حيث كان الصيام كفيلا بتطهير سلوكها كما طهر جوفها ، وكانت الصلاة كفيلة بكفها عن العدوان لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، فلما لم تتأدب بآداب الصلاة ، فكأنها لم تصل و لم تصم وكان جزاؤها النار .

وخلاصة القول : ان سلوك الفرد المسلم ترجمة عملية لمبادئ الاسلام ، وتنفيذ واقعى لهداية القرآن ، وإذا صار بين الناس كان الصورة المادية على الأرض للمبادئ الروحية فى الكتاب داخله إيمانا واعتقادا ، ويقيم الدنيا من خارجه سلوكا وتحصيلا .

والإنسان فى هذه الحياة الدنيا يحرص – ضمن ما يحرص – على شيئين : رزقه وأجله ، وهو بصدد البحث عن الرزق يقرأ قول الله عز وجل ﴿ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين ﴾ [1] .

وهو أيضا من خلال حرصه على أجله قد يؤمن بأن الأجل محدود ، وبأن عمر الانسان معدود وأنه ﴿ وإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ [2] .

وقد يؤدى به الفهم إلى القعود عن طلب الرزق ما دام مكفولا ، والى الوقوف فى وجه الأخطار ما دام العمر محدودا ، وهذا لا شك فهم قاصر لمعنى كفالة الله الرزق وتحديد الأجل ، ولقد سأل بعض الصحابة الرسول ﷺ : علام نعمل وقد تكفل الله بالرزق ؟ فقال : أعملوا فكل ميسرلما خلق له ، ولقد كان عمر يقول :" لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول : اللهم ارزقنى فإن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة ".

---

[1] هود : ٦ .

[2] الزاريات : ٢٢ .

وإذا كان الله قد تكفل بالرزق لكل دابة فى الأرض ، فإن هذا الرزق لا يجـــرى على الكسالى والخاملين ، ولكنه يجرى على الطالبين العاملين ﴿ وقل أعملوا فســيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾ [١] ولقد كان أنبياء الله يعملون ، وكانت لهم وســـائلهم المختلفة فى طلب الرزق ، وهم بذلك يرسمون الطريق للســـالكين ، ويضربـــون المثـــل للمقتدين ، فيقول القرآن عن داود ﴿ وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأســـكم فهل أنتم شاكرون ﴾ [٢] . وقد كان النبى عليه السلام يقول :"" ما من نبى إلا وقد رعى الغنم "" .

والسعى على الرزق طبيعة فى نفس الانسان ، لأنه صادر من حرصه على حياته وهذا الحرص فطرة مركبة فيه ، والاسلام يقر على ذلك بل يدعو اليه فهو يدعـــو إلى طلب الرزق فى مثل قول الله عز وجـــــل ﴿ فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور ﴾ [٣] . ويذكره بالسعى فى هذا الطلب ألا يدخل وقت الصلاة فى وقت الســعى فيقول تعالى ﴿ فإذا قضيت الصلاة فأنتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكــروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ﴾ [٤] .

ولكن الانسان أيضا وهو فى طريقه إلى البحث عن رزقه قد ينسى غايته السامية أو يتجاهل رسالته على هذه الارض فلا يتحرى الرزق الحلال ولا يبحث عـــن اللقمـــة الطيبة ، وحينئذ لابد من تذكيره بشفافية الروح التى بين جنبيه ، ونبيل الغاية التى يعيـــش من اجلها ، وبضرورة التحرى عن المطعم الحلال والمشرب الحلال ، فعن أبى هريـــرة أ، رسول الله ﷺ قال : "" أن الله طيب لا يقبل إلا طيبا ، وإن الله امر المؤمنين بما أمر المرسلين فقال ﴿ يأيها الرسل كلوا من الطيبات وأعملوا صالحـــا إنى بما تعملون عليم ﴾ ، وقال ﴿ يأيها الذين أمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ ، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعـــث

---

[١] الأعراف : ٣٤ .

[٢] الأنبياء : ٨٠ .

[٣] الملـــك : ١٥ .

(٤) الجمعة : ١٠ .

أغبر ، مطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ... يمد يده إلى السماء : يا رب يا رب .. فأنى يستجاب له ؟ " فإن رسول الله ﷺ يستبعد أن يستجيب الله لمثل هذا الانسان الداعى ، لأن الدعاء عبادة ، بل هو مخ العبادة كما قال الرسول والعبادة لابد أن يتهيأ لها الانسان بطهارة النفس كما يمكن أن يتهيأ لها بطهارة الجوارح .

وقد يفهم البعض وهو يسعى فى طلب الرزق أن كثرته دليل على رضى الله عليه وأن قلته دليل على سخطه ، وهذا الفهم أيضا غير صحيح ، فإن الله يعطى الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب ، ولكنه لا يعطى الدين إلا لمن يحب .

ورضا الله على عبده متعلق بحسن نيته ووضوح قصده ، فمن كان يطلب الرزق من حلال ، وينفقه فى حلال ، فإن الله يبارك فى رزقه وإن كان قليلا ، وذلك كما يفعل فى الربا والصدقة ﴿ يمحق الله الربا ويربى الصدقات ﴾ [1] .

وعن الأموال الكثيرة المتراكمة فى الأيدى غير المؤمنة يقول الله عزوجل :﴿ ولا تعجبك أموالهم و أولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾ [2] .

وعن تقدير الرزق على بعض العباد يقول الرسول ﷺ فيما يروى أبو سعيد الخدرى : "" أن الله عز وجل " ليحمى عبده المؤمن الدنيا وهو يحبه ، كما تحمون مريضكم الطعام والشراب " .

فإذا اجتمع الرزق الطيب الكثير فى اليد المخلصة الأمينة ، فنعم المال الصالح للرجل الصالح .

---

[1] البقرة : ٢٧٦ .

[2] التوبة : ٨٥ .

من قيم الدين والتدين

الدعوة التامة

لقد كان من آخر آيات القرآن الكريم نزولا إن لم يكن آخرها على الاطـــلاق قوله عز وجل :﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ [1] .

ومن مأثور دعاء المسلمين " اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمـــة آت محمدا الوسيلة.." .

وإذا تأملنا الآية الكريمة وجدنا أن الله سبحانه وتعالى يمتن على عبـــاده المؤمنـــين بدين كامل ونعمة تامة ، وأن الدعاء الذى يردده المؤمنون عقب كل أذان هـــو صـــدى للإحساس بهذه النعمة التى أنعم الله بها على عباده ، فهم يعتنقون دينا شـــاملا يخـــاطب البشرية فى كل زمان ومكان ، ويؤمنون بدعـــوة ربانيـــة ينتظمها كتاب وصفـــه الله بقوله ﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾[2] .

ومعنى كمال الدعوة التى يلتف حولها المؤمنون أنها تصاحب الانسان فى رحلتـــه على هذه الأرض فترشده إلى الطريق السوى ، وتوجهه إلى ما ينفعه وتحذره مما يضره ... ثم تجعل طريقه بعد ذلك موصولا بربه ، وتجعل حياته امتدادا لآخرته .

ومن معالم دعوة الإسلام الواضحـــة انها جعلت حدودا ثابتـــة لا يتعداهـــا المسلمون ﴿ ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ﴾ [3] . ثم أطلقت لهم المجال الفكرى فى سائر نواحى الدنيا ، وفتحت لهم أبواب الحرية فى سائر المعاملات الشخصية مما يجلب لهم المصالح ويدرأ عنهم المفاسد ، ويتفق مع الأسس العامة التى رسمها الدين .

وان رسول الله ﷺ ليدعـــو المؤمنين إلى الاستمساك بهذه الدعوة التامة ويجعلها

---

[1] المائدة : ٣ .

[2] الأعراف : ٥٢ .

[3] الطـــلاق : ١ .

الدستور الذى يهتدى به المؤمنون فيقول : "" تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدى ابدا ، كتاب الله وسنتى "" .

فلا مجال للتغيير فى أصول الدين ، وقد اكتملت ، ولا مجال للإبتداع فى أسسه وقد تمت ، فإن (كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار) .

ولكن مجال التأثر والتغيير هو ميدان التطور البشرى الذى تمثله مراحل الإنسان فى هذه الحياة ، وهو ما ام تطورا صالحا يرتفع بقيمة الإنسان ويحقق صورته كما أرادها الله فهو تطور محمود يحث الإسلام عليه ، ويدعو المسلمين اليه ، والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو احق الناس بها . وهذا الدين بهذه الصورة الكاملة وهذه المعالم التامة يخاطب أمة واحدة لا فرق فيها بين أبيض واسود ولا تفاوت فيها بين عربى وأعجمى فالكل يعبدون ربا واحدا ، حيث يقول الله ﴿ إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى ﴾ [1] .

ويتجهون إلى قبلة واحدة بصلوات واحدة لا تتغير صورها ، ولا تتعدد طريقتها مهما تعددت أقطار المسلمين .

وهذه الوحدة الشاملة يعبر عنها القرآن الكريم فى قوله سبحانه وتعالى ﴿ وإن هذه امتكم أمة واحدة .. وأنا ربكم فاعبدون ﴾ [2] .

فإذا اعترى عقائد الناس فى هذه الحياة نقص ، فإن دين المسلمين كامل ، وإذا أصيبت مبادئ العالم بقصور أضل الناس فدعوة الإسلام تامة .

وفى ضوء هذه النعمة التى أمتن الله بها على عباده يجب أن يشعر المسلمون بوحدتهم ، وأن يستظلوا براية الدين الذى هم به كل شئ وبدونه لا شئ .

القرآن والإنسان :

تندرج منازل الإنسان – فى القرآن – صعودا وهبوطا بمقدار معرفته لإنسانيته كما

---

[1] سورة طه : ١٤ .

[2] الأنبياء : ٩٢ .

أرادها الله ، وبمقدار أمانته على الرسالة التى وجد من أجلها على الأرض .

والإنسان - بتصور القرآن - كبير بفطرته التى فطر الله الناس عليها وطبيعته التى هداه الله اليها ، وهو بذلك كفيل بأن يقيم ميزان الله على الأرض وبأن يحرس قانونه على هذه الحياة ... أى أنه بتعبير القرآن يكون فى الأرض خليفة .

والإنسان فى ضوء هذا الاستخلاف مخلوق كريم : يعمر الأرض بالسلام ويحكم الدنيا بالحب ، ويملأ العالم عدلا ورحمة .

وهذه الصورة فى مضمونها هى صورة الإنسان الذى جعله الله فى الأرض خليفة حيث يسلك الإنسان طريقه المستقيم بقلب سليم .

وهذا القلب ميزان صلاحه أو فساده على هذه الارض . وحياة الإنسان - فى ضوء هذه الصورة - أيضا هى الحياة التى يدعو الإسلام الناس اليها بعد أن كفل لهم وسائلها ومهد لهم الطريق اليها وأرسى من أجلهم الدعائم إلى بنائها .

فالله - سبحانه - قد بسط الأرض للإنسان ودعا إلى استغلال خيراتها ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ﴾ [1] .

فلا مجال للاختلاف على الأرض وهى واسعة ، ولا مجال للتنازع على الرزق وهو مبسوط .

والله خلق الكون كتابا مفتوحا يتدبر آياته أولو الألباب ﴿ قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يرمنون ﴾ [2] .

فإذا سخر الله الكون للإنسان فمن أجل أن يعرف الإنسان نعمة الله عليه ، ويعيش مع إخوانه فى ظل هذه النعمة مرتبطا بهم بروابط الأخوة التى هى سر بقاء المجتمعات الإنسانية الكاملة ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ﴾[3].

---

(1) الملك : ١٥ .

(2) يونس : ١٠١ .

(3) آل عمران : ١٠٣ .

لكن حين يهبط الإنسان من هذه الدرجة السامية التى خلف الله من أجلها ويتنكر للفطرة التى فطر الله عليها وكأنه ينسى نفسه ، ويتنكر للمعنى الإنسانى الرفيع الذى أودعه الله فيه ... وحين ذلك يذكره القرآن بأصل نشأته ليعود إلى طبيعته ويذكره بقدرة الله ليرجع إلى الإيمان ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب . إنه على رجعه لقادر : يوم تبلى السرائر . فما له من قوة ولا ناصر ﴾ [1] .

فلعله بهذا التذكير يعود إلى حقيقته ، ولعله بمثل هذا النداء يثوب إلى رشده ، فإن تمادى فى غيه وقطع شوطا فى طريق الضلالة و لم يستجب لنداء الإيمان فى قلبه ، فهو كما قال القرآن عنه ﴿ قتل الإنسان ما اكفره . من أى شئ خلقه . من نطفة خلقه فقدره ﴾ [2]

والإنسان بين هاتين المترلتين – الصعود والهبوط – يحيا حياته ويحقق ذاته ويعبر عن إرادته ، فإذا شاء ارتفع فصار بقلبه المشرق بمعانى الخير إنسانا كريما .

وإذا شاء هبط فصار بنفسه الأمارة بالسوء مخلوقا ذميما وهو بهداه لا ينفع إلا نفسه ، كما إنه بضلاله لا يجنى الا عليها ﴿ ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها ﴾ [3] .

---

[1] الطارق : ٥ – ١٠ .

[2] عبس : ١٧ .

[3] الشمس : ٧ – ١٠ .

القرآن ومدلول التطور الحضارى

دور الأديان فى حياة الإنسان

نود أن نشير إلى ظاهرة شائعة فى الناس جميعاً على إختلاف مجتمعاتهم وجنسياتهم ودياناتهم ، هذه الظاهرة هى أ ن الدين لم يعد هو الأساس فى حياة الناس وإنما أصبح يشغل زاوية متواضعة من زوايا هذه الحياة العريضة ، وتحول مدلول الدين فى مفهوم كثير من الناس إلى صورة رومانسية ، إن كانت جميلة فهى كاللوحة المعلقة على الجدار : تزينه ولكنها لا تمنعه من الإنهيار وتتلخص علاقة الناس بالدين بناء على هذه النظرية بأن يحافظوا على رونقه ، كما يحافظ على جمال اللوحة ، وبأن يقدسوه بإبعاده عن الحياة كما يحرصون على اللوحة فيبعدون عنها الغبار ونتيجة لذلك فقد تحول الدين إلى تاريخ : إن كنا نقدسه فكما نقدس جثث الأعزاء من الأموات ، وان كنا نحافظ عليه فكما نحافظ على الآثار فى متاحفنا .. فهل هذا هو الدين ؟ .

ولقد يقال فى هذا المجال أيضا ان الانبياء الذين اختارهم الله فبعثهم إلى الناس قد خاطبوا قوماً محدودى العقول ، محدودى الثقافة ، محدودى الحضارات وأن هؤلاء الأقوام المتخلفين فى كل شئ قد فتحوا عيونهم على الأديان التى جاء بها الأنبياء فرأوا شيئا جديداً :رأوا أن هذا الدين ينقلهم إلى حضارة واسعة تمتد ظلالها إلى حياتهم وتقاليدهم وتخرجهم من حدود إجتماعية ضيقة إلى افاق عالمية واسعة ، وتكون لهم فكراً وثقافة كما تبنى لهم مجداً وحضارة .

فإذا كانت الأديان قد فعلت ذلك لقوم من المتخلفين فماذا يمكن ان تفعل لأبناء العصر الحديث؟ إن إنسان القرن العشرين قد سيطر على الأرض فاستخرج كنوزها وسخر البحر فاكتشف اعماقه ثم مزق حجاب الفضاء حتى استقر على سطح القمر ، وهو بين ذلك يفرض ارادته وينشر سلطانه على موجات الأثير وأسلاك البرق ويضرب بجذور حضارته فى أعماق العالم .

فماذا يمكن أن يصنع له الدين بعد ذلك ؟ وما ضرورة الدين لحياته الحديثة المتطورة ؟

حقيقة علاقة الإنسان بالدين

هذا الموقف أحس انه يواجه الأديان كلها فى العصور الحديثة ، فللدين قداسة فى القلوب ، ولكن ليس له حياة فى السلوك ، وله صوت ينبعث من أعماق الماضى ، ولكن ليس له واقع نتعامل به فى الحاضر.

وأنا كأحد المؤمنين بدين - أحب أن احدد هذا الموقف وأواجهه من وجهة نظر دينى الذى هو الإسلام وأحب ابتداء أن احدد ذلك فى نقطتين :

١ - ما الرسالة التى جاء بها الدين الإسلامى إلى الناس ؟

٢ - ما المقصود بالتطور بالمفهوم العصرى وبالمفهوم الدينى ؟

الرسالة التى جاء بها الدين الدين الإسلامى إلى الناس يحددها القرآن فى جزء من آية واضحة ﴿ كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ﴾ .

ويقصد بالظلمات هنا معنى واسع لكل لون من ألوان الإنحراف فى الحياة والتواء الطبيعة الإنسانية كما أرادها الله .

كما يقصد بالنور معنى واسع لكل لون من ألوان الاستقامة والخير وتحقيق الجانب المضئ فى نفس الإنسان .

فالانطلاق فى الحياة بغير غاية ظلام ، وتحديد غاية الإنسان فى الحياة نور ، اعتداء القوى على الضعيف ظلام ، وإنصاف الضعفاء من الأقوياء نور ، بل أن الارتباط والإلتزام به ، من وجهة نظر الإسلام هو الحياة نفسها وإذا كان قد شبه إعتدال أمور الإنسان فى ظل الدين بالنور ، فقد شبه الدين نفسه بالحياة وشبه الحياة بغير دين بالموت ، فقالفى القرآن :﴿ أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ﴾ .

وبناء على هذه النظرية فلقد جاء الإسلام ليتفاهم مع طبيعة الإنسان فيحترم

آدميته وينظم علاقته بالحياة ، فيشعر الإنسان أ ن هذا الدين صديق يرشده ويعينه لا جلاد يلهب ظهره بسياط التكاليف وصرامة الأوامر والنواهى .

وإذا سار الإنسان على الطريق القويم للحياة ، فإنه يجد الدين يشجعه على المضى ويثبت قدميه على الطريق .

أما إذا زلت قدمه فسقط فإنه سيجد الدين يأخذ بيده برفق ويحيى نفسه بـــالأمل لأن الله كما يقول ﴿ واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم ﴾ .

وفى عبارة مختصرة نستطيع أن نقول : أن رسالة الإسلام هى تنمية المعنى الإنسانى فى الإنسان .. والدين بناء على ذلك هو الحياة .

التطور فى مفهوم العرف ومفهوم الدين

تبقى النقطة الثانية من هذا الحديث وهى المقصود بالتطور .

وأبادر قبل الإجابة عن هذا السؤال وتحديد معنى التطور فأشير إلى أن الدين لا يتملق أتباعه ، ولا يخدع المؤمنين به ولا يوهمهم بأن يحقق لهم كل ما يطلبون حـــــتى يصفـــوه بالتطور وإنما الدين كالطبيب : يهمه أن يعالج المريض بالدواء المناسب ، وان كـــان مـــر المذاق ويحرمه من بعض الأطعمة الضارة وإن كانت شهيـــة هذه واحدة أما الثانية : فإن الدين لا يتطور ، لأن الدين مبادئ خالدة وهذه المبادئ هى كيان الإنسان وحياته ، فمنذ وجد الإنسان على هذه الإرض ، والتزم بمجموعة من المبادئ فى حياته فإن مدلول هـــذه المبادئ لم يتغير ولكن الذى يتغير هو الإنسان نفسه .

وانطلاقا من هذه النظرة فلقد اعتبر الإسلام ان الحقيقة التى بعث بهـــا انبيـــاء الله جميعا واحدة ، وأن دور هؤلاء الأنبيـــــاء هو تذكير الناس بهذه الحقيقة وتثبيتهم علـــى مبادئها ، والقرآن يقول للمسلمين ﴿ قولوا آمنا بالله وما انزل الينا وما أنزل إلى إبراهيـــم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والاسباط ، وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون مـــن ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون ﴾ .

وذلك تأكيد للمعنى الكلى للدين ، والنظرة الشاملة للدعوة ، وبأن المبادئ التى دعا اليها أول نبى فى مجملها هى المبادئ التى دعا اليها اخر نبى .

بقى أن نحدد المقصود بالتطور

وتحديدنا لهذه الكلمة يعتمد أساسا على تحديدنا السابق لرسالة الإسلام ، وهى بناء الإنسان بنقله من الظلمات إلى النور .

والتطور بمدلوله العصرى يختلف عن التطور بمدلوله الروحى :

فإن المجتمعات تتطور والمخترعات تتطور ، والفنون تتطور ولكن هذا التطور تطور الشكل وتغير المادة .

أما التطور بمعناه الروحى فهو يعنى انتصار الجانب الإنسانى دائما ووقوف الإنسان بمبادئه وقيمه وأخلاقه فى مواجهة التيارات العاصفة للحياة والإنسان المنتصر فى نظر الإسلام هو الإنسان الذى لا يستعبد إلا لربه : محكمته فى داخله ، وقيادته من ضميره ، وسعادته فى إيمانه وهو وإن كان يدب بقدم على الأرض فإنه يتعلق بقلبه فى السماء .

والحضارة كما يعرضها أحد الكتاب العرب تبتدئ بمعنى روحى قليل المظهر ، ثم تنتهى بنظهر ضخم يتراخى به الزمن حتى لا تبقى فيه بقية من المعانى الروحية [1] .

ومعنى ذلك انه لا عبرة بحضارة تعنى بالمظهر وتهمل المضمون ولا وزن لأمة تتقدم فى مخترعاتها وتتأخر فى مبادئها .

وليس معنى ذلك أن الإسلام يرفض التطور الحضارى ، ويقف فى مواجهة تيار الحياة الحديثة . وكيف نتصور ذلك ورسالته بعث الناس من الموت إلى الحياة ونقلهم من الظلمات إلى النور .

إن الاسلام يحث أتباعه على أ، يحرصوا على الحياة كما يحرصون على الآخرة ويقيموا الدنيا كما يقيمون الدين ، والمسلمون يقرءون فى كتابهم قول ربهم:

---

[1] عبقرية خالد : عباس محمود العقاد .

﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ وهـــم مـــأمورون أن يستثمروا المال إلى اقصى حد ، وبأن يديروا المصانع بأحدث الوسائل ، وبأن يستعينوا فى سيرهم إلى الحضـــــارة بأرقى الخيرات ، والحكمة ضالة المؤمن : أنىّ وجدها فهو أحـــق الناس بها .

وإذا كانت هناك مظاهر متخلفة فى العالم الإسلامى المعاصر وإذا كنا ننظر فى هذه الايام فنرى بلاد الإسلام عاجزة عن ملاحقة ركب الحضارة ، فإن ذلك كله محســـوب خطأ على الدين ، والدين برئ منه ، فهو الذى نقل المسلمين الأوائل مـــن البـــداوة إلى الحضارة ، ومن الأمية إلى التعليم ، ومن التخلف فى كل المجالات إلى الكشوف فى كـــل المجالات .

والعالم الإسلامى المعاصر فد وقع فريسة استعمار متطور مدروس مـــزق كيانـــه وشوه عقيدته وأفسد صورة الدين المشرقة فى نفسه والتخلف الحضارى الذى نراه فى هذه الايام لا يتهم به الإسلام ، ويفسر على ما أشرت اليه من تشويه الدين فى نفوس بعـــض المسلمين ، واكتفائهم بتقديس الدين عقيدة ومبادئ وعدم التزامهم بتطبيقه سلوكاً وعملاً

وإذا دعا الإسلام إلى الأخذ بكل أسباب التطور والحضارة ، وبارك كل تقـــدم نبيل فى الكشوف والمخترعات ، فإنه يجعل الحضارة فى خدمة الإنسانية ويجعـــل التقـــدم المادى من أجل تنميـــــة الجانـــب الروحـــى الذى يمتاز به الإنســـان علـــى ســـائر مخلوقات الأرض .

ولذلك فإن هذا التقدم يجب أن تكون له غاية واحدة هى إقامة الحياة العادلة بين الناس ، وتطبيق ميزان الله على الأرض فالمال مال الله ، والناس جميعاً عباد الله .

وغاية الحضارة الإسلامية - إذن - أن يعيش المسلم فى سموّ عقيدته لا فى تسلط شهوته ، وفى ارتفاع إنسانيته لا فى انحطاط حيوانيته وفى إشعاعات قلبه ومشـــاعره لا فى نداءات بطنه وغرائزه .

فإذا لم يستطع الإنسان أن يحقق هذه المبادئ فى نفسه ، وإذا لم يستطع ان يتغلب

على شهوته فى التسلط والإعتداء ، وإذا لم يستطع أن يشعّ من حوله الحب والسلام ، فهو فى نظر الإسلام إنسان متخلف وإن كانت وسائل حياته المادية من ملبس ومسكن ومواصلات متطورة إلى أبعد حدود التطور .

وإلا فكيف نوفق بين مظهرين متناقضين فى حياتنا المعاصرة :

الإنسان حقق لنفسه كل وسائل المتعة والرفاهية الحضارية الحديثة ، ومع ذلك فقد حقق أعلى نسبة فى الانتحار والتخلص من الحياة !! .

ألا يعنى ذلك فراغه الرهيب من الداخل ، وعجزه عن تحقيق سعادته وتوازنه عن طرق مظهره البراق من الخارج ؟

الدين والحياة

وإذا كان الدين ضرورة لحياة الناس ، فإنه ليس ظاهرة إجتماعية من صنع الانسان تتبدل وتتغير، وليس اختراعاً يدركه ما يدرك " الموضات " من ظهور ، ثم ازدهار ، ثم ضمور ... ثم موت ، ولكنه فطرة فطر عليها ، والفطرة لا يخترعها الناس ولا يبتكرونها ، وإنما هم منجذبون اليها ، معبرون عن طبيعتهم من خلالها .

وهذه الفطرة ثابتة قائمة متحققة فى طبيعة كل نفس ﴿ لا تبديل لخلق الله ... ذلك الدين القيم .. ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

أما الإسلام وقدرته على خلق مجتمع متطور ، فإنه ليتمثل فى تشريعاته وأحكامه السمحة المتطورة فى الصور والأمثلة الآتية [1] :

١ - تتأثر أحكام الإسلام بالبيئة وتغير الأزمان ، وهى تصدر مرتبطة بعلتها وتتغير بتغير هذه العلة .

٢ - من اجل مراعاة مصالح الناس وتطور مجتمعاتهم لم يتناول القرآن بالتفصيل أحكام المعاملات المالية والجنائية والدولية والقضائية وما شابه ذلك مما يتغير بتغير البيئة ويتأثر بإختلاف النظم .

---

[1] الإسلام والمجتمع المتطور ، مجلة العربى ، يوليو ٧٢ .

٣ - اقتدى التابعون بأحكام نبيهم بعد وفاته ، ولكن اقتداءهم كان إقتداء واعيا مبصرا ، فوفقوا بين هذه الاحكام وبين حاجة الفترة التى يعيشونها دون الإعتداء على روح الدين وحكمته فى التشريع ، وكان ذلك انطلاقا لفهمهم فى النقطتين السابقتين من ارتباط الأحكام بعلتها وتغيرها بتغير هذه العلة ، وأن الأساس فى التشريع الإسلامى هو مراعاة مصالح الناس ولقد شجع النبى أصحابه على الاجتهاد فى فهم الأحكام وتطبيقها ، وكان هناك قاعدة عريضة تقول : "" من أجتهد فأصاب فله أجران ، ومن أجتهد فأخطأ فله أجر "" ، فهو إن اصاب فله أجر الاجتهاد وأجر الصواب ، وإن اخطأ فله فى الاجتهاد ، وأما خطؤه فليس محسوبا عليه .

ظاهرة الإنصراف عن الدين

وإذا كان الناس بدافع من إدعاء التطور ، أو برغبة من الشعور بالتحرر وبخاصة الشباب منهم ، ينفلتون من الدين ويضيقون به ويرون إنه من عوامل التخلف وأسباب الانحطاط الحضارى ، فإن ذلك راجع إلى رغبة داخلية مكبوتة فى التمرد على القيود ، والتخلص من الألتزامات والانطلاق فى الحياة دون غاية أو ضابط ، وهذا هو ما نلمسه فى شباب العالم بما يسمى شعورا بالقلق أو التمزق أو الرفض ومثل هذا الشباب الجامح لا يمكن أن يؤدى للإنسانية دورا نافعا إلا إذا استقرت نفسيته ولا تستقر بملبس فاخر وأكله شهية أو سيارة فخمة ... ولكنها تستقر بإعادة مشاعر الحب والأمان اليه ، ولا يتأتى ذلك إلا عن طريق مبادئ الدين الثابتة التى تقيم الحياة المتطورة .

نحو جيل متدين

وإذا كان هدفنا جميعا من عرض حقائق الدين هو ربط أبنائنا به ، وصبغ حياتهم بتعاليمه اقتناعا وسلوكا ، فإننا يمكن أن نضع المقترحات التالية خطوات على الطريق إلى الإيمان :

أولا : لا ينفع المتدينين لبعث هذا الدينن فى النفوس أن يتحدثوا عن محاسنه ويزينوه لأبنائهم بقدر ما يلزمون أنفسهم به ، فلابد أن يكونوا هم قبل كل شئ مقتنعين

بدينهم اقتناعا كاملا منهجا وطريقا وفكرا وتطبيقا ، ويتبع هذا الاقتناع ان يلتزموا هـــــم أولا بمبادئ الدين إيمانا بالقلب وتصديقا بالجوارح ، بحيث يكون هذا الديـــن واقعـــا فى الحياة ومنهـــــجا فى السلوك لا شيئا كماليا نضفيه على حياتنا كما نزين به بيوتنا .

ثانيا : ويتبع هذه الخطوة أن نعرض الدين على عقول أبنائنا ليفكروا ، وعلى مشاعرهم ليتأثروا ، وعلى حياقم ليجدوا فيه حلولا مناسبة لمشكلاقم الطارئة الملحـــــة ، فليس الدين هو مجموعة التعليمات والوصايا التى تساق اليهم فى لحظات وجدانية ، ولكن الدين ، كما أشــــــرت هو الصديق ، وهو المرشد وبأختصار ... هو الحياة.

ثالثا : الدين ليس أسرارا غامضة ، ولكنه حقائق واضحة وعلى ذلـــــك فـــإن لأبنائنا أن يناقشوا وأن يفهموا ، وأحب أن أحذر فى هذا المجال من إضفاء طابع الصرامة على الدين ، بحيث يحس أبناء الجيل بأنهم أمام "" دكتاتور "" غامض رهيب يفرض عليهم ان يقدسوه ، ولا يحق لهم أن يناقشوه .

رابعا : لا يجوز أن تكون التربية الدينية فى المدارس حصصا لشرح مقرر دراسى يعقد فى امتحان تكون نتيجته نجاحا أو رسوبا كأى مادة دراسية ، ولكن يجب ان تكون هذه التربية إثارة للعقل وتنبيها للوجدان ، ومن هنا فقد يتوافق سلوك التلميذ مع تعـــاليم الدين ، وحينئذ يجب أن يقفوا عند نقطة التعارض ، ويقاوموا بحزم دون تدليل لسلوكهم أو مجاراة لميولهم .وعلى ضوء اتفاقنا لمدلول التطوير فى الدين يجب ان يكون سلوكهم نحو تشكيل جيل متدين .

القرآن وحضارة الإنسان

يقول الله عز وجل ﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذيــــن يعملون الصالحـــــــات أن لهم أجرا كبيرا وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنـــا لهـــم عذابا اليما ﴾ [1] .

---

[1] الإسراء : ٩ .

وان لكل حضارة أساسا يقوم عليه بناؤها ويرتكز عليه كيانها ، وان لكل أمة متحضرة دستورا ينظم حياتها ، ويقوم العلاقة بين افرادها وحضارة تقوم على غير أساس تشبه قصرا يقوم على الرمال ، يعجبك مظهره وتأخذك زخارفه ، ولكن مصيره إلى الانهيار والزوال .

وأمة من غير دستور تشبه رعية من غير راع : يتكاثر أفرادها ، وتتجمع أعدادها ولكن أحوالها فوضى ، وأعداد أفرادها متناثرة لا يحكمهم رباط ، فهم كما صورها نبي الإسلام عليه السلام "" كثير ولكنهم غثاء كغثاء السيل "" .

ولقد وضع الإسلام للمسلمين منهجا ، كما وضع لحضارتهم أساسا ، وأرسى لمجتمعهم دستورا ذلكم الدستور هو القرآن الكريم ، ولقد جاء هذا القرآن ليخاطب الناس ، فينظم لهم حياتهم ، ويرسم لهم منهجهم ويرشدهم إلى ما ينفعهم ، وينظم لهم العلاقة بينهم وبين أنفسهم كما نظم لهم العلاقة بينهم وبين خالقهم .

ولأن صاحب الدستور الربانى هو خالق الناس من العدم ،فلقد جاء هذا الدستور الحكيم ملما باحوال الناس ، مراعيا لحاجة البشر ، ومعبرا عن الحركة الحضارية للإنسان ،بل أكثر من هذا وأبعد ... وصورا لكل ما تهجس له النفس من خواطر ، وما يتردد فى حناياها من مشاعر ، وصدق الله العظيم حيث يقول ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من حبل الوريد ﴾ [1] ، وإذا استطاعت دساتير الأرض كلها أن تدعى القدرة على تنظيم حياة الناس والى تقنين تعاملهم فى هذه الحياة فإنها لا تستطيع أن تدعى القدرة على التغلغل فى نفوسهم ، والأطلاع على ما توسوس به هذه النفوس فتلك هى قدرة الله ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ [2] .

ومن هنا كانت دقة القرآن الذى هو دستور المسلمين ومن هنا أيضا كانت الأمة الملتزمة بهذا الدستور هى ﴿ خير أمة أخرجت للناس ﴾.[3]

---

(١) ق : ١٦ .

(٢) الملك : ١٤ .

(٣) آل عمران : ١١٠ .

يقول الله تعالى فى هذا الكتاب المحكم ﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علـــم هدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ [1] .

والمؤمنون الذين استقبلوا هذا الكتاب ضياء للعقيدة ودســتورا للحيــاة يــرون الوجود أكبر من كيانه الظاهرى وأعمق من واقعه المشهود ، فالحياة كما صورها القرآن هى ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ لا عالم الشهادة وحدها ، وهو الدنيا والآخـــرة لا الدنيــا وحدها ولقد قال المكذبون حينما واجهوا رسول الله بتكذيب البعث والنشور ﴿ ما هـــى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ﴾ .

ولكن ميزان العدل الإلهى يقضى بأن يثاب المحسن ويعاقب المســيئ ، وهـــو إن أفلت من قبضة القانون فى الدنيا فإنه لا يفلت من عقاب الله فى الآخرة ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئا ، وان كان مثقال حبة من خردل أتينـــا بهـــا وكفى بنا حاسبين ﴾ [2] .فما يناله الإنسان من شئ فى هذه الأرض فليس نصيبه كلـــه ، انما هو بعض هذا النصيب ، وما يفوته هنا من الجزاء فلا يفوته هناك فإنـــه لا ظلـــم ولا بخس ولا ضياع ، هكذا يقول الله تعالى فى محكم كتابه :﴿ فاليوم لا تظلم نفس شيئا ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ [3] .

وبقدر إيمان المؤمنين بدقة دستورهم وعدالة احكام الله لهم يكون إيمانهم بقيمـــة الانسان وكرامته عند الله ، لأنه قبل أن يأمرهم بالهداية دلهم على الطريـــق ، وقبـــل أن يأمرهم بالمعاملة وضع لهم الدستور ، وقبل ان يدعوهم إلى الدين بعث اليهم الهداة ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ [4] .

فليس الإنسان كيانا مهملا فى القرآن ، وإنما هو مخلوق كريم بنفحة من روح الله

---

[1] الأعراف : ١٠٠ .

[2] الأنبياء : ٤٧ .

[3] يـــس : ٥٤ .

[4] النســـاء : ١٦٥ .

﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين﴾ وهو بهذه النفحة الربانية مستخلف فى الأرض وبها أيضا يجتمع الناس فيجعلونها هى الصلة التى تربط بيهم إذا ترابط غيرهم من الناس على أساس من نداء المادة كالطعام والمال والمنصب ﴿ والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ﴾ [1] .

وكما كرم القرآن الفرد ، فقد احترم عقله وكرم مشاعره ، فلم يجعل له هذا الوجود فريسة لمصادفة عمياء أو فلته عارضة ، وانما كل شئ بقدر :

﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شئ عنده بمقدار ﴾ [2] .

ومظاهر الكون التى تصافح حواس الإنسان صباح مساء خاضعة لناموس لا يختل وقانون لا يضطرب ﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ، فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أ ومتاع زبد مثله ، كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال ﴾ [3] .

ومن أجل هذا النظام المحكم فإن المؤمن مأمور بأن يأخذ بالأسباب وبأن يطمئن إلى قدر الله المحكم وحكمته البالغة ، وبأن يؤمن بأن يد الله فى كل حادث وفى كل أمر وهو الذى يجيب المضطر إذا دعاه . أحرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز ولا تقل لو أنى فعلت كذا كان كذا ، فإن " لو " تفتح عمل الشيطان ، ومن هنا يحس أن القرآن الذى جاء به الرسول ﷺ ليس هو المواد الجامدة التى تحكمه وتحدد تصرفاته وإنما هو الرفيق الذى يرشده ويهدى خطواته ، لأنه هو واعظ الله فى نفس كل مسلم ، وليس هو الأوامر الصارمة الملقاة عليه لينفذها دون وعى ولكنه الهداية الرشيدة التى تمهد له

---

[1] محمد

[2] الرعد : ١٧ .

[3] الرعد : ١٧.

طريق الحياة وتجعل هذا الطريق موصولاً بالآخرة ، والقرآن كما قال الرسول ﷺ "" مأدبة الله فأقبلوا من مأدبته "" .

وهو كما قال الله عنه ﴿ يهدى للتى هى أقوم ﴾ وهدايته تشمل الاقوام والأجيال بغير حدود من زمان أو مكان ، فهو يهدى البشر بعقيدة صالحة واضحة إلى الله الخالق وحده دون سواه ، وهو بذلك يبعد كل ألوان السيطرة التى تحتل وجدان الإنسان وتستبد بأرادته فتحرره من الضلالة كما تحرره من الخوف ، وتنسق بين ظاهرة وباطنه ، وبين مشاعره وسلوكه ، وبين عقيدته وعمله ، فيعيش الإنسان حياته على الأرض موصولاً بالسماء ، ويحول كل عمل من أعماله إلى عبادة وان كان متعة واسترواحاً ، وان العبادة والمتعة لتمتزجان فى نفس المؤمن حتى تصير عبادته تزكو بها روحه ولقد كان رسول الله ﷺ "" إذا حزّ به أمر فزع إلى الصلاة ووجد فيها عزاءه وأمنه وراحته ، فهو يقول لبلال "" أرحنا بالصلاة يا بلال "" .

وتكون التكاليف الشرعية فى ضوء هذا الفهم علاجاً للنفس وتزكية لجانب الخير فى الإنسان ، وموازنة عادلة بين رغبته وقدرته ، فلا هى شاقة يعجز عن حملها فيمل الالتزام وييأس من الوفاء ، ولا هى لينة يترخص فى الأخذ بها حتى لا تشيع فى نفسه الرخاوة والاستهتار .

وهذا القرآن الذى ﴿ يهدى للتى هى أقوم ﴾ يقيم علاقات الناس بعضهم ببعض على أساس من المودة النقية الصافية التى لا تتأثر بالرأى ولا تميل مع الهوى ، لأنه أساس مستقيم من صنع العليم الخبير بخلقه وهو سبحانه أعلم بمن خلق وأعرف بمصالح العباد فى كل أرض وفى كل جيل ، فيهديهم للتى هى أقوم فى نظام الحكم ونظام الاجتماع ونظام التعامل الدولى اللائق بعالم الإنسان ، وفى الربط بين الديانات السماوية وتعظيم مقدساتها وصيانة حرماتها فإذا البشرية كلها بجميع عقائدها السماوية فى سلام ووئام.

وعلى الإيمان والعمل الصالح يقيم القرآن بناء المجتمع الإسلامى ، فليس هناك ايمان بلا عمل ، وليس هناك عمل بلا إيمان ، الإيمان بلا عمل إيمان مبتور لم يبلغ تمامه ،

والعمل بلا ايمان عمل مقطوع لا ركيزة له ... وهما معا تسير الحياة على التي هي أقوم ، وبهما معا تتحقق الهداية بهذا القرآن .

والذى يقرأ القرآن فيتدبره بقلبه ، ويمزجه بمشاعره ، ويعيشه بحواسه كلها ينتهى إلى يقين حاسم بأنه هو العلاج الناجح لمشاكل الإنسانية من متاعبها التى تعانيها على المدى البعيد ... لا كلمات منمقة تقال ، ولا جملا خطابية تلقى ، ولا لحظات وجدانية تعاش .

ولكنه الشعور الحقيقى الذى ينبض به القلوب المخلصة ، فالله هو الذى خلق العباد والله هو الذى خلق الحياة التى يحياها هؤلاء العباد ، والله هو الذى سن الشريعة وشرع الدين الذى وصى به وهو يبدأ بإصلاح الإنسان نفسه فيربى ضميره ، ويغرس الوازع النفسى فيه ، ويجعل رقابته من داخله لا من خارجه ، والفرد إذا صلح فقد صلح المجتمع وصلح العالم .

وإن الارتباط بالقرآن الكريم ومعايشته صورة واحدة : فهو ليس صورا بلاغية تمتع القارئ برونقها وان لم يخل من بلاغة واعجاز فنى ، وهو ليس كتابا علميا يخرج على الناس بنظريات علمية واختراعات عجيبة وان احتوى على بعض الإشارات العلمية التى يدركها المتخصصون ولكنه كتاب حياة ، ودستور للمنهج الإسلامى الذى هو منهج الله وان الالتزام بذلك المنهج اعتقادا بالقلب وسلوكا بالجوارح وتعاملا مع الناس لا يعد تطوعا أو عملا من أعمال البر نمن به على هذا الدين ﴿ بل الله يمن عليكم ان هداكم للإيمان إن كنتم صادقين ﴾ [1] .

ولكن الإلتزام بهذا المنهج هو الإيمان ولا إيمان بغير التسليم لله والأخذ بمنهجه فى الحياة ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا ان يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ [2] .

---

(1) الحجرات : ١٧٨ .

(2) الأحزاب : ٢٦.

ولقد أنشأ القرآن حياة تفيأ الصدر الأول للإسلام ظلالها فكانت جديدة فى كل شئ : فى قيمتها وأخلاقها ومبادئها ، وأرسى حضارة شاملة إنبثقت من الصحراء ولكنها اشاعت الرخاء والأمن فى ربوع العالم .

و لم تكن هذه الحياة معجزة من المعجزات ، ولا أسطورة من الأساطير وإنما كانت واقعا يمارسه المسلمون فيجدونه حيا فى مشاعرهم كما يجدونه حيا فى معاملاتهم وأساس ذلك إيمانهم بأن طريق الله هو الطريق ، وبأن منهجه هو الحياة وبأن كتابه هو الدستور ، ومن وراء ذلك الإيمان تجرد فى التطبيق واخلاص فى الالتزام ويقين راسخ بأن الله ﴿ قد أنزل على عبده الكتاب و لم يجعل له عوجا ﴾ [1] .

وبأن هذ الكتاب ما نزل الا لتتبع أحكامه وما جاء الا لتطبيق شريعته وهذا المفهوم السوى اصطبغت حياة المسلمين بصبغة الله ﴿ ومن أحسن من الله صبغة ﴾ وسادت كلمة الله وكلمة الله هى العليا.

فلما نحى الإسلام عن قيادة البشرية ولما أقصى القرآن عن واقع الناس تخبط المسلمون الذين فقدوا الطريق ، وتخبط العالم الذى يخترع كل يوم منهجا جديدا لا يسعد الناس بقدر ما يشقيهم ولا يوفر لهم الأمن بقدر ما يجلب لهم من الدمار .

وتلك هى سنة الله فى الخلق ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال : رب لم حشرتنى أعمى وقد كنتب بصيرا . قال : كذلك أتتك آياتنا فنيستها وكذلك اليوم تنسى ﴾ [2] .

---

[1] الكهف : ١ .

[2] طه : ١٢٣ - ١٢٦ .

التدين و الحضارة

حضارة الصمود

يقول الله تعالى ﴿ وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم ف سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين . وما كان قولهم إلا أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا فى أمرنا ، وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ، فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين ﴾ [1] .

الطريق إلى الله واحد وإن تعدد الدعاة الذين يأخذون الناس اليه ، والدعاة إلى الله على لقاء دائم وإن انفصلت بينهم الأزمان ، وباعدت بينهم المسافات ، ونهاية الطريق إلى الله واحدة هى جنة عرضها السموات والأرض ، ولئن فرش هذا الطريق بالأشواك وحف بالمكاره ، فلأن سلعة الله غالية ﴿ ألا ان سلعة الله الجنة ﴾ .

والمؤمنون الذين يحملون عقيدتهم فى قلوبهم ، ويحملونها بعد ذلك إلى قومهم ، يعلمون انهم حملة المصابيح والظلام مخيم ، ورسل الهداية والضلال مطبق ، وهداة البشرية والناس نيام .

وهم بهذا اليقين يقدرون مصاعب الطريق حتى لا يفاجئوا بها و يفترضون المشاق حتى يتهيئوا لحملها ، ويؤمنون بأن المصاعب محك الرجال والفتن تمحيص للمؤمنين ، لأنهم يتلون فى القرآن مثل قول الله عز وجل ﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ [2] . ومثل قوله تعالى ﴿ أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين أمنوا معه متى نصر الله . ألا أن نصر الله قريب ﴾ [3] .

---

[1] آل عمران : ١٤٦ .

[2] العنكبوت : ٢١٤ .

[3] البقرة : ٢١٤ .

وإذا علم الدعاة إلى الله انهم يسلكون الطريق المستقيم ، وأنهم على الحق سائرون استهانوا بالصعاب فى سبيل المبدأ ، وضحوا بالراحة لتحقيق الغاية ، واستعذبوا الموت ما دام فى سبيل العقيدة ، وصدق الله العظيم حيث يقول ﴿ الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ﴾[1] .

ولقد نزلت الآيات التى صدرنا بها هذا الحديث تعقيبا على الهزيمة التى منى بها المسلمون فى غزوة أحد ، وكانت أول هزيمة تصدم مشاعر المسلمين بعد انتصارهم المؤزر فى غزوة بدر ، وكانوا وهم منتصرون عددا قليلا يمتن الله عليهم بقوله ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ﴾ ولكن لما وقر فى نفوسهم أن النصر حليفهم فى كل الأحوال ، وانه هو الأمر الطبيعى والقاعدة المطردة التى لا تتخلف ... صدمتهم الهزيمة فى أحد ففوجئوا بالابتلاء الذى لم يكونوا يتوقعونه ، وفتنوا الفتنة التى لم يثبت لقسوتها الا القليلون .

ولقد ضرب الله للمؤمنين فى هذه المناسبة مثلا عاما من سيرة الانبياء السابقين الذين ﴿ صبروا على ما كذبوا أوذوا ﴾ ، ولم يحدد لهم نبيا بالذات فكلهم سائرون على الطريق ، وكلهم معرضون للفتنة والابتلاء ولقد قال ذلك ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ وهو يضع خطواته الأولى على طريق الدعوة إلى الله يقول له : ليتنى فيها جلدا . أى شديدا . حين يخرجك قومك . فسأله الرسول متعجبا : أو مخرجى هم ؟ فيجيبه : ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا أوذى .

والناس كما يقال . أعداء ما يجهلون ، فالأنبياء يدعونهم إلى الطريق المستقيم فينحرفون عنه ، ويرشدونهم إلى الهدى فيميلون إلى الضلال ويأخذون بحجزاتهم ليبعدوهم عن النار فيتهاوون اليها كما يتهاوى الفراش .

ومن أجل ذلك نسمع نبيا من أنبياء الله ينادى قومه (يا قوم مالى ادعوكم إلى

---

[1] آل عمران : ١٧٣ .

النجاة وتدعوننى الى النار تدعوننى لأكفر بالله واشرك به ما ليس به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار)[١] .

ويشكو نوح قومه إلى ربه فيقول ﴿ وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم ، واستغشوا ثيابهم واصروا واستكبروا استكبارا ﴾ [٢] .

ولكن انبياء الله لهم رسالة هم مكلفون بتبليغها ، وهم يؤمنون بأنها الحق "" وماذا بعد الحق الا الضلال "" فلا تضعف نفوسهم لما يصيبهم من البلاء والكرب ، ولا تضعف قواهم عن الاستمرار فى الكفاح ، ولا يستسلمون للجزع القاتل ، والعدو العنيد .. وشأنهم هذا شأن المؤمن التقى الذى يحمل عقيدة ، ويجاهد فى سبيل الله .

هؤلاء الأنبياء الصادقون يجاهد معهم مؤمنون صادقون ، سمتهم الآية " الربيون " لأنهم انتسبوا الى الرب سبحانه ، وتوجهت قلوبهم إلى عبادته وقصدوا بأعمالهم وجهه ، واعتقدوا أن النبيين الذين يقودونهم على طريق الجهاد هداة معلمون لا أرباب معبودون . وأن نصر الله ليترل على عباده لإيمان المؤمنين الواثقين ، وأن الله ليثبت ذلك المعنى فى قلب نبيه عليه السلام حيث يقول له ﴿وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين ﴾ [٣] .ويصف النبى الذين أمنوا معه بقوله :﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ .

وإذا كانت الصورة الظاهرة لهؤلاء " الربيين " قد أظهرت شدتهم فى الحق وصبرهم على المحنة والابتلاء ، فإن الصورة الباطنية لنفوسهم ومشاعرهم قد أبرزت الفضيلة النفسية التى تأدبوا بها فى حق الله فهم حينما يواجهون الأهوال التى تذهل النفوس لا تطير أنفسهم شعاعا ، ولا يغفلون عن صلتهم بالله فيلجئون اليه يطلبون العفو والمغفرة ويعترفون له بالذنب والإسراف قبل أن يطلبوا الثبات والنصر على الأعداء ما كان قولهم

---

[١] غافر : ٤١ - ٤٢ .

[٢] نوح : ٧ .

[٣] الأنفال : ٦٢ .

إلا أن قالوا ﴿ ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت اقدامنا وأنصرنا علـــى القــوم الكافرون ﴾ .

فهم لم يطلبوا اجرا فى الدنيا ولا ثوابا فى الآخرة ، وهم لم يتعلقوا بعرض زائــل من أعراض الحياة، و لم تشغلهم أهوال الحرب التى أمامهــم عن امانة العقيــدة الــتى فى قلوبهم ، فإذا طلبوا النصر بعد ذلك فهم لا يطلبونه لأنفسهـــم شفاء لغيــظ قلوبهــم وكبتا لأعدائهم ، وأنما هما يطلبون النصــر " على القوم الكافرين " بهذه الصفة ،صفــة الكفر ، كأن الكفار أعداء المؤمنين ، وهم كذلك أعداء الله .

وما دام هؤلاء المجاهدون الصادقون لم يطلبوا لأنفسهم شيئا ، وتجردت نفوسهم فى الجهاد فلم يقصدوا به إلا الله وحده ، فقد أعطاهم الله من عنده كل ما يتمناه طلاب الدنيا ، وخير ما يتمناه طلاب الآخرة مجتمعين ، حيث يقول الله عز وجل ﴿ فآتــاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثـــواب الآخرة .. والله يحب المحسنين ﴾ .

ولا خوف على أمثال هؤلاء من ثواب الدنيا ونعيمها ، فإن هممهم قد ارتفعــت فلا تفتنها النعمة وان نفوسهم قد علت فلا يخدعها بريق الحياة ، وأن ما فى قلوبهم مـــن سعادة أجمل مما فى أيديهم من مال ، وأنهم كما قال أحد الحكماء عنهم : يعيشـــون فى الدنيا ، ولا تعيش فيهم ، ويأكلون منها ولا تأكل منهم..

أى أنهم يعيشون الحياة ويخالطونها ، ولكنهم لا يدعونها تحتل قلوبهم وتسيطر على مشاعرهم وتستبد بأهوائهم ...

وهم كلما تمكنوا فى الأرض فقد مكنوا لدين الله ، وكلما سادوا فى الحياة فقــد سادت كلمة الله وهؤلاء هم الذين يقول الله فيهم ﴿ الذين إن مكناهم فى الأرض أقـــاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾[1] .

فوجه الله غايتهم ، وعلو كلمته أمنيتهم ، وجهادهم لتحقيـــق هـــذه الغايـــة ، وكفاحهم لإعلاء هذه الكلمة ... وهذه هى الرسالة الحقيقية للإنسان كما أراده الله .

---

[1] الحـــج : ٤١ .

وما دام المؤمنون قد ارتبطوا بمبدأ ، فلا يضرهم أن يغنى بعض الاشخـــاص ، لأن المبدأ على بقاء ، والأشخاص إلى فناء ، ولا يضعف مجموع المؤمنين بما أصاب بعضهم من الجراح وبعضهم من القتل حتى ولو كان المقتول هو النبى نفسه ، لأنهم يقاتلون فى سبيل الله وهو ربهم ، وإنما حظهم من نبيهم تبليغه عن ربهم وبيانه لهدايته وحكمته ﴿ وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين ﴾ [1] .وهم يثبتون بعد نبيهم كما يثبتون معه ، لأن علـــة الثبات واحدة فى الحالتين ، وهو كون الجهاد فى سبيل الله ، أى فى الطريق التى يرضاهـــا الله لحفظ الحق وحمايته ، وتقرير العدل واقامته ، وإذا ثبت المؤمن فى جهاد اعدائه وهـــم اعداء الله فقد طبع نفسه على الثبات فى كل أموره حتى أصبحت ملكة فى النفس وخاصية فى السلوك ، وإذا صبر على الأذى فى سبيل الله فقد روض نفسه على الصبر امـــام كـــل الشدائد التى تهون بجانب الفتنة فى العقيدة والعذاب فى سبيل الله .

ولقد صمدت فئة بجانب النبى ﷺ وهو يواجه أعداءه فدافعت عنه وهى تعلم أنها تدافع عن الرمز وعن الحقيقة ، وثبتت معه فكانت فى ظهور الحق على الباطل وإنتصـــار المؤمنين على الكافرين ، وكان صبرها سببا فى حب الله لها ، ﴿ والله يحب الصابرين ﴾ .

وحب الله للإنسان يفتح له مغاليق الأمور ويوضح أمامه شعاب الحياة ، ويدافع عنه إذا ألم به مكروه ﴿ إن الله يدافـــــع عن الذين آمنـــوا إن الله لا يحـــب كـــل خوان كفور ﴾ [2] .

ولقد روى فى صفة العـــبد الذى يحبه الله ((فإذا أحببته كنت سمعه الـــذى يسمع به ،وبصره الذى يبصر به ، ويده الذى يبطش بها)) ، أى أن مشاعره وأعماله لا تكون مشغوله الا بما يرضى الله ويقيم سنته ويظهر حكمته فى خلقه .

ويتجلى احساس الإنسان بالله حين تقع به الشدة ويلم به المكروه ، حين ذلـــك يطمئن لقدرة الله ويرضى بقدره ويشعر برعايته له .

---

[1] الكهـــف : ٥٦ .

[2] الحـــج : ٣٨ .

نجد هذا الموقف حين يهرع أصحاب موسى اليه والبحر أمامهم وفرعون من ورائهم "" قال أصحاب موسى إنا لمدركون "" فيجيب موسى بلهجة المؤمنين الواثقين : " كلا " وأساس هذه الإجابة " أن معى ربى سيهدين " فلم يكن موسى يعلم ماذا سيفعل ، وكيف سيهديه ربه ، ولكن كان يعلم أن الله معه ﴿ وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا ﴾ [1] . ومن ثم فقد كان الفرج عند الشدة وكان الحل عند الأزمة ، وكان قول الله عز وجل ﴿ فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فإنفلق فكان كل فرق كالطود العظيم وأزلفنا ثم الآخرين وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ﴾ [2] .

وهذا الموقف نفسه مع نبى الإسلام ﷺ إذ هو وصاحبه فى الغار والعدو يتربص بهما والعيون تترقبهما ، فيمسح الرسول على قلب أبى بكر ﴿ إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ﴾ فتكون نتيجة هذا الإيمان الوثيق بالله عز وجل ﴿ فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها ﴾ [3] .

ولقد يقول قائل: أن تأييد الله كان لأنبيائه ، حينما كان يترل الوحى ، وحينما كانت صلة السماء بالأرض صلة مباشرة ، وكان هذا التأييد بمثابة المعجزات التى يسوقها الله ويعجز عن صنعها البشر وقد أنقضى الوحى ، وانتهت المعجزات ، ولم يبق للإنسان إلا حوله القاصر وقوته المحدودة .

وهذا القول يجرد الإنسان من أهم عنصر فيه وهو الروح ، فما كانت حسابات الإنسان بأحكم من تقدير الله ، وما كانت حوادث الأرض بأقوى من قوته وتدبيره ، ولا يشترط فى التأييد أن يكون معجزة خارقة تتحدى العقل ويعلو على الأفهام ولكن .. تأييد الله لعباده توفيق ، كما أن هدايته إرشاد إلى الطريق.

ولم يقتصر نصر الله وتأييده على زمن النبوة وحدها ، بل أنه امتد على الزمان

---

(1) النساء : ٤٥ .

(2) الشعراء : ٦١ - ٦٥ .

(3) التوبة : ٤٠ .

حتى يشمل العباد فى كل زمان ، ولكن بالشرط الذى يتنزل بها النصر ، ويتم بها التـــأييد فالله سبحانه وتعالى يقول﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيـــا ويـــوم يقـــوم الأشهاد ﴾ [١] .

كما هو واضح ليس للرسل وحدهم ، ولكن للمؤمنين أيضا ، وليـــس فى يـــوم القيامة فقط ولكن فى الحياة الدنيا قبل يوم القيامة .

وغاية ما يطلب من الذين يسلكون طريق الكفاح أن يسلكوا منهاج النصـــــر ،

وهذا المنهج يتطلب منهم أن يتجنبوا كل السبل المنحرفة ليسلكوا سبيلا واحدا هو سبيل الله ، وأن يؤمنوا بأن السبيل الذى أختاروه هو السبيل الذى دلهم الله عليـــه وأرشدهـــم الرسول اليه ، وأن يضعوا فى أعتبارهم أن العقبات قد تعترض مسيرهم وأن الأشواك قـــد تفرش طريقهم وان العذاب فى سبيل العقيـــــــدة قد يقع عليهم ، فليستعدوا لذلك بهمه عالية وعزيمة ماضيةونفس صلبة ، فإن الطريق الذى سار فيه الأنبياء يسير يه المؤمنون وأن الذى وعد به الانبياء يحرزه أيضا المكافحون الصادقون .

وخلاصة ذلك كله اختيار للطريق ، وإيمان بالحق ، وصبر على البلاء ﴿ قل هـــذا سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعـــــــنى وسبحــــان الله ومـــا أنـــا مـــن المشركين ﴾ [٢] .

﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنـــزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا واليه المصير ﴾ [٣] .

---

[١] غافــــر : ٥١ .

[٢] يوسف : ١٠٨ .

[٣] الشـــورى : ١٥.

حضارة الاستقامة على المنهج

يقول الله عز وجل ﴿ وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ [1] .

لقد دعا رسول الله ﷺ إلى الاسلام ﴿ دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا﴾ [2] . فدعا بذلك إلى منهاج واضح ومحجة بيضاء واخذ الناس إلى صراط مستقيم ﴿ صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الارض إلا إلى الله تصير الأمور ﴾ [3] .

وما دام هذا الصراط مستقيما فإنه لا يضل سالكه ولا يهدى تاركه ، إذ ليس بعد الحق الا الضلال ، وليس أمام تارك النور الا الظلمات ، ﴿ فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق الا الضلال ، فأنى تصرفون ﴾ [4] .ولقد روى فى سبب نزول قوله ﴿ وان هذا صراطى مستقيما ﴾ عن عبد الله بن مسعود قال : خط رسول الله ﷺ خطا بيده ثم قال : هذا سبيل الله مستقيما . ثم خط خطوطا عن يمين ذلك الخط وعن شماله ثم قرأ ﴿ وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ ثم قال ابن مسعود : تركنا محمد ﷺ فى أدناه وطرفه الجنة ، وعن يمينه جواد - أى الطرق - وعن يساره جواد ، وثم رجال يدعون من مر بهم ، فمن أخذ فى تلك الجواد انتهت به إلى النار ، ومن أخذ على الصراط المستقيم أنتهى إلى الجنة ولقد جعل الله سبحانه وتعالى الصراط المستقيم سبيلا واحدا وجعل السبل المخالفة سبلا متعددة ، لأن الحق واحد لا يتعدد والباطل طرق مختلفة ، وشعاب متفرقة ، فهو يشمل الأديان الباطلة من مخترعات محرفة ومنسوخة وبدع وشبهات ، وان التفرق أيضا فى الدين الواحد يجعله مذاهب ، ويتشيع لكل مذهب شيعة وحزب ينصرونه ويتعصبون له ويخطئون من

---

[1] الأنعام : ١٠٣ .

[2] الأنعام : ١٦١ .

[3] الشورى : ١٦١ .

[4] يونس .

يخالفه ، ويرمون المخالفين بالجهل والضلال أ والكفر والابتداع ، وذلك سبب لإضاعة الدين بترك طلب الحق المنزل فيه .

والحق لا يمكن ان يكون محبوسا على طائفة دون طائفة ، ولا مقصورا على فئة دون فئة ، ولكنه معروض على كل ذى فطرة سليمة ونفس مستقيمة ، ومن أدركه فقد اهتدى وقد صار مكلفا بدعوة غيره إلى الهداية ، وهذا الحق القديم لا خلاف عليه ، ولأنه رسالة الانبياء ودعوة الصالحين ، ولأنه هو الفطرة النقية الخالصة فى نفس كل إنسان ، فإذا احتجب فى النفوس فذلك لأن الناس قد تجاهلوه أو اهملوه كالمصابيح تكون فى ايدينا فتنير لنا الطريق ، فإذا تركنا الغبار يتراكم عليها فقد حبسنا نورها بأيدينا وتعثرت بنا الخطوات فى الظلمات .

وقد روى أحمد والترمذى والنسائى : عن النواس بن سمعان مرفوعا : "" ضرب الله مثلا صراطا مستقيما ، وعن جنبتى الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعلى باب الصراط داع يقول : أيها الناس هلم ادخلوا الصراط المستقيم جميعا ولا تفرقوا ، وداع يدعو من جوف الصراط ، فإذا أراد الإنسان ان يفتح شيئا من تلك الأبواب قال له : ويحك لا تفتحه فإنك أن تفتحه تلجه فالصراط الإسلام ، والسوران حدود الله ، والأبواب المفتحة محارم الله ، وذلك الداعى على رأس الصراط كتاب الله ، والداعى من فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مسلم "" .

ولعل هذا الواعظ هو ما يعبر عنه الناس بالوجدان والضمير والإستقامة على هذا الصراط استقامة على امر الله عز وجل ، وسلوك لطريق الله الذى لا طريق سواه فهو صراط مستقيم ، لايلتوى ولا يتعرج ، فقد قام عليه دين الله كافة وجاء به الإسلام مصدقا للأديان ومهيمنا عليها ، فهو يجمع بين صحة العقيدة فى الله ، وسلامة النظم الموضوعة للحياة وبين هذين (العقيدة ونظم لحياة) رباط محكم وعقدة وثيقة لا تنفصل ، فأى نظام للحياة بفصل نفسه عن العقيدة فى الله فهو نظام مبثور لا يستطيع ان يحقق الغاية النبيلة اتى هى رسالة الإنسان على الأرض كما ارادها الله ، لأن أساس كل

تشريع انسانى يجب ان يكون قائما على ضمائر لا تستمد سموها ونقاءها الا باتصالها بالله الخالق ، والا على أساس من الدين الخالص ، فهى إذن مرتكزة علـــى أصـــول ثابتـــة لا تزعزعها الأنواء ولا تميل مع الاهواء ، وذلك هو سر التعقيب على الآية بقولـــــه تعالى ﴿ ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ والتقوى مراقبة الله وإخلاص العبادة له دون ســـواه ، والإلتزام بصراط المستقيم حتى لا تتفرق بنا السبل عنه ، وهذه السبل هى مفترق الطريق بين الشريعة الواضحة المستقيمة وبين غيرها من الاتجاهات المتعددة التى تصنعـــها اهـــواء البشر سواء كان ذلـــك شركا تمزقه أهواء الوثنية شيعا وفرقا وتقاليد ، أم كـــان ملـــلا ونحلا تصنعها أفهام (الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعـــــا) أم كان أفكـــارا مســـتوردة وبدعا مستولية على بعض المنتسبين إلى الإسلام . . . وتلك وغيرها هى من (الســـــبل) التىيحذر منها القرآن ، ويدعو المسلمين إلى الاعتصام عنها بالصراط المستقيم .

ولما كان اتباع الصراط المستقيم هو الرباط الذى يجمع المسلمين فلا ينحرفـــــون ويوحد طريقهم فلا يضلون ، كان اتباع السبل المتفرقة هو البعد عن سبيل الله ، وكـــــان هو الثغرة التى ينفذ منه الضعف إلى كيان الأمة والريح التى تهب على المســـــلمين فتـــترك وحدتهم نهبا وأفئدتهم هواء .

ولقد اصيب المسلمون فى فترات ضعفهم ، بسرعة الاستهواء ، فاتبعوا غـــــيرهم شبرا بشبر ، وذراعا بذراع ، فحل بهم ما حل من الضعف والتفكـــــك والانهيـــار ، و لم يردعهم عن ذلك ما ورد من التحذير منه فى كتاب الله تعالى وأحاديث الرسول ﷺ .

ولقد روى عن ابن عباس فى قوله تعالى ﴿ فاتبعوه ولا تتبعوا السبل ﴾ أن الله أمر المؤمنين بالتزام الجماعة ، والاعتصام بالطريق المستقيم ، ونهاهم عن الاختلاف والفرقة ، واخبرهم انه انما هلك من كان قبلهم بالخصومات والتفرق وتشتت الاهواء مع أن الله قد دعاهم إلى الاتحاد والاعتصـــــام بحبله فى مثل قولـــه ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعـــا ولا تتفرقوا ﴾ [1] .

---

[1] آل عمـــــران : ١٠٣ .

ولقد ورد فى الحديث الصحيح عن ابن مسعود : "" أن كتاب الله هـــو حبلـــه الممدود من السماء إلى الأرض ، فمن اعتصم به كان آخـــذا بالإســـلام ، والمســـلمون مأمورون بأن يجعلوا اجتماعهم ووحدتهم بهذا الكتاب : عليه يجتمعون ، وبه يتحـــدون ، ومنه يستمدون المنهج ويسلكون الطريق المستقيم .

وقد أمرنا بالتزام هذا الطريق وحده حتى لا نكون من ﴿ الذين فرقـــوا دينـــهم وكانوا شيعا ﴾ فمن مظاهر هذا التفريق : اتباع سبيل غير سبيل الله الذى يرسمه كتابـــه ، واحداث المذاهب المتفرقة والشيع المختلفة فى الدين الواحد والتعصـــب لهـــا دون دليـــل والعصبية الجاهلية التى تمزق شمل الأمة ولقد ورد فى النهى عن هذه العصبية أحاديث كثيرة منها قوله صلى الله عليه وسلم : "" أبغض الناس إلى الله ثلاثة : ملحد فى الحرام ، ومبتغ فى الإسلام سنة الجاهلية ، ومطلب دم امرئ مسلم بغير حق يهريق دمه " [1]

ولقد اعتصمت بعض الأمم غير المسلمة بجنسيات قائمة على عصبيـــة كعصبيـــة الجاهلية ، واقتفى أثرهم بعض المسلمين فحاولوا أن يجعلوا الوطن الإسلامى أوطانا تنتمى إلى جنسيات وطنية وحضارات قديمة ، وليس الأمر كذلك ، فإن الاسلام يدعو إلى اتحاد أبناء الوطن الواحد ، وان كانت بينهم جنسيات قديمة مختلفة ، ويأمر بالاعتصـــام بحبـــل واحد هو حبل الله الذى يسلك القوميات فى قومية واحدة والجنسيات فى جنسية واحدة ، وبذلك تتحقق الأخوة فى الله على اساس من المحبة لا علـــى أســـاس مـــن العصبيـــة .

ولقد أشرنا إلى تذييل آية الأمر باتباع الصـــراط المستقيم بقوله تعالى ﴿ ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ .

لأن الأمر باتباع صراط الحق المستقيم ، والنهى عن اتباع السبل الضالة المعوجة ، هو خلاصة الوصايا النافعة الموصلة إلى السعادة فى الدنيا والآخرة ، وهو التقوى التى أمر المسلمون بها فى كل أحوالهم من عبـــادات ومعاملات وآداب وقتال وسنن اجتمـــاع وطعام وشراب .

---

[1] رواه البخارى من حديث ابن عباس .

وفى الصلوات اليومية للمسلم ، يردد دعاء فى كل ركعة هذا الدعاء ضمن سورة من سور القرآن ولكنها " أم القرآن " أو " أم الكتاب " ، ولا صلاة للمسلم إذا لم يقرأها .. فهو يدعو ربه "" اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين "" .

وهو بهذا الدعاء يطلب من الله هداية الوجدان النظـــرى ، وهدايـــة الحـــواس والمشاعر وهداية العقل والتفكير وهداية هى رأس هذه الهدايات وملاكها ، وهى الهدايـــة إلى الدين واتباع الصراط المستقيم ، وهى أيضا تهب كل موجود قوام وجوده ، وتجعـــل لحياته سببـــــا متصلا بالسماء وامتـــدادا خالدا فلا تنتهى بإنتهـــاء حياته علـــى هذه الأرض .

ولما كان الإنسان معرضا للخطأ على هذه الأرض ، ولما كانت الشهوات تحيط به و الشعاب تفترق أمام ناظريه ، فهو يحتاج إلى قوة أكبر من قوته ، وعون اعـــلا مـــن طاقته ومدد الهى يطلبه بقوله (اهدنا الصراط المستقيم) أى دلنا يا رب علـــى الطريـــق الواضح الذى لا زيغ معه ، المستقيم الذى لا التواء فيه .. ثم اهدنا إلى سلوك هذا الطريق والتزام السير فيه ، لأن حاجتنا اليه اشد من حاجتنا إلى كل شئ سواه فهو مســـتقيم لا ينحرف عن الغاية بل يؤدى اليها ، وغاية المسلمين ان يرضوا الله وهـــم فى الدنيـــا وأن يحصلوا على ثوابه يوم الحساب ، فهم هنا يسألون الله ان يهديهم الصراط المستقيم ، وفى الآية الأخرى يؤمرون بأن يتبعوا الصراط المستقيم ، ولا تعارض بين السؤال والأمر ، فإن الله سبحانه وتعالى بدلنا على الطريق بفضله وعلمه ، ونحن له ملـــتزمون هـــذا الطريـــق بطاعتنا لله واتباعنا لصراطه المستقيم ، هو سبحانه يهدينا إلى الصواب ، ونحن نميـــل إلى الصواب بسلوكنا أو نحيد عنه بأعمالنا ، والله عز وجـــل يقول ﴿ وهديناه النجديـــن ﴾ [1] أى دللناه على الطريقين : طريق الخير وطريق الشر ... ثم يختـــار ســـلوك أحـــد الطريقين ومنه أيضا قوله تعالى :

---

[1] البلـــد : ١٠ .

﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ [1] .

فقد دلهم الله تعالى على طريقى الخير والشر ، فسلكوا سبيل الشر المعبر عنه بالعمى ، وتركوا طريق الخير المعبر عنه بالهدى وذلك هو الضلال المبين .

فهداية الله للمؤمنين هنا هى بيان الطريق لهم وايقافهم على رأس الطريقين : المهلك والمنجى مع بيان ما يؤدى اليه كل منهما وذلك تفضل من الله على عباده بدلالتهم على كل من الطريقين .

أما الهداية فى قوله تعالى ﴿ أولئك الذى هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ [2] . فهى إعانة المؤمنين وتوفيقهم للسير فى الطريق المستقيم بعد أن صدقت نيتهم وتوافر اتجاههم لسلوك هذا الطريق .

وأما السبل التى ينهانا الله عن اتباعها فى قوله ﴿ ولا تتبعوا السبل ﴾ فهى سبل غير المؤمنين ، أولئك هم المغضوب عليهم وهم الضالون ، لأنهم فرقوا دين الله ورفضوا شريعته ، وجعلوا الحق الواحد الذى لا يتعدد شعابا متعرجة وفجاجا ملتوية لا تؤدى إلى الإيمان ولا تصل إلى غاية المؤمنين .

وهؤلاء هم الذين خرجوا عن الحق بعد علمهم به ، وبلغهم شرع الله ودينه فرفضوه و لم يتقبلوه وهم ابلغ فى الجحود من الذين لم يعرفوا الحق أصلا فرفضوه عن جهل لا عن عناد ، وفى أمثال هؤلاء المعاندين يقول الله عز وجل ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾ [3] .

وما دام طريق الحق واحدا لا يتعدد وان تعددت حوله الشعاب واختلفت حوله الدروب ، وما دامت كلمة الله واضحة مستقيمة وان زاغت المذاهب والتوت الآراء ..

---

[1] فصلت : ١٧ .

[2] الأنعام : ٩٠ .

[3] البقرة : ٨٩ .

فإنه مطلوب من الذين ساروا فى طريق الحق ان يثبتوا عليه وان طال بهم السير وأدمت اقدامهم أشواك الطريق ، فإنه هو الطريق الموصل إلى الله والمؤدى إلى الجنة ، وهو الذى يثبت الله نبيه عليه بقوله ﴿ وانك لتهدى إلى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ [1] .

والذين اتبعوا كلمة الله فجعلوها منهجا لحياتهم على الأرض واساسا لتعاملهم مع الناس ، ووسيلة تصلهم بالله عز وجل . ﴿ أولئك هم المؤمنون ﴾ وعليهم ان يثبتوا مع كلمة الله ، وان يستقيموا على طريق الإيمان ، ﴿ ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى انفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم ﴾ [2] .

---

(1) الشورى : ٥٢ - ٥٣ .

(2) حم سجدة : ٤١ - ٣٠ - ٣١ .

التدين التزام وسلوك

الاخلاص لله ورسوله وعباده

يقول الله تعالى ﴿ إنا أنزلنا اليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين ، الا لله الدين الخالص، والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار ﴾

(الزمر ٢ ، ٣) .

لقد قامت عقيدة الإسلام على التوحيد الخالص الذى لا يختلط بشائبة من الشرك

وهذا التوحيد هو الأساس الذى يقوم عليه بناء العقيدة ، وهو المدخل الذى لا بد أن يمر به كل من هداه الله إلى هذا الدين ، فيؤمن به عقيدة تسكن القلب ، وقولا يتحرك به اللسان ، وعملا تترجم عنه الجوارح .

وجوانب التوحيد تتضح فى توحيد المعبود ، وهو الله عز وجل حيث يقول ﴿ وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ﴾

(٥ البينة).

وفى توحيد العباد فى أمة واحدة ﴿ إن هذه امتكم أمة واحدة وأنا ربكم ﴾

(٥٢ المؤمنون).

وهذه الأمة الواحدة لها اتجاه واحد تمثله القبلة التى يتوجه اليها المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها ﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾

(١٤٤ البقرة)

بل أن التوحيد الذى يجعله الاسلام ركيزة للعقيدة واساسا للدين يتطلب إلى المسلم أن (يوحد) عدوه كما وحد أمته ، فعدو الاسلام عدو المسلمين فى كل مكان وزمان ، من ليس منا فهو علينا ، وملة الكفر واحدة .

والتوحيد بهذه النظرة الشاملة هو إخلاص الدين لله ، وإخلاص العبادة له وحده

سبحانه وتعالى ، وإذا قلنا ان الإسلام دين التوحيد فقد قلنا إنه ديـــن الإخـــلاص ، وأن اخلاص العبد يفرض عليه أن يخص عبادته معبودا واحدا لا يشرك به شيئا ، ومــــن هنـــا سميت إحدى سور القرآن بسورة (الاخلاص) وصفها الرسول ﷺ بأنها تعدل ثلث القرآن

وما دام الإخلاص أساس العلاقة بين الله وعباده ، وهم بهذا الاخلاص يعبدونـــه ولا يشركون به شيئا ، فإنهم يتعلمون من هذه العلاقة الربانية أن الاخلاص عبادة ، وانه ان كان وسيلة إلى حسن صلتهم بالله وقربهم منه عز وجل فإنه ينعكس بعد ذلك – على الإنسان فى سره وعلانيته ، ينعكس عليه فى سره فيكون بينه وبين نفسه مخلصا ، ويكون لبدنه مخلصا فيعطيه حقه ، ولا يحمله ما لايطيق ويكون لعقله مخلصا فيصونه ولا يضيعـــه بالمسكرات ، ويكون لمشاعره مخلصا فلا يفسدها بالعبث والرذيلة ، والإنسان إذا لم يكن مخلصا لنفسه فيصون عقله من التردى فى الضلال ، ويكبــــح هـــواه مـــن الـــتردى فى الرذيلــــة ، ويحفظ آدميته من التردى فى الحيوانية .

إن لم يفعل ذلك فليس بمخلص لنفسه ، ومن ثم فإنه لا يستطيع ان يكون مخلصا للناس ولقد جاء فى هذا اللون من الإخلاص النفسى سؤال جبريل للنبى – عليه السلام – والصحابة جلوس حول الرسول يتعلمون ، فيسأل جبريل رســـول الله . اخـــبرنى عـــن الإحسان ، فيقول رسول الله : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك [1] ، وهذا لون من الإخلاص يتميز بالتجرد فى العبادة ، والصدق فى خشيـــة الله ومراقبتـــه ، وينعكس الإخلاص الذى أمر به المسلم فى عبادته على علاقته بالناس فإخلاصه هو أساس هذه العلاقة التى لا تحركها منفعة ، ولا يحكمها هوى ، وحبه للناس حـــب فى الله ولله ، والمتحابون فى الله – عز وجل – كما يقول الرسول عليه الصلاة والسلام – على منـــابر من نور يوم القيامة ، فيفزع الناس وهم لا يفزعون ن ويخاف الناس وهـــم لا يخـــافون ، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنـــون ، وفى الاخــلاص لله ولرســوله ولعباده يجد المسلم حلاوة الإيمان فى قلبه ، يقول نبينا عليه الصلاة و السلام (ثلاث مـــن

---

[1] رواه مسلـــم .

كن فيه وجد حلاوة الإيمان فى قلبه : أن يكون الله ورسوله احب اليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه الا لله ، وان يكره ان يعود إلى الكفر كما يكره ان يقذف فى النار ، فحبه لله ورسوله اخلاص لهما ، وحبه للمرء هو ثمرة هذا الإخلاص ، وكراهيته للعودة إلى الكفر ترجمة نفسية لهذه العبادة .

ويقتضى الإخلاص فى المودة أن يحرص المؤمن على أخيه غائبا أو حاضرا ، فهو يحفظ غيبته ويصون سيرته ، ولا يذكره الا بخير ، وفى حضوره يمحضه النصح ويعينه على المعروف ، ويؤيده إذا أصاب ويرشده إذا ضل ، فإن كثيرا من ألوان الصداقات التى نراها فى مجتمعاتنا الحديثة تقوم على المجاملة والمداراة يرى الصديق عيبا فى صديقه فلا يدله عليه حتى لا يغضبه ، ويجده احيانا على الطريق الغواية فيجاريه حتى يستديم مودته ، وكثيرا ما يمدح الصديق صديقه بما ليس فيه حتى يؤكد له حبه وهذالون من الخداع لا يتفق والاخلاص فى الصداقة ، فإن الصداقة من الصدق ، وإن الصدق ينقى صفحة الإنسان ويجعل ظاهره كباطنه ، وان أخا لك يواجهك بكلمة الحق فيقومك ، خير من قرين يداهنك ويجاريك فيفسدك وينسيك نفسك ، فمن دلك على عيبك فقد دعاك إلى الاقلاع عنه ، ومن جاراك فى معصية فإنما هو عدو فى ثياب صديق ، وهو يتخلى عنك حين تلم بك النوائب ويترل بك المكروه ﴿ إذ تبرأ الذين أتبعوا من الذين من الذين إتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ﴾

(البقرة ١٦٦).

ولقد دعا القرآن إلى صدق التناصح فى قوله عز وجل ﴿ والعصر إن الإنسان لفى حسر إلا الذين أمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾

(سورة العصر) .

ودعا الرسول كذلك إلى هذه الفضيلة بقوله :"" رحم الله امرءا اهدى إلى عيوب نفسى ""،، وافتتح بها أبو بكر خلافته حيث قال : (إن رأيتمونى على حق فأعينونى ، وإن رأيتمونى على باطل فقومونى) ، ذلك لأن اخلاص المرء فى إبعاد اخيه عن

الباطل يعادل إخلاصه فى إعانته على الحق .

ومن هنا حقق الإسلام مجتمعا رشيدا تسوده الفضيلة وتحكمه المبادئ ، وأرسى نظاما اخلاقيا يسوس الأرض بشريعة السماء ، وأقام دولة عادلة تحقق الأرض فى ربوع الأرض وتبعث الأمن فى نفوس البشر .. وبإختصار غرس الاخلاص فى النفوس ، فجنى السعادة فى الحياة .

ولا يعانى المجتمع الإنسانى المعاصر شيئا بقدر ما يعانى من فقدان الإخلاص فى نفوس الناس ، فعلى مستوى الفرد بينه وبين نفسه يفقد أمنه ، وتوازنه النفسى ولا يقدر كيانه حق قدره ، فتختل ثقته فى نفسه حتى يستبد به الغرور ، وعلى مستوى الأفراد فى معاملاتهم يضيع الإخلاص ، فيحل الشك محل الثقة ، وتطرد عوامل الخوف مشاعر الأمن ، وتحتل الكراهية مكان الحب فى القلوب .

وعلى مستوى الدول فى علاقتها يزول الإخلاص فتنظر كل دولة إلى الأخرى بعين الحذر والتوجس ، وتتسابق الدول إلى تكديس السلاح ، والإستعداد للحرب رغم ما تعانيه فيها من ويلات ودمار ، ولكنها حين فقدت الإخلاص فقدت السلام ، وحين فقدت السلام فقدت الإحساس بالأمان .

والإنسان بذلك يحارب نفسه ، ويقضى على المعنى الإنسانى المودع فيه ويتنكر لأسمى ما ركبه الله بين جنبيه وهو القلب ، ذلك الوعاء الذى يحمل الخير وينشره بين الناس ، وينبض فى الضلوع ولكنه يتسع لخالقه ، ففى الحديث القدسى ومعناه (ما وسعنى أرضى ولا سمائى ، ولكن وسعنى قلب عبدى المؤمن) .

ومن هنا ندرك حكمة الإسلام حين عنى أولا بتربية الفرد المسلم ، فهو يبنى عقيدته على الإخلاص ويربى نفسه على التجرد ويوقظ مشاعره على المراقبة وخشية الله .

فإذا وجد الفرد الصالح كان لبنة نظيفة فى بناء الاسرة الصالحة وإذا تكونت الأسرة الصالحة وتماسكت حلقاتها بأسر صالحة على طرازها كان من هذا التلاحم مجتمع

إنسانى لا تهتز الثقة فى نفسه أو كما وصفه نبينا عليه السلام (لا يخشى إلا الله والذئب على غنمه) .

والإخلاص فى التصور الإسلامى على هذا الأساس - ليس درسا يلقى ليحفظ أو فلسفة تشرح لتفهم ، أو كلمة تقال لتعرف ، وإنما هو حياة تصاحب الإنسان فتمتد إلى مشاعره تجردا للحق ، ومراقبة لله ، وهو سلوك يمارسه المؤمن حين يمارس حياته سواء كانت عبادة لله ام معاملة للناس ، وهو معرفة للحق والرجوع اليه والنزول على شريعته ،

ولقد وصف القرآن إكتمال الإيمان فى نفوس المؤمنين وتمام الإخلاص فى نفوس المخلصين فقال ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بيهم ، ثم لا يجدوا فى انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ .

(٦٥ النساء)

فالمؤمنون بتجردهم واخلاصهم يحكمون الحق الذى يمثله نبيهم عليه السلام ، ويطردون كل إثارة للحرج النفسى بعد ان يقضى بينهم الرسول بالحق الذى يراه وقد لا يرونه ، ثم يسلمون تسليما كاملا بهذا الحق ، وقد رضيت به نفوسهم واطمأنت اليه مشاعرهم ، فألتزم به سلوكهم واضفوه على معاملاتهم .

فالإخلاص إذا تربية نفسية ، وترويض روحى وتدريب عملى ، ولئن كان هذا طريقا طويلا ، فإنه هو الطريق الذى يصل بها الأرض بالسماء ، ويحكم الحياة بالعدل ويهيئ الدنيا للآخرة .

ولقد رسمه الإسلام منهجا واضحا وطريقا مستقيما :- يبدأ بعلاقة الإنسان بربه فيخلص له العبادة ﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له ﴾.[1] . ويتجرد فى خشية ومراقبته فلا يخشى غيره ولا يرهب سواه ﴿ الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله ﴾ [2] .

---

[1] الأنعام : ١٦٢

[2] الأحزاب : ٣٩ .

وإذا خشى الإنسان الله و لم يخش سواه فلا خوف عليه اما إذا خشى غيره ، فقد طارت نفسه شعاعا فأخافه كل مخلوق ﴿ إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخـــافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾ [1] .

هذه هى الخطوة الأولى فى المنهج الذى رسمه الإسلام للإخلاص أن يتجرد المؤمن من عبادته فيكون مخلصا كما لله الدين الخالص .

اما الخطوة الثانية فهى أن يخلص الإنسان لنفسه فيعرف طريـــق الخـــير ويتبعـــه ويعرف طريق الشر ويبتعد عنه ﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾ [2]

والخطوة الثالثة أن يلزم الإنسان الإخلاص للناس : ويعينهم على الخير إذا عرفوه ويدعوهم إلى الطريق المستقيم إذا تركوه ، ويحرص على بقاء مودتهم كما يحرص علـــى حسن معاملتهم ﴿ ولا تستـــوى الحسنة ولا والسيئـــة ، ادفـــع بالتى هى احســـن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم وما يلقاها الا الذين صـــبروا وما يلقاهـــا الا ذو حظ عظيم ﴾ [3] .

وإذا تماسكت حلقات هذه الخطوات ، وإذا التزم الفرد بهذا المنهج إيمانا وتطبيقا كانت ثمرته مجتمعا مخلصا يسعد به الناس وتستقر به الإنسانية ، وتأمن فى ظله دول العالم والإخلاص بذلك يكون صلة العبد بربه فيكون تجردا وتوحيدا ، ويكون صلـــة الإنسان بالإنسان فيكون صداقة ومودة ويكون صلة المجتمعات بالمجتمعات فيكون تكافلا ورحمة ، ويكون صلة الدولة بالدولة فيكون أمنا وسلاما .

ومن وراء ذلك إيمان يحرس هذه الصلات بأن الله مطلع على خلجات الإنسان ، ويعلم ما توسوس به نفسه ، وصدق الله العظيم حيث يقول ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم

---

[1] آل عمـــران : ١٧٥ .

[2] الشمس : ٧ - ١٠ .

[3] فصلـــت : ٣٤ - ٣٥ .

القيامة ، فلا تظلم نفس شيئا ، وان كان مثقـــال حبة من خـــردل آتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ [1] .

المؤمنون حقا

﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناوعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقـــون ، اولئـــك هـــم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾ [2] .

الإيمان درجة يبدأها المؤمن تسليما بالشهادتين ، ثم يتدرج فيها صعودا بقدر مـــا تتسع له الطاقة وبقدر ما تشف به الروح وما يزال العبد يتقرب إلى ربه حتى يحبه ، فـــإذا أحبه كان سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويـــده الـــتى يبطـــش بهـــا ، ورجلـــه التى يمشى عليها ، ولئن استعاذ به لاعاذه ولئن سأله لأعطاه .

وان الله ليقبل إيمان المؤمن وهو على أول درجات الإيمان ، وهـــو - سـبحانه وتعالى - وأن كان يريد لعبده أن يصل إلى أعلى هذه الدرجات ، فإنه لا يكلف نفسا الا وسعها ، ولا يحمل القلب الا ما يطيق .

ولقد ذكرت هذه الآيات صفات المؤمنين ، فجعلها خمس صفات :ـ

الصفة الاولى فهم ﴿ إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ إجلالا لذكـــره ، وأمتثـــالا لأمره ، وخشية من عقابه ، فإن هذه الكلمات تجمع كل المعانى النفسية المعبرة عن الطاعة والخشوع ، ومثلها فى قوله عز وجل ﴿ وبشر المخبتين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهـــم والصابرين على ما أصابهم والمقيمى الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ [3] . وهذا الشعـــور بالوجل يرقق القلب ويرهف المشاعر ويقرب الإنسان من الله ، ولقد قال أحد الصالحين : إنى لأعلم متى يستجاب لى ، قالوا ومن أين لك ذلك ؟

---

[1] الأنبياء : ٤٧ .

[2] الأنفـــال : ٢ -٤ .

[3] الحـــج : ٣٤ - ٣٥ .

قال : إذا أقشــــعر جلدى ، ووجل قلبى وفاضت عينـــاى ، فذلـــك حـــين يستجاب لى .

وكأنها لحظة الإلهام التى يعينها عمر رضى الله عنه حين يدعو ربه ، فهو يقول " أنا لا أحمل هم الاجابة ، ولكن أحمل هم الدعـــاء ، فإذا ألهمت الدعاء كانت الإجابة معه " ، أى ان القلب يتحرك قبل الدعاء ، فيكون إلهام تقترن به الإجابة بالدعاء .

وهؤلاء الصالحون يجدون الوجل فى قلوبهم إذا ذكـروا عظمـــة الله وســلطانه وجلاله ، ولكن ليس فزعا ولا رعبا ، وإنما هو خشوع وتقرب واطمئنان إلى حسن الصلة بالله ، يؤيد ذلك قوله تعالى فى موضع آخر ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكــر الله الا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ [1] .

الصفة الثانية من صفات المؤمنين أنهم ﴿ إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ﴾ .

وظاهر الآية يقتضى أستماعهم للقرآن وهو يتلى ، فيتدبرون معانيه ويخشعـــون لتلاوته ، فيزدادون إيمانا إذ الايمان يزيد وينقص ، أو يزدادون عملا بمقتضى هذا الإيمان ، واستعدادا لكل ما يتطلبه الإيمان من آداب النفس .

ولقد كان الرسول ﷺ يرتل القرآن ، ويحب أن يسمعه أيضا من بعض اصحابه ، فيتأثر للأستماع كما يتأثر للترتيل .

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ " " اقرأ على القرآن فقلـــت : يارسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : إنى أحب ان اسمعه من غيرى "" ، فقـــرأت عليه سورة النساء حتى جئت إلى هذه الآية ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنـــا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ قال حسبـــك الآن ، فالتفت فإذا عيناه تذرفان "" [2] .

فإذا رسول الله ﷺ يتأثر استشعارا لعظم المترلة التى اكرمه الله بهـــا ، والمؤمنون يتأثرون إيمانا بوعد الله وآياته ، فيزداد إيمانهم ، وهذه الزيادة ثابتة فى آيات أخرى كقوله

---

[1] الرعـــد : ٢٨ .

[2] متفـــق عليه .

﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا ﴾[1] .

وقوله ﴿ هو الذى انزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ﴾ [2] .

وأين ذلك من الحلقات القرآنية التى تذاع فى هذه الايام وكأنها حفلات للطرب لا مجالس للذكر يتغنى بها بعض القارئين بآيات من القرآن الكريم فيراعون قواعد التطريب أكثر مما يراعون من جلال المعنى ويلتف حولهم جمهور من المستمعين الذين يشدهم جمال الصوت فيصيحون استحسانا لكل مقطع صوتى ، فلا يفرقون بين آيات الوعد وآيات الوعيد ، ولا تعنيهم ان تعرض الآيات صورة للجنة أو صورة للنار .

ولقد كان ابو حمزة الشارى يصف اصحابه بقوله (إذا مر احدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقا اليها ، وإذا مر بآية من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه) ، ولقد ذكر الله ذلك فى الأثر بقوله فى آية اخرى ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ، ومن يضلل الله فما له من هاد﴾ [3] .

وأما الصفة الثالثة فهى قوله تعالى ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ والتوكل على الله أعلى مقامات التوحيد ، لأنه تفويض الأمر لله ، وإخلاص العبودية له دون سواه ، والأطمئنان إلى قضائه وقدره والرضا بهما والتسليم لهما ، ولقد روى ابو هريرة رضى الله عنه قول الرسول ﷺ : "" يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير "" [4] . أى ان قلوبهم رقيقة من حسن صلتهم بالله وتوكلهم عليه .

ولما كان معلوما فى الشرع والطبع والعقل أن للإنسان كسبا اختياريا ، فإنه

---

[1] آل عمران : ١٣٧ .

[2] الفتح : ٢٣ .

[3] الزمر : ٢٣ .

[4] رواه مسلم .

يجب عليه ان يسعى بجهده لينال نتيجة عمله ، ثم يرضى بقضاء الله ، وهذا هـو حسن التوكل على الله ، أما ترك الاسباب وانتظار النتائج دون مقدمات ، وتسمية ذلك توكلا فإن هذا من الجهل بطبيعة التوكل ، والجهل بسنن الله التى لا تتحول ولا تتغير ، فـإن الله قد أمر عباده بالعمـل ، وأعد لهم الثواب على الإحسان وربط الرزق بالسعى حيث قال ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور ﴾ .

وأما الصفة الرابعة ففى قوله تعالى ﴿ الذين يقيمون الصلاة ﴾ فـالصلاة اتجـاه بالقلب إلى الله ، وخشوع بالجوارح لعظمته ، وهى إظهار لحاجة المخلـوق وافتقاره إلى خالقه ، من ثم فهى فى خلاصتها دعاء وتبتل .

وهؤلاء المؤمنون الذين يقيمون الصلاة ، يرتفعون بها عن المعانى المادية كـالتزام الوقت ، وضبط الحركات ، واكتمال الهيئة ، ويجعلونها فى المقـام الأول توجـها إلى الله تعالى ، وخشوعا قلبيا لعظمته وجلاله هذه الحقيقة الخاشعة القائمة فى الداخل تنعكس عل الهيئة الخارجـية ، فتعنو الجباة وتخشع العيون ، وتستكين الجوارح .

وإذا لم يكتمل فى الصلاة هذا المعنى فلا يصدق على المصلى انه اقام الصـلاة ، ولكنه قد يؤدى حركاتها ولا يدرك معناها فيكون من الغافلين .

ولقد قصر كثير من المسلمين فى هذا العصـر حتى فرطـوا فى اداء الصـلاة أو أهملوها ، و لم تعد الصلاة تحتل جانبا من أوقاتهم أو تشكل جزءا من جوانـب حيـاتهم ويبدو هذا حين تنعقد بعض المؤتمرات أو الاجتماعات فتشغل وقتين أو اكثر من أوقـات الصلاة ، ولا تدع للمجتمعين فرصة لأداء الفريضـة ، وكـأن الصـلاة لا تـؤدى اذ والمسلمون فارغون ، أو كأنها إن اقيمت فإنها تشغلهـم عن قضاياهم التى تمـلأ فـراغ أوقاتهم ، مع أنها هى العبادة التى تحدد السلوك وتضبط الحياة ، فالمسلم فى صلاة دائمـة تنعكس على معاملاته مع الناس والحياة أمامه مسجد كبير يستمد جلالـه مـن جـلال المحراب الذى يؤدى فيه الصلاة ، ومن أجل ذلك فقط جعل الاسلام الصلاة ، عماد الدين ووصى المسلمين بإقامتها والاصطبار عليها لأنها من أبرز ملامح الخشوع ، من أهم معالم

الإيمان ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾ [1] . ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة الا على الخاشعين ﴾ [2] .

وأما الصفة الخامسة ففى قوله تعالى ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ فإن الإنفاق فى سبيل الله من أظهر علامات الإيمان ، وان الرزق الحلال الطيب ينفق فى وجوهه المشروعة الصالحة .

والآية هنا تحث المؤمنين على ان يتحروا الحلال ، وعلى أن يطلبوا الرزق من وجوهه المشروعة فإن الله طيب لا يقبل الا طيبا ، وان الرزق لا يجرى الا على طالبيه بوسائل الطلب التى دعا القرآن اليها وحث على الاخذ بها .

كما حثتهم الآية على الإنفاق من هذا الرزق ما دام قد تحصل لهم ، فإن كثيرا من الناس يأتون بضروب العبادات البدنية كالصلاة والصوم ، حتى إذا عرضت لهم من الدواعى ما يقتضى البذل والانفاق قبضوا أيديهم ، وبخلوا برزق الله على عباد الله .

وهكذا يكون الانفاق محك اختبار الإيمان ، ومقياس الصدق فيه ، لأنه بذل للمال الذى تتعلق به النفوس ، ومقاومة للنفوس التى جبلت على الشح ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ فمن وجد فى نفسه داعية لبذل أحب الاشياء اليه وهو المال ، فهو مستعد لقبول هداية القرآن ، والامتثال لأوامره .

وحين تجتمع هذه الصفات فى نفوس المؤمنين فإن الله يقول فيهم ﴿ أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾ .

القصد حتى فى العبادة

يقول الله تعالى ﴿ وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ﴾ [3]، ويقول ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾.[4]

---

[1] طه : ١٣٢ .
[2] البقرة : ٤٥ .
(٣) الحج : ٧٨ .
(٤) البقرة : ١٨٥.

لقد جاءت الأديان للإنسان : تخاطب قلبه بالهداية لينعطف اليها ، وتخاطب عقله بالفكر ليتدبر فيه ، وتخاطب طاقته بالتكاليف ليقدر على حملها ، ولقد جاء الاسلام خاتم الاديان ، كما جاء رسوله خاتم الرسل ، فكان هذا الدين الخاتم تجميعا لهدايات الاديان وخلاصة لإرشادها ، وكان هو الحنيفية السمحة ، التى جاء بها رسول الله ﷺ هداية للباحثين عن الدين الخالص ، وهداية للحيارى الذين فقدوا الطريق وكان النبى الخاتم عليه الصلاة والسلام رسولا تلتقى أصوات الأنبياء السابقين فى صوته وإماما تجتمع تعاليمهم فى تعاليمه ، وهو كما قال عن نفسه "" إنما انا رحمة مهداة "" ، وكما قال عنه ربه ﴿ لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم . حريص عليكم . بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾ [1] .

وهاتان الصفتان – الرأفة والرحمة – من اعظم صفات الربوبية غير الخاصة بالله عز وجل الا فى كمالها ، ورأفته ورحمته ﷺ صفات نفسه ، وانه كان يرفق بالناس ويرحم ضعيفهم حتى قبل بعثته ، ثم حمل هذه الرسالة إلى الناس وهو مزود بفضائله النفسية فخاطب منهم القلوب ، ودعاهم إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، فكان رفقه وسيلة إلى جذب قلوبهم ، وكانت رحمته وسيلة إلى تأليف مشاعرهم وقال له ربه عز وجل ﴿ ولو كنت فظا غليظ القلب لإنفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم .. وشاورهم فى الأمر ﴾ [2] . وإرساله رحمة للعالمين وللمؤمنين بيان لحكمة رسالته وفوائدها فيما اشتملت عليه من الحق والعدل والخير التى هى من اسباب رحمة الله ومثوبته ورضوانه لمن اهتدى بها .

وإذا كانت السماحة فى طبيعة هذا الدين ، وإذا كانت الرحمة فى طبع الرسول ﷺ فإن الذين تخاطبهم تعاليم الإسلام ، والذين تلقى عليهم تكاليفه ، بقدر الله فيهم الطاقة الانسانية فيكلفهم بما يطيقون، ويعرف فيهم الضعف البشرى فلا يحملهم ما لا يطيقون ،

---

[1] التوبة . ١٢٨

[2] آل عمران : ١٠٩ .

لأنه سبحانه ﴿ لا يكلف نفسا الا وسعها ﴾ ولقد جعل القرآن من ملامح المؤمنين قولهم لربهم ﴿ ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا مـــا لا طاقـــة لنا به .. واعف عنا .. واغفر لنا وارحمنا ﴾ (١) .

فهم يستعفون الله ابتداء من التكاليف الشاقة التي تتجـــاوز حـــدود طاقتـــهم ، ويطلبون منه ان يحملهم اليسير الذى يسهل عليهم حمله ، وان يوفقهم لحمل ما كلفهم به حتى لا يتعرضوا للتقصير الذى يوجب العقوبة .

وإذا جاز للمؤمنين أن يسألوا الله التخفيف فيستجيب لهم ويخفف عنهم ، فـــلا يجوز لبعضهم ان يتكلفوا المشقة وقد عافاهـــم الله ، ولايجوز ان يطلبوا العسير وقـــد يسر الله عليهم .

فعن ابى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : ان الدين يسر ، ولن يشاد الدين احد الا غلبه ، فسددوا وقاربوا وأبشـــروا ، واستعينـــوا بالغـــدوة والروحـــة وشئ من الدلجة " (٢) .

ومعنى ذلك ان تستعينوا على طاعة الله عز وجل بالأعمال في وقت نشـــاطكم وفراغ قلوبكم بحيث تستلذون العبادة ولا تسأمون وتبلغون مقصدكم ، كما أن المســـافر الحاذق يسير فى هذه الأوقات ويستريح هو ودابته فى غيرها فيصل إلى مقصده بغير تعب . وما ينفيه الله تعالى من الحرج عن عبادة ، إنما هو قاعدة من قواعد الشريعة ومقصد مـــن مقاصدها الجليلة .

ولقد خاطب الاسلام المسلمين بالتكاليف ليرفع هممهم عـــن القعـــود ويرفـــع نفوسهم عن الرخاوة ولكنه كان رفيقا بهم فى هذه التكاليف ليرفع عنهم المشقة ، وليبعث فى نفوسهم الأمل بالقدرة على الطاعة.

وأن القيام بما فى طاقة الانسان من التكاليف ليس من الحرج فى شئ ، وقد نفى

---

(١) البقـــرة : ٢٨٦ .

(٢) رواه البخارى .

الله الحرج عن المؤمنين بعد تكليفهم بالجهاد فى سبيله حق الجهاد ، وهو بذل الجهد لإقامة سنن الله وحكمته ، ولا يصعد الانســـــان إلى مستوى الكمـــال الا ببذل الجـــــهد فى معالى الأمور ..

وأما الحرج فهو الضيق والمشقة فيما ضرره ، أكبر وأرجح من نفعـــة كالإلقـــاء بالأيدى إلى التهلكة وكأستعمال المريض الماء فى الوضوء أو الغسل مع خشيـــة ضــــرر ، ولقد صرح القرآن الكريم بعد بيان فرضية الصيام والرخصة للمريض والمسافر بالفطر بأنه يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر.

ولقد دخل النبى ﷺ المسجد ، فإذا حبل مشدود بين الساريتين فقال : ما هـــــذا الحبل ؟ قالوا: هذا حبل لزينب ، فإذا فترت تعلقت به ، فقال : النبى ﷺ : حلوه ،ليصــــل احدكم نشاطه ،فإذا فتر فليرقد ، وقال : إذا نعس احدكم وهو يصلى فليرقد حتى يذهب عنه النوم ، فإنه إذا صلى وهو ناعس لا يدرى لعله يذهـــب يستغفر فيسب نفسه [1] .

وهذا الحديث يضرب لنا المثل على طبيعة الإسلام السمحة ، وعلـــى تكاليفـــه القائمة على التيسير وعلى علاقة العبد بربه من حســـــن صلة تحددها طاعــــة العبـــد ورحمة الله .

ولقد بنى العلماء على أساس نفى الحرج والعسر واثبات إرادة الله تعالى اليســـــر بالعباد فى كل ماشرعه لهم من عدة قواعد وأصول ، وفرعوا عليها كثيرا من الفـــروع فى العبادات والمعاملات منها : إذا ضاق الأمر اتسع ، وهو قريب من قوله تعالى ﴿ ان مـــع العسر يسرا ﴾ والمشقة تجلب التيسير ،وهو متأثــر بقوله تعالى ﴿ وعلى الذين يطيقونـــه فدية ﴾ [2] . والضرورات تبيح المحظـــــورات ، وهو مستمد من حكمة الله فى قوله ﴿ فمن اضطر فى مخمصه غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم ﴾ [3] .

---

[1] متفق عليه .

[2] البقـــرة : ١٤٨ .

[3] المائدة : ٣ .

وهذا يدل على أن مقياس حسن الصلة بالله ليس فى كثرة العبادة التى تشق على الإنسان ، ولكن فى إخلاص نيته وصدق اتجاهه ، ولقد كانت صلاة النبى قصـــدا بـــين الطول والقصر ، كما كانت خطبته قصدا [١] ، وقد ذم المتشـــــددين المتعمقين فى غير موضع التشديد بقوله "" هلك المتنطعون " قالها ثلاث [٢] .

ولقد ناط الفقهاء معرفة المشقة التى تجلب التيسير وتكون سبب التخفيف بعرف الناس فيما لا نص فيه ، وهذا لا يعرف إلا بمعاشرة الناس وتعرف شئونهـــم وأحوالهـــم وقدرتهم على حمل الأعباء والقيام بالتكاليف ، وهذه القدرة لا تحددها طاقة إنسان واحد قد يكون قويا وقد يكون ضعيفا ، ولكن يحددها استقرار الطاقة العامة للإنسان ، والمعرفة الواعية بما يستطيع وما لا يستطيع فلا تكون قوة القوى حكما على ضعف الضعيـــف ، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : أخبر النبى ﷺ أنى أقـــول : والله لأصومن النهار ، ولأقومن الليل ما عشت ، فقال رسول الله ﷺ "" أنت الذى تقول ذلك "" فقلت له قد قلته بأبى أنت وأمى يا رســـول الله قال : فإنك لا تستطيع ذلك فصم وافطر ، ونم وقم ، وصم من الشهـــر ثلاثة أيام فإن الحسنة بعشرة أمثالها ، وذلك مثل صيام الدهر " ، فشددت على نفسى قلت : يا رسول الله إنى أجد قوة ، قال صم صيـــام نبى الله دواد ولا تزد عليه ، قلت : وما كان صيام داود ؟ قال : نصف الدهر ، فكـــان عبد الله يقول بعدمـــا كبر : يا ليتنى قبلت رخصة رسول الله ﷺ [٣] .

وقوله ذلك يفسر قول النبى "" لن يشاد الدين أحد الا غلبه " " ، فقـــد يشتـــد حماس المسلم ، ويحمله وجدانه الإسلامى على الاجتهاد فى العبادة ، وتحمل المشـــاق فى سبيل ذلك ، فهو يقضى النهار صائما ، ويسهر الليل قائما ، ويلتزم بألوان من الرياضات الروحية لم يلزمه بها الإسلام ، وقد يكون فى اتجاهه هذا حسن القصد سليم النية ، فـــهو

---

[١] من حديث رواه مسلم عن جابر بن سمرة .

[٢] رواه مسلم .

[٣] رواه الشيخان .

بذلك مشكور على قصده الحسن ، محمود على نيته السليمة ، ولكنه إن اندفع فى الاجتهاد بعض الوقت بحماسته ، فهو مردود عن ذلك بقية الوقت بطاقته ، ولئن ساعدته على المبالغة فى العبادة فطرته فلقد خذلته عنها قدرته ، فلم يستطع أن يواصل السير ، و لم يقدر على تحقيق القصد ، وقد ينتج عن اجتهاده أولا ان يتعب اخيرا ، وقد يترتب على تعبه ان يفتر عزيمته ، وقد يترتب على هذا الفتور ان تقعد به الهمه فيتراخى ويتكاسل وبدلا من نشدانه الكمال فإنه يعجز عن أداء الواجب المطلوب وبذلك فهو (المنبت .. لا أرضا ولا ظهرا أبقى) ومن أجل ذلك ندرك حكمة الإسلام البالغة فى الترخيص لعباده فى أداء العبادات فى بعض الحالات ، وهذه الحكمة إن غابت عن العباد فلن يستطيعوا الوصول إلى مراميها ، فإنها لا تغيب عن الله سبحانه وتعالى فهو الذى خلق الإنسان وهو أعلم به فقد رخص للمسافر ورخص للمريض ، ورخص للخائف فى العبادات وقد لا يدرك هؤلاء حكمة الترخيص فى بعض الاحيان ، ولكنهم ان لم يدركوها مبكرين فقد يحسون بها متأخرين .. وحين ذلك يحسون أن الله هو احكم الحاكمين ، فعن على بن أميه قال : (قلت لعمر بن الخطاب : أرأيت إقصار الناس الصلاة وأنما قال عز وجل ﴿ إن خفتم ان يفتنكم الذين كفروا ﴾ فقد ذهب ذلك اليوم ؟ فقال عمر : عجبت مما عجبت منه فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال : صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته [1] . فهنا نجد الرجل قد فهم أن الرخصة مقيدة بقيد هو الخوف ، وذلك مصداق لقوله تعالى ﴿ وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح ان تقصروا من الصلاة .. ان خفتم ان يفتنكم الذين كفروا ﴾ [2] .

ولكن الرسول ﷺ يبين لنا ان الرخصة صدقة ، وان الصدقة عامة فى الخوف وفى الأمن ، وأن الله يحب ان تقبل منه صدقته ، وأن نحمده تعالى على رحمته ويسر عبادته

---

[1] رواه الجماعة .

[2] النساء : ١٠١

وإذا كنا نبغى بعبادتنا وجه الله ، ونتوجه بها ونطلب رضاه وإذا كان هو سبحانه الذى خفف عنا حيث علم فينا ضعفا ،فما بالنا نشق على أنفسنا ورحمة الله واسعة ؟ ! . وما بالنا نطلب العسير من العبادة والدين يسر ؟! .

إن المؤمن إذا دوام على عبادته القليلة فأحبها وتعلق بها ، خير منه إذا شق على نفسه بعبادة كثيرة حتى تعب منها وملها ﴿ ان الله لا يمل حتى تملوا ﴾ [١] .

والمقصود بملل الله ان يقطع ثوابه عنكم وجزاء اعمالكم ، ولا يفعل ذلك حتى تملوا فتتركوا ، فينبغى لكم أن تأخذوا من الأعمال ما تطيقون الدوام عليه ليدوم ثوابه لكم وفضله عليكم .

ولقد خلق الله الملائكة يصلون ،﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ [٢] ﴿ ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يأمرون ﴾ [٣] .

ولكنه خلق البشر على الأرض وكلفهم برسالة فيها ، وجعل السعى على الرزق من العبادة ، وقال لهم ﴿ فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور ﴾ [٤]

فطبيعة البشر غير طبيعة الملائكة وان كانوا جميعا خلق الله ورسالة البشر غير رسالة الملائكة وان كانوا جميعا عباد الله .

وقد روى أن حنظله وهو أحد كتاب رسول الله ﷺ دخل على رسول الله فقال: يا رسول الله نافق حنظله .. تكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأنا نراهما رأى العين ، فإذا خرجنا من عندك نسينا .فقال رسول الله ﷺ : والذى نفسى بيده ، لو تدومون على ما تكونون عليه عندى لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفى طرقكم ، ولكن يا حنظله ساعة وساعة " ثلاث مرات "[٥] .

---

[١] متفق عليه .

[٢] الأنبياء : ٢٠.

[٣] التحريم : ٦٠ .

[٤] الملك : ١٥ .

[٥] رواه مسلم .

وصدق الله العظيم حيـــــــث يقول ﴿ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكــــرة لمن يخشى ﴾.

الثقة بالله وحسن التوكل عليه

﴿ إن الذين قالوا : ربنا الله ثم استقاموا تتزل عليهم الملائكـــة الا تخـــافوا ولا تحزنـــوا وابشروا بالجنة التى كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهى أنفســـــكم ، ولكم فيها ما تدعون ، نزلا من غفور رحيم ﴾ [1] .

إن ايمان المؤمنين يصنع لهم جنة فى الدنيا قبل أن يصيروا إلى جنة الآخــــرة ، وان حسن صلته بالله يهيئ لهم حياة يتفيئون ظلالها حين تكون حيـــــاة غـــيرهم جحيمـــا ، ويشعرون بلذاتها حين تكون حياة غيرهم معاناة ، وكيف لا وقد قالوا ﴿ ربنـــا الله ﴾ .. كلمة اهتزت لها مشاعرهم قبل أن تتحرك به السنتهم وسكنت بها قلوبهم قبل أن تسلم بها جوراحهم ، فإذا قالوها فقد نطق بها كل شئ فيهم ، وإذا تقربوا بها احباتا إلى ربهـــــم ، كان سمعهم الذى يسمعون به ، وبصرهم الذى يبصرون به ، ولئن ســـألوه لأعطـــاهم ، ولئن استعاذوا لأعاذهم .

ولقد سلك أنبياء الله ورسله هذا الطريق الآمن ، فواجهوا الدنيا الملحدة بإيمـــانهم الراسخ ، وقابلوا الحياة المضطربة بقلوبهم المطمئنة ، فإذا بقلوب الناس وكأنها فى ايديــــهم يشكلون - بإذن الله - كما يشاءون ، وإذا بأفئدة القوم وكأنها أوعية يصبون فيها كلمة الله التى هم بها مرسلون .

بهذا الايمان الراسخ واجه موسى وهارون جبروت فرعــــون ، وحـــين أحســـا بالضعف البشرى قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغـــى ، ثبـــت الله قلبيــــهما بالطمأنينـــــــة فقال : لا تخافا انى معكما أسمع وارى [2] .

---

(١) طه : ٣٠-٣٢ .

(٢) طــــه : ٤٥ ، ٤٦

وكانت ثمرة هذه الثقة فى الله أن أطمأن فؤاد موسى حتى لحظات الخطر حينما حوصر وقومه بين البحر بأمواجه الهائجة وفرعون بجنوده الجبارين .. حين ذلك ﴿ قال اصحاب موسى إنا لمدركون ﴾ وحين ذلك أيضا أجاب موسى بيقين الواثق بالله ﴿ كلا إن معى ربى سيهدين ﴾ ولم يكن يعلم كيف ستكون الهداية ، وكيف تتحقق النجاة حتى كان الله عند ظن عبده به فأوحى اليه ﴿ان اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ﴾ [1] . وبهذا الايمان يتسلح المؤمنون فلا يعنيهم أوقعوا على الموت أو وقع الموت عليهم ، ما داموا قد زرعوا فى نفوسهم ثقة بالله ، وقالوا :حسبنا الله ونعم الوكيل

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : (حسبنا الله ونعم الوكيل) ، قالها ابراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار ، وقالها محمد ﷺ حين قالوا : ﴿ ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا ، وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ [2] .

وهذه الثقة بالله تكون علامة على اكتمال الايمان فى نفس المؤمن ، لأنه بها يسلم أمره كله لله ، ويضع مصيره كله فى يد الله ويطمئن قلبه بها وإن خاصمته الدنيا كلها ، ولقد كان من أدعية الرسول ﷺ يتوجه إلى ربه بها (اللهم لك أسلمت ، وبك أمنت ، وعليك توكلت ، واليك انبت ، وبك خاصمت ، اللهم اعوذ بعزتك لا اله الا انت أن تضلنى ،أنت الحى الذى لا تموت والجن والإنس يموتون)[3] .

والثقة أيضا يستمدها المؤمن من إيمانه بأنه على الحق وإن كان قليل الاعوان ، وبأن عدوه على باطل وإن كان كثير الإخوان ، فإنه ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴾ [4] .

ولقد كان القرآن يثبت هذه الحقيقة فى قلب النبى ﷺ بمثل قوله عز وجل :

---

[1] الشعراء : ٦١ - ٦٣ .

[2] رواه البخارى .

[3] متفق عليه ، وهذا لفظ مسلم واختصره البخارى .

[4] البقرة : ٢٤٩ .

﴿ فتوكل على الله إنك الحق المبين ﴾ ، فلماذا يتردد وهو يعلم انه على الحق ؟ ولماذا يخاف وهو يعلم أنه فى رعاية الله ؟ ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ﴾[1] يعد وحده زادا نفسيا يستعين به على مصاعب الطريق ، وقوة روحية يتغلب بها على مشقة الدعوة إلى الله ، فما دام المؤمن قد عرف الله فهتف به وجدانه وخشعت له جوارحه ، وما دام قد استقام على أمر هذا الإيمان فلم يلبسه بظلم و لم يشبه بأى لون من ألوان الشرك ، فقد أصبح سالكا لطريق الله ، وأصبحت نيته خالصة لوجه الله ، ومن كان كذلك فإن الله لا يتخلى عنه ولا ينساه ﴿ إن الذين أمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم . دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾[2] .

والإنسان فى هذه الحياة يسير وهو يتحسس خطاه ويقدر لقدميه موضعها على الطريق ، لأنه دائما مشدود الأعصاب يتوجس الشر من المجهول الذى يحيط به ، ويتوقع الخطر فى الطريق الممتد أمامه ، من ثم فهو خائف لا يطمئن ، وقلق لا يهدأ ، وليس له مصدر يهديه الأمن ويهبه الاستقرار ، وهذه احدى مشكلات العصر لأن الانسان فيه أصبح عالما قائما بذاته منطويا على نفسه ، وأصبحت غايته أن يبنى نفسه وإن كان ذلك البناء على انقاض الآخرين ، وفى مثل هذا العالم تنقطع اسباب المودة وتنكمش الروابط ، وينحصر الوصول إلى الغايات فى وسائل مادية مرتبطة بأسباب الارض مبتوتة الصلة بأسباب السماء ، فإذا عزت هذه الوسائل على السالكين ضاعت منهم الغايات التى يصبون اليها ، وعميت عليهم الأهداف التى ينشدونها ، وهى فى حد بذاتها غايات ضيقة واهداف محدودة.

ومن ثم يسود الخوف فيسيطر على النفوس ، ويحكم اعمال الناس ، ويلون تصرفاتهم ولكن الاسلام يأتى فيرتفع بأعمال المسلمين ويسمو بغاياتهم ، فالأعمال المقبولة

---

[1] الطور : ٤٨ .

[2] يونس : ٩ - ١٠ .

هى الأعمال الصالحة ، والأيدى التى تعمل هى الأيدى النظيفة ، ثم يكون الله سبحانه وتعالى غاية كل عمل ووراء كل نية ، وعلى قدر شرف الغاية يكون شرف الوسائل ، فإذا كان الله غاية المؤمن فى كل أعمال فهو يسير فى الطريق ثابت الخطوات ، مطمئن الخاطر واثقا بتوفيق الله .. إن حقق هدفه أحس بالأمن لوعد الله .. وإن لم يحققه رضى لأن أزمة الأمور بيد الله ﴿ وكل شئ عنده بمقدار ﴾ [1] .

ومن هنا يعلم الرسول ﷺ اتباعه درسا فى حسن الثقة بالله والرضا بقضائه فيقول (احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز . وإن اصابك شئ فلا تقل : لو انى فعلت كذا وكذا .. ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ، فإن "لو " تفتح عمل الشيطان) فلا تطير نفس المؤمن شعاعا إذا قصر به الطريق ، ولا تطير نفسه فرحا إذا واتته النعمه وإنما هو صابر فى الأولى شاكر فى الثانية ، ليس كمن وصفهم الله بقوله ﴿ وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله ، وإن تصيبهم سيئة يقولوا هذه من عندك .. قل : كل من عند الله ، فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ﴾ [2] .

وتحرص الآيات على نفى صفتين عن المؤمنين المتوكلين على الله وهما الخوف والحزن .. فالخوف يشتت شمل الانسان ويبدد ملكاته فلا يجيد عملا من الأعمال ، والحزن يقبض صدره ويشغل نفسه ويغلق أمامه أبواب الحياة .

يخاف الإنسان ان يبدأ الطريق ، ويخاف ان يزاحمه الناس إن هو بدأ ، ويخاف من الفشل ان انتهى عن العمل وترقب النتيجة .

ويحزن كذلك ان لم يحقق نجاحا ويحزن ان حقق بعض النجاح لا كل النجاح ، ويحزن ان شاركه الناس نجاحه وساروا فى نتيجته .

فهاتان الصفتان اذن – الخوف والحزن – مصدر قلق الانسان فى حياته ، ومبعث اضطرابه وفقدان أمنه ، ومن هنا تكفل الله عز وجل بإعفاء المؤمنين منهما لتصير

---

[1] الرعد : ٨ .

[2] النساء : ٧٨ .

نفوسهم نفوسا مطمئنه ، وليستقبلوا حياهم بصدور منشرحه ومشاعر واثقة ، فهو يوحى إلى المؤمنين الذين قالوا ربنا الله ﴿ الا تخافوا ولا تحزنوا ﴾ ، وذلك يزرع الأمن فى قلوبهم والرضا فى نفوسهم فلا يعنيهم بعد ذلك ما نالته أيديهم أو ما ضاع منهم ، فما نالوه فهم ينفقونه فى سبيل الله ، وما ضاع منهم فهو مدخر لهم عند الله .

ورسول الله ﷺ يوفر على المؤمنين قلقهم على ارزاقهم فيقول فيما يرويه عمر رضى الله عنه (لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله . لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا [1] .

معناه الها تذهب أول النهار ضامرة البطون من الجوع ، وترجع اخر النهار ممتلئة البطون من الشبع .

وليس معنى ذلك أن الرزق مكفول بمجرد التوكل على الله وحسن الثقة فيه ، فإن السماء - كما قال عمر رضى الله عنه - لا تمطر ذهبا ولا فضه .

ولكن من حسن التوكل على الله ان يطلب الانسان الرزق من مصادره ومن حسن ثقته فيه أن يؤمن بالأسباب المؤدية إلى النتائج ، وما انتصر المؤمنون فى حروبهم الا لأنهم توكلوا على الله حق توكله فحملوا السلاح فى وجه عدوه ، وعملوا بقوله ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شئ فى سبيل الله يوف اليكم وأنتم لا تظلمون ﴾ [2] .

حب المؤمنين لله ورسوله

﴿ قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد

---

[1] رواه الترمزى : وقال حديث حسن .

[2] الأنفال : ٦٠ .

فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لايهدى القوم الفاسقين ﴾ [1] . فى فطرة كل انسان ميل الانتماء ، واعتزاز بالأهل والعشيرة ، وحب المال والولد ، ولا ينكر الاسلام عليه ذلك ، فالله سبحانه هو الذى خلقه بهذه الفطرة وهو الذى ركب فيه غرائزه التى يحيا بها فيسعى على رزقه طلبا لاستمرار الحياة ، ويخوض الاخطار التى تحيط به رغبة فى البقاء ، ويثمر ماله اشباعا لغريزة الاقتناء وهكذا .

ولكنه رغم هذه الغرائز المركبه فيه ، ورغم حب التملك المختلط بفطرته ، فهو انسان له اشواقه وله شفافيته وسموه ، ولقد جاء الاسلام ليوجد فى الانسان توازنا بين ماديته وروحانيته ، بين غرائزه الدنيا ومشاعره السامية ، فلم يفصله عن بشريته ليحلق به فى السماء ، و لم يجرده عن روحانيته ليلصقه بالارض ، ولكنه خاطبه من منطلق هذين الاتجاهين ، وعامله فى ظل هاتين النزعتين .

فالمسلم مثلا يقرأ قول الله تعالى ﴿ قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾ [2] .

فيجد أن الله قد أباح له أن يتميتع بزينة الحياة ، وأن يأكل من رزق الله الحلال ، ثم يقرأ كذلك قوله تعالى ﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا إن وعد الله حق فلا تغركم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ [3] . فيجد أن القرآن يذكره بيوم القيامة الذى لا ينفع فيه مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم ، ويحذره ان يغتر بزينة الحياة الدنيا وهى فانية فينسى الحياة الآخرة وهى باقية ،ثم يعود فيقرأ مثل قوله تعالى ﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ [4] .

---

[1] التوبة : ٢٤ .

[2] الأعراف : ٣٢ .

[3] لقمان : ٣٢ .

[4] القصص : ٧٧ .

فيجمع بين طلب الدنيا وطلب الآخرة ، ويتوسط بين المتعه الفانية والثواب الباقي ويأخذ من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرتــه ، ومن الشبيبــة قبل الهرم ، ومن الحيـــاة قبل الموت .

فإذا فعل ذلك فهو الإنسان السوى الذى إراده الله وجعله فى الأرض خليفـــة ، يقيم ميزان الله على الأرض ، ويجعلها مزرعة يأكل منها ، ولكنه وهو يأكل ويطعم ذريته لا ينسى ان الدنيا كلها مزرعة للآخرة . لأن الإنسان فى خلال إندفاعه فى زحام الحياة ، وفى حرارة طلبه للقمة العيش قد ينسى نفسه فيجعل هذا الاندفاع هو الغايـــة ، ويجعـــل الرزق الذى يحصل عليه هو الهدف النهائى الذى يسعى اليه .

وهو فى انحصاره فى هذا الافق الضيق يرتبط بأهله وعشيرته ارتبـــاط تعصـــب ، ويحب ماله وتجارته حبا طاغيا ، فيتحول سعيه على الرزق إلى حب ممقوت ، ويتحـــول حبه لذويه إلى أنانية مذمومة .

وهنا يذكره القرآن بأن الله هو الرازق لما يسعى اليه من مال ، وهو الخالق لمن يحبهم من الأهل والولد ، وهو الجدير بأن ينتهى اليه السعى كله ، وبأن يتعلق به الحب كله .

إن الله عز وجل لم ينكر على الناس حرصهم على المال ، و لم يؤاخذهم على مجرد حبهم للأهل والولد ، فهذا من حظوظ الدنيا ولذاتها الغريزية ، ولكنه – سبحانه – رتب المؤاخذة على تفضيل هذه الحظوظ والشهوات الدنيوية فى الحب على حب الله ورسوله .

فحب الابناء للآباء شئ من غرائز النفس وشعورها ، والولد بضعة من أبيه يرث بعض صفاته الجسدية والنفسية والخلقية ، وتقترن صورة الوالدين فى خيال ولدهما بكـــل محبوب لديه فأمه مثال على الحب والرحمة والحنان ، وأبوه مثال على العظمة والقـــدرة والإجلال .

ولقد كان العرب يتفاخرون بآبائهم فى أسواقهم وفى مواسم الحج حتى قـــال الله تعالى ﴿ فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا ﴾ [1] .

---

[1] البقـــرة : ٢٠٠ .

و لم يأت القرآن لينهى الأباء عن ابنائهم ، أو الأبناء عن حب آبائهم ، ولكنه يحذرهم ان يكونوا أحب اليهم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله ، ولا تعارض بين الحبين فإن حب الإنسان لإهله وولده فى نطاقه المشروع حب لله وإجلال لقدرته التى اودعت فى النفوس والمشاعر وفى القلوب الحب ، ولقد بين القرآن الكريم ان المال والبنين زينة الحياة الدنيا ، والله لم يحرم الزينة التى اخرجها لعباده ، ولكنه ارتفع بهممهم وعواطفهم من التعلق بهذه الزينة إلى الاعتراف بفضل صاحبها سبحانه ، حتى يكون الاتجاه صحيحا ، والحب فى مكانه المناسب ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا .. والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا ﴾ [1] . ومعنى ذلك أن الاعمال الصالحة التى يبقى ثوابها للإنسان بعد الحياة الدنيا خير من زينة المال فيها ثوابا ، وخير من البنين فيها املا ، وقد يحب الوالدان ولدهما للأمل فى نصرته والإعتزاز به ، وقد قيل لبعض الحكماء : أى ولك أحب اليك ؟ فقال : صغيرهم حتى يكبر ، وغائبهم حتى يحضر ، ومريضهم حتى يبرأ .

وإذا ظل هذا الحب احساسا نفسيا تغذيه مشاعر الانسان وتحرسه عاطفته فهو من باب العاطفة الحانية والحب الفطرى ، اما إذا زاد ففيه الخروج وفيه التعارض بين حق الله وحق الإنسان .

ولقد ضرب القرآن الكريم للإنسان مثلا فى ذلك ، حيث صور الرجل الصالح وهو يعلم موسى ، فيقتل الغلام ثم يفسر ذلك لموسى بقوله ﴿ وأما الغلام فكان ابواه مؤمنين فخشينا ان يرهقهما طغيانا وكفرا ، فأردنا أن يبدلهما ربهما خير منه زكاة وأقرب رحما ﴾ [2] .

وليس معنى ذلك ان يقتل كل انسان ولده إذا ازداد حبه له حتى تفرغ عاطفته لحب الله ، ولكن العبرة فى ذلك ان يعتدل كل والد فى حب أولاده ، والا يلهيه هذا الحب فيجعله ينسى صاحب النعمة ، وهو إن فعل ذلك جعل الهه هواه ، وعبد أهله

---

[1] الكهف: ٤٦ .

[2] الكهف : ٨٠ – ٨١ .

وولده من دون الله ولكنه ان ربط حبه الكبير لله بحبه المحدود للولد ، لم تبطره النعمة إذا حازها ، و لم يقتله اليأس إذا فقدها ، ولكنه يؤمن بأن لله ما اعطى ولله ما أخذ ، وكل شئ عنده بمقدار .

ولقد يكون حب الزوجية نوعا خاصا من شعور النفس ، فهو الذى يزرع فيها الطمأنينة والسكن ، وهو الذى يمتن الله به على عباده فى قوله ﴿ ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ [1] . وهو الذى يتحد به بشران فيكون كل منهما متمما الاخر ينتجان باتحادهما بشرا مثلهما ﴿ وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا ﴾ [2] .

ففى ظل الاحساس بنعمة الله يكون هذا الحب ، فنعمة الله فى التأليف بين زوجين متباعدين من آياته ، ومن أجل ذلك يختم القرآن هذه الآية بقوله ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ .

وتناسل الذرية من هذا الزواج أيضا علامة على قدرة الله سبحانه ﴿ وكان ربك قديرا ﴾ .

ولقد عرض القرآن كذلك لألوان من حب الإنسان وتعلقه ، كحبه للعشيرة ، وهو حب عصبية وتعاون وإعتزاز ، ويكون على أشده فى أهل البداوة حتى يصل إلى درجة التناصر بالحق والباطل ، ولقد اضعف الاسلام هذه النعرة بالدعوة إلى الحب فى العقيدة والمساواة بين المسلمين فى أخوة الاسلام ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن اكرمكم عند الله اتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ [3] .

وحب الأموال المقترفة – المكتسبة – أقوى من حب الأموال الموروثة ، لأن عناء الإنسان فى اقترافها يجعل لها فى النفس منزلة خاصة . وحب التجارة وحب المساكن وغير

---

[1] الروم : ٢١ .

[2] الفرقان : ٥٤ .

[3] الحجرات : ١٣ .

ذلك من أنواع الحب ظواهر طبيعية فى نفس الإنســـــان ، ومن شأنها ان تشده وتلهيـــه وتنسيه ، لكن حب الله تعالى فوق كل حب ، لأن كل شئ محبوب فى الوجود من صنعه وفيض احسانه ، فيجب على المؤمنين ان يوجهوا حبهم إليه ، وتعلقهم به وعبادتهم لـــه ، فإنه سبحانه هو خالق الحب ، وانه سبحانه هو المعبود ﴿ ومن الناس من يتخذ مـــن دون الله اندادا يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا اشد حبا لله ، ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب ان القـــوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب ﴾.[1]

علاقة المخلوق بالخالق

معصية العبد وتوبة الله عليه

يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون الســـوء بجهالـــة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما وليست التوبة للذيـــن يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال : إنى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك إعتدنا لهم عذابا أليما ﴾ [2] .

لقد قال بعض الحكماء : إن الله ركب الملائكة من عقل دون شهوة ، وركب الحيوانات من شهوة دون عقل ، وركب الإنسان من العقل والشهوة ، فمن غلب عقله على شهوته فهو كالملائكة ، ومن غلبت شهوته على عقله فهو كالحيوان وبقى أن نقول فى مجال هذه القسمة : إن من وازن بين عقله وشهوته وعدل بينهما فهو إنسان ، وهـــو المخلوق الوسط بين الميل المادى والسمو الروحى .

والله الذى خلق الإنسان وسواه أعلم به ، فقد خلقه من طين ، ثم نفخ فيه مـــن روحه ، وهو بهذا الطين قد يشده الذنب وتجذبه الخطيئة ، وبهذه الروح يرتفع درجـــات إلى عالم الملائكة .

---

[1] البقرة : ١٦٥ .

[2] النســـاء : ١٧ - ١٨ .

ولقد وصف الله المؤمنين الذين أحسنوا إلى أنفسهم باجتناب كبائر الإثم والفواحش ، ثم استثنى من تلك الذنوب صغائرها فسماه " اللمم " وغفر لعباده ، وبين الحكمة من ذلك فجعلها فى أطلاعه على نشأة عباده ومعرفته بطبيعتهم منذ خلقهم ، ومنذ كانوا أجنة فى بطون أمهاتهم .

فلنقرأ معا قوله سبحانه وتعالى ﴿ ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ، الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ، إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذا أنشأكم من الأرض وإذ انتم أجنة فى بطون امهاتكم فلا تزكوا انفسكم هو اعلم بمن أتقى ﴾ [1] .

فهاتان الآيتان وأمثالهما تبين موقف الإنسان من ذنوبه ومعاصيه ، فقد يتعرض للذنوب أو تتعرض الذنوب له ، فيدفعها ما أستطاع ، فيفلح فى أجتناب بعضها ، ويتغلب عليه البعض الآخر ، وهو بين الوقوع فى الخطأ ، والإعتصام منه آدمى أنشأه الله من الأرض فهو يهفو إليها ، وخلق له قلبا فهو يتوب به ﴿ إن ربك واسع المغفرة ﴾ .

وباب التوبة مفتوح للعصاة والمذنبين ، لا يغلقه الله فى وجه أحد ، ولا يوصده أمام طالب ، بل أنه لينادى ، كل مسئ ليقلع عن سيئته ، ويدعو كل مذنب ليتوب عن ذنبه ، فعن ابى موسى الاشعرى عن النبى ﷺ انه قال (ان الله تعالى يبسط يده فى الليل ليتوب مسئ النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسئ الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها) [2] .

وليس الله سبحانه بحاجة إلى توبة عباده ، فإنه - سبحانه - لا تفيده توبتهم ولا تضره معصيتهم ، وهو الذى يقول فى الحديث القدسى : ((إنكم لن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، ولن تبلغوا ضرى فتضرونى)) ، ولكنه يفتح باب التوبة لعباده ، ليفتح امامهم باب الأمل ويغفر لهم الذنوب ليبسط لهم يد الرحمة ، ويقبل منهم العودة اليه بعد

---

[1] النجم : ٣١ - ٣٢ .

[2] رواه مسلم .

إعراضهم عنه لأنه هو الذى يقول ﴿ ورحمتى وسعت كل شئ فسأكتبها للذين يتقـــون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ [1] .

والآيتان اللتان صدرنا بهما المقال تفيدان ان الله قد كتب على نفسه الرحمة ، وانه تعالى قد اوجب على نفسه قبول التوبة بوعده الذى هو أثر كرمه وفضله ، وما دام قـد كتب على نفسه الرحمة واوجب على نفسه قبول التوبة ، فإن ذلك وعد يثق فى صدقـه المؤمنون ، ويطمئن إلى تحققه المذنبون التائبون ، أولئك هم الذين ﴿ يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ﴾ فهم يعملون السوء ، وهو العمل القبيح الذى يسوء فاعله إذا كان عاقلا سليم الفطرة كريم النفس ، وان علامات الايمان فى نفس المؤمن ان تسره حسـنته وأن تسوءه سيئته ، وان الفرق بينه وبين غيره انه يلم بالذنب فيندم عليه ويتوب عنـه ، وإن غيره يرتكب الخطيئة فيستمر فيها ويصر عليها ﴿ ان الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ، وإخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون ﴾ [2] .

وأما الجهالة التى تصاحب الإنسان عند عمل السوء فهى حالة نفسـية تغلبـه ، وتلابس نفسه عند ثورة الشهوة ، أو ثورة الغضب ، فتذهب علمه ، وتنسيه الحق ولو إلى وقت قصير ، ولكنه يعود من قريب فى وقت قريب تسكن فيه تلك الثورة ، أو تنكسر به تلك السورة ، ويثوب اليه حلمه الذى غاب عنه ، ويرجع إليه عقله الذى زايله ، وكلما قرب وقت التوبة من وقت إقتراف الذنب كان الرجاء أقوى ، وكلمـا بعـد الوقـت بالإصرار والتسويف وعدم المبالاة كان الخوف من عدم القبول هو الأرجح .

والنفس اللوامة هى التى تلوم صاحبها على المعصية ، وتدفعه إلى الإستغفار عـن الذنوب وكذلك علم الرسول ﷺ اصحابه فعن ابى هريرة – رضى الله عنـه – قـال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (والله إنى استغفر الله واتوب اليه أكثر من سبعين مرة)[3]

---

[1] الأعراف : ١٥٦ .

[2] الأعراف : ٢٠١ .

[3] رواه البخارى .

وإذا كان ذلك من الرسول الذى غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فهو تعبير عـــن الشكر ومعرفة فضل الله ، ومن أجل ذلك فقد قال لسائله " أفلا أكون عبدا شكورا "؟ وأولى بالمؤمنين ان يستغفروا ربهم فى كل يوم وليلة .

ولقد أغتر بعض المذنبين بحلم الله ووعده بقبول توبة التائبين ، وجرأهم ذلك على الإصرار على الذنوب والآثام ، وقد ظنوا ان هذا الإصرار لا يضر المذنبين إذا تابوا قبل ان تبلغ الروح الحلقوم ، وصاروا يسوفون بالتوبة حتى يغرهم التسويف ، فيموتوا قبـــل أن يتمكنوا من التوبة وما يجب ان يقترن بها من أصلح النفس بالعمل الصالح وقد استثنى الله من العذاب اولئك الذين تابوا وآمنوا وعملوا الصالحات ﴿ فاؤلئك يبـــدل الله ســيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ، ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا ﴾ [1]

وقد قال رسول الله ﷺ (وأتبع السيئة الحسنة تمحها) .

ولايتنا فى ذلك مع ما ورد من الأحاديث والآثار عن قبول التوبة إلى ما قبل الغرغرة أى وقت الأحتضار ، كحديث ابن عمر وأحمد والترمذى :"" ان الله يقبل توبة العبد مـــا لم يغرغر ""، فإن المقصود من ذلك عدم اليأس من رحمة الله ، وإغراء العبد بالتوبة فى أى وقت فإن الله ينادى عباده بقوله سبحانه وتعالى ﴿ يا عبادى الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ﴾ [2] .

وإن نفس الإنسان لتتدنس بالذنوب بالتدريج ، فإذا طال الأمد على مزاولتـــــها تمكنت منها ورسخت فيها حتى تصير نكتة سوداء فى قلبه ، وأن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا ، ولا تزول أثار الذنوب إلا بالتوبة الصادقة التى تطهر النفس بالعمل الصالح ، والصبر على تخليصها من الدنس فى زمن طويل يناســـب الزمـــن الذى قضته فى المعصية ، لأن المعصية إذا تكررت صارت عادة تحتل نفس الإنسان وتستبد بمشاعره ، فإذا حاول التخلص منها فكأنما يقتلع ملكة من ملكات نفسه ، وذلـــك مـــن

---

[1] الفرقان : ٧٠ - ٧١ .

[2] الزمـــر : ٥٣ .

أعسر الأمور وأشقها ، ومن هنا كان لابد للإنسان ان يبادر بالتوبة قبـــل أن يســـتمر فى المعصية ، وأن يقلع عن الذنب قبل ان تحيط به الخطيئة ﴿ بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ [1] .

ومن كان قوى الإيمان بحيث لا يقع منه الذنب إلا عن بادرة غضب أو شهوة ، او جهل بأنه معصية تستوجب العقوبة ، فهو من أولئك الذين يقع منهم السوء هفوة بعد هفوة وأولئك يتوب الله عليهم حيث يقول الله عز وجل ﴿ إنما التوبة علـــى الله للذيـــن يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم ﴾ ، وقد ختمت هذه الآية بقوله سبحانه وتعالى ﴿ وكان الله عليما حكيما ﴾ لأنه بعلمه – سبحانه – قد أطلع على نفوسهم حين امتزجت بالمعصية وألم بها الذنب فوجدها تقع تحت ضغط قوى اكبر من إرادته واشد من مقاومته ، ثم ندمت على مافعلت فى وقت ينفع فيه الندم ، فاقتضت حكمته – جل شأنه – ان يقبل توبتها وأن يتوب عليها ، والله يتوب على من تاب .

وهكذا شأن الإنسان فى جميع أعماله الإختيارية ، فإنه لا يقدم على عمل الا إذا توقع المنفعة منه أو جهل الضرر المترتب عليه ، ولا يصدق عمل السوء من الإنسان الا مع التلبس بالجهل وعدم إقامة ميزان القسط فى الترجيح بين الفعل والترك ، فإذا زال الجـــهل عن قريب فتاب كانت توبته مقبولة حتما ، وذلك بأن يتوب فى حال الصحة والأمل فى الحياة .

ومن أجل ذلك فقد ذكر القرآن الكريم " السوء " ليشعرنا أن التوبة تقبل ممن يقع منهم الذنب هفوة وتلم بهم المعصية ألماما ، ولكنهم لا يصرون عليها ، بل يتوبـــون مـــن قريب .

وقال فيما لا تقبل توبتهم ﴿ يعملون السيئات ﴾ لأن السوء تراكم بعضه علــــى بعض حتى صارسيئات ، ولأن الذنب قد تكرر إرتكابه حتى اصبح ذنوبا ، ولأن الجهل قد تكاثف على النفس الجانية حتى صارت مثل الظلمات .

---

[1] البقـــرة : ٨١ .

هؤلاء يعملون السيئات ويعلمون انها سيئات ، ويصرون على المعصية ويعتقدون انها معصية لله عز وجل ، ويتبعون هوى أنفسهم ويؤثرون إرضاء شهواتهم على رضـــوان الله ومنفعة عباده ، حتى يصير الخطأ ملكة تصرف إرادتهم ويتعذر معها التوبة ، وهى التى عبر عنها القرآن الكريم بالختم على القلوب والرين عليها ، وإحاطة الخطيئة بها ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة ﴾ (1) ، ﴿ فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ﴾ (2) . وان من الناس من تغلب شهواته فيطيعها ثم تقوم فى نفسه الخواطر الإلهية فيندم على ما فعل ويعزم على الاقلاع عن الذنوب فأولئك أيضاً من التوابــين ، ومنــهم فريق جعل المجاهدة رياضة نفسية تقويه على اجتناب كبائر الإثم والفواحش الاّ اللمـــم ، وتظل الحرب فى نفس هؤلاء سجالاً بين ما يلمون به من الصغائر وبين الخواطر التى هى جند الإيمان وهى واعظ الله فى نفس كل إنسان .

وبعض الناس يقعون فى الأثام ثم يتوبون ويستغفرون ثم يعودون إلى الأثام مـــرة آخرى ثم يتوبون ويستغفرون ، وهكذا تظل نفوسهم موزعة بين إرتكاب الذنب والنــدم عليه ، وهؤلاء فى أدنى مراتب التوابين ، وهم فى ذلك فى محل الرجاء والعـــودة إلى الله ، لأن فى نفوسهم قوة زاجرة تلومهم على الذنب ، وتذكرهم بالله ، وقد يكون فى تكـــرار اللوم ، وتكرار الذنب قدرة قاهرة على التغلب على إلحاح الشهوات وهمزات الشياطين ، فيلحق أصحاب هذه النفوس بالتوابين المتطهرين ، اما إذا انكسرت الزواجر النفسية امام الشهوات فقد أحاطت الخطيئة بصاحبها فأصبح من المصرين الهالكين .

ولقد نفى الله سبحانه وتعالى قبول التوبة للذين يعملون السيئات ولا يتوبون عنها الا إذا حضر احدهم الموت بقول ﴿ وليست التوبة للذيـــن يعملـــون الســـيئات ﴾ و لم يقـــــل :" وليست التوبة على الله ... " . كما قال : ﴿ إنما التوبة على الله ﴾ وذلك لأنه – سبحانه – لا يوجب على نفسه قبول توبتهم إذا تابوا ، ولكنه ينفى وقوع التوبة

---

(1) البقرة : ٧ .

(2) البقرة : ٩ .

الصحيحة منهم ، ولو تابوا توبة صحيحة صادقة لتابوا من قريب ، ولقصروا المسافة بين إرتكاب الذنب وبين الندم عليه ، ولكن سنة الله قد مضت عليهم فأحاطت بهم خطاياهم وسيئاتهم فلم تدع للطاعة والحسنات مكانا من نفوسهم إلى ان حضر أحدهم الموت ويئس من الحياة التي تمتع فيها ... عند ذلك قال : إني تبت الآن ... وما هو من التائبين.

ولقد قرنت الآيات امثال هؤلاء في رد توبتهم بالذين يموتون وهم كفار ، لأنه إذا لم يكن للمؤمن المذنب توبة عند حضور الموت ، فالأولى الا تكون هذه التوبة للكافر ، والكفر رأس الكبائر وقمة المعاصي .

كسب المخلوق في ظل مشيئة الخالق

﴿ قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا الا ماشاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ﴾ [1] .

يوقن المؤمن ان كل شئ في هذه الحياة بإذن الله ، وانه يخط طريقه في الدنيا تحت مظلة من قضاء الله وقدره ، وهو لا ينفع نفسه ولا ينفع الناس إلا بشئ قد كتبه الله له ، ولا يضر نفسه ولا يضر الناس إلا بشئ قد كتبه الله عليه ، وما أصابه لم يكن ليخطئه وما اخطأه لم يكن ليصيبه .

ولكن رغم هذا الإيمان اليقيني بالقضاء والقدر فإنه مكلف بأن يسعى بمشاعر صادقة وعينين مفتوحتين ونفس راضية ، فهو يطلب الخير لنفسه ويحرص على ما ينفعه ، وذلك بناء على ما زوده الله به من فطرة تعرف الخير وعلى ما هيأ له من ملكات يستعين بها على شق طريقه في الحياة ، وعلى ما بث به من غرائز يستعملها في المحافظة على نفسه واستبقاء حياته وتحقيق مصلحته .

حتى إذا استكمل هذه الأدوات الإنسانية ، وأدى دوره وقام بواجبه نحو نفسه ، فقد استكمل أركان التوكل على الله ، ومن ثم فهو يسير ثابت الخطوات على الأرض موصول القلب بالسماء ، لأن عليه ان يسعى وليس عليه إدراك النجاح ، ولكن سعيه هذا

---

[1] الأعراف : ١٨٨ .

على أساس من اليقين ، وفى ضوء من التوكل عليه - سبحانه - يؤنسه ويهديه لأن الله لا يضيع أجر من احسن عملا .

وهو إذن يسعى بقدميه ويدعو بقلبه ، ويتسلح بغرائـــزه ويـــهتدى بفطرتـــه ، كالزارع يبذر الحب ويطلب الثمار من الرب ، وينفق جهده فى وقت الغـــرس ويرجـــو البركة فى وقت الحصاد .

وهو إذا خرج من بيته طالبا رزقه كان كالطير تغدو خماصا وتروح بطانا لأنه قد توكل على الله حق توكله ، ومن هنا نجد الرسول ﷺ يقول فيما يروى عن أنس بـــن مالك رضى الله عنه : (من قال - يعنى من خرج من بيته - باسم الله توكلت على الله ، لا حول ولا قوة الا بالله ، يقال له : كفيت ووقيت وهديت ، وتنحى عنه الشيطان)[1]

الإنسان اذن مكلف أن يحرص على مصلحته ويطلب الخير لنفسه من جهة ، وهو من جهة آخرى مطالب بالإيمان بقضاء الله ، وان إرادة الله خير له ، وأنه إذا اختار لنفسه فبهداية الله له وتوفيقه إياه ، فهو لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا مستقلا بقدرته ، وإنما يملك ما يملك بقدرة الله ومشيئته ، وذلك هو معنى الاستثناء فى قوله تعالى :
﴿ إلا ما شاء الله ﴾ وهو يبين عجز المخلوق عن الأستقلال والأستغناء عن الله ، فـــهو لا يملك لذاته بذاته ، بل بمشيئة الله تعالى .

وإذا كانت هذه الآية خطابا للرسول ﷺ ، وبيانا من الله أنه لا يملك بمقتضـــى منصب الرسالة نفعا ولا ضرا بل يعجز عن ذلك بمقتضى بشريته ، فإن غير الرسول أولى بهذا العجز ، وأبعد عن الإطلاع على الغيب الذى هو شأن الخلق دون المخلوق .

والقلق النفسى أساس من أسس مشكلاتنا المعاصرة ، فهو موجة مدمرة وظاهرة عامة تجتاح الشباب وغير الشباب ، وهذا القلق قلق على المصير وقلق على الرزق وقلق على العمر ، والرزق معدود ومحدود ﴿ وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقـــها ﴾ ، والأجل مكتوب ومقدور ﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يســـــتقدمون ﴾ ،

---

[1] رواد ابو داود الترمزى والنسائى .

ومن هنا كان الإيمان ملاذ الحيارى وملجأ الخائفين وكان القلق سمة من سمات الضعف البشرى حين يتجرد الإنسان من أسباب اتصاله بالسماء لشدة التصاقه بأسباب الأرض .

وان أساس العبودية الخالصة لله فى توجيه العباد إلى رهم فيما يرجون من نفع ويخافون من الضر ، والله المستحق للعبادة هو من يملك الضر والنفع ، وهو غير مقيد ولا خاضع للأسباب العادية التى تعارف عليها الناس ، والمقاييس التى هى من صنع البشر .

ولقد عاب الله على المشركين عبادهم لآلهة لا تملك لهم نفعا ولا ضرا ، فقال : ﴿ قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا ﴾ [1] .

وقال فى عجل بنى إسرائيل ﴿ أفلا يرون ألا يرجع اليهم قولا ولا يملكون لهم ضرا ولا نفعا ﴾ [2] .

ولما كان ملك الضر والنفع بيد الخالق وحده سبحانه وكان الطلب الذى يتوجه به الناس لجلب النفع وكشف الضر عبادة لا تجوز أن توجه إلى غير الله من العبادة ، فلقد أمر الرسول ﷺ ان يصرح بالبلاغ عنه بأنه لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعا ولا ضرا ، ولقد تكرر هذا المعنى فى القرآن الكريم كثيرا ، ومنها قوله تعالى ﴿ قل لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا الا ما شاء الله ﴾[3] .

ولقد ظهر ذلك المعنى فى قول الرسول ﷺ لأبنته :" يا فاطمة بنت محمد ، أعملى فإنى لا أملك لك من الله شيئا " .

ومن هنا أمر الله نبيه أن ينفى عن نفسه العلم بالغيب ، لأنه لا يعلم الغيب إلا الله ولو أن النبى يعلم الغيب لاستكثر من الخير ، وتجنب الضر .

فإن الناس يرغبون فى خيرهم الذى يجلب لهم المنافع المادية كالمال والمعنوية كالعلم والجاه ، ويفرون بقدر ما يستطيعون من كل مصدر يجلب لهم الأذى ويسبب لهم الآلام

---

[1] المائدة : ٧٦ .

[2] طـه : ٨٩ .

[3] يونس : ٤٩ .

ولكنهم بالغيب أجهل ، وعن فطنة الأطلاع عليه ابعد ، فقد يطلع الله انبياءه على بعض الأمور التي هي من علم الغيب ، والتي تتعلق بوظيفة الرسالة كالملائكة والحساب والثواب والعقاب ، وأن ما يطلع عليه الرسل من ذلك لا يكون من علمهم الكسبي ، لأن النبوة غير مكتسبة ، ويقول الله عز وجل ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شئ عددا ﴾ [1] .

وهذا الفهم يحرر العوام من استيلاء بعض الدجالين عليهم لادعائهم انهم يطلعون على المستقبل ، ويكشفون للناس عما سيكون لهم من أمور الدنيا ، وهذا تنجيم نهى عنه الإسلام ، ووصفه نبيه بالكذب والضلال ، كما أنه يقعد بالهمم فيعطل الناس عن السعى ويجعلهم يتعلقون بأوهام وأباطيل ما أنزل الله بها من سلطان ، وهذا الادعاء يدل على ضعف النفوس التي تدعى علم ما لاسبيل إلى علمه ، ويدل كذلك على تفاهة العقول التي تصدق ذلك الوهم ، وتخضع لتلك الخرافات ، مع ان الله سبحانه يأمر انبياءه بأن ينفوا عن أنفسهم هذا العلم الغيبي ، ليفرغوا عقائد قومهم لعبادة الله وحده والتوجه اليه دون سواه ﴿ قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول لكم أنى ملك إن اتبع الا ما يوحى الى ، قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون ﴾ [2] .

فما دام الله تعالى لم يؤت الرسل ما لم يؤت غيرهم من التصرف فى المخلوقات ومن علم الغيب ، فليس لمن هم اقل منهم مرتبة وأدنى مقاما ان يدعوا لأنفسهم ما ليس لهم ، وان يخدعوا العوام فيصرفوهم عن التوجه إلى الله بالتوجه اليهم ، وعن دعائه بالتعلق بهم ، مع أن الدعاء - كما قال رسول الله ﷺ (مخ العبادة) أى خلاصتها وحقيقتها.

وحين يتقلص ظل الدين فى قلوب المنتسبين اليه ، تضيع حقيقته من نفوسهم فلا تبقى منها إلا الظنون ﴿ وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا ﴾ فالقرآن الذى أنزله الله ليخرج

---

[1] الجـــن : ٢٦ - ٢٨ .

[2] الأنعام : ٥٠ .

الناس من الظلمات إلى النور يتحول من قلوب الكسالى نورا وهدى إلى اسماعهم نغمات وألحانا ، وآيات الرزق التي تحث المؤمنين على السعى والطلب يفهمها القاصرون على انها تدعو إلى الكسل والتواكل وطلب الرزق ونحن نيام .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد دعانا إلى الإيمان بالغيب مما لا تدركه حواسنا وان كان حقيقة لايعلمها إلا هو سبحانه ، فإنه قد دعانا كذلك إلى كشف ما يمكن ان تصل إليه الحواس ، والى أستغلال كل ما يمكن ان نكشفه من طاقات ، والى ان ننقب فى الأرض فنستخرج مكنونها ، ونغوص فى البحر فنستخرج كنوزه ، ونحلق فى الفضاء فنعرف أسراره ، وحين نفعل ذلك فإننا لا نشارك ربنا فى الإطلاع على الغيب ، ولكننا نستقبل فضله فى إقدارنا إلى البحث والتنقيب فى حدود إيماننا بقدرته التامة على النفع والضرر ﴿ قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون . فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم . قل انتظروا إنى معكم من المنتظرين ﴾ [1] .

العدالة شريعة الله

﴿ يأيها الذين أمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ان الله خبير بما تعلمون ﴾ [2] .

إن العدل صفة نبيلة من صفات المؤمنين ، وعليها قامت الدعوة إلى دين الله وبها أمر الله كما أمر بغيرها من الصفات النبيلة فقال ﴿ ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى ﴾ [3] . وقال فى موضع اخر ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ﴾ [4] . فالعدل واجب فى الأقوال كما انه

---

[1] يونس : ١٠١ - ١٠٢ .

[2] المائدة : ٨ .

[3] النحل : ٩٠ .

[4] الأنعام : ١٥٢ .

واجب فى الأفعال ، وبه تصلح شئون الناس ، ويقوم أمر العالم ، ولا يجوز للمؤمن أن يحابى فيه أحدا ، لقرابة أو لصداقة أو غير ذلك ، وفى هذا إختبار لعدالته وإيمانه ، فإن الإســلام يرتفع بالضمير البشرى إلى مستوى رفيع يقوم على أساس من هدى العقيدة فى الله ، ويتره المؤمنين عن الضعف البشرى الذى يضطره أحيانا إلى الجور والتعصب ، والإنقياد للأهواء ويدعو إلى اقامة الشهادة لله بالحق ولو كانت على النفس أو الوالدين والأقربين .

لأن العدل فوق الحقوق الشخصية وحقوق القرابة غيرها ، ولقد شاعت محابـــاة الأقربين والتعصب لهم بالحق والباطل فى الجاهلية ، حتى جعلت الواحد منهم يحمل سيفه ويحارب بجانب أهل عصبيته ظالمين أو مظلومين ، فهم لا يسألون أخاهم برهانـــا علـــى صدق قوله أو عدالة موقفه ، ولكنهم يندفعون معه منقادين لعصبية مذمومة ونداء ظالم ، وجاء الإسلام فحظر محاباة المرء نفسه أو أهله وإعطاءهم ما ليس لهم من الحق ، ولقـــد روى عن ابن عباس أنه لما قدم النبى ﷺ المدينة كانت البقـــرة أول ســـورة نزلت ، ثم اردفتها سورة النساء ، قال : فكان الرجل تكون عنده شهادة قبل ابنه أو أبن عمـــه ، أو ذوى رحمه فيلوى بها لسانه أو يكتمها مما يرى من عسرته حتى يوسر فيقضـــى ، فـــترل قول الله تعالى ﴿ يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهـــداء لله ولو علـــــى أنفسكم أو الوالدين والأقربين ﴾ [1] .

ولقد جاء الأمر بالعدل فى الشهادة فى قوله عز وجل ﴿ كونوا قوامين بالقســط شهداء لله ﴾ . لأن القوامين بالقسط هم الذين يقيمون العدل بالإتيان به على أتم الوجوه وأكملها وأدومها ، لذلك فقد أمر الله تعالى بإقامة الصلاة واقامة الوزن بالقسط لتـــأكيد العناية بهذه الأشياء .

ومن كان قواما بالقسط فقد أصبحت العدالة لازمة فيه وملكة راسخة فى نفسه.

وللعدل مجالات كثيرة نتلمسه فيها ونحتاج اليه حين تواجهنا هذه المجالات ، فهو مطلوب فيما يجب من العلاقة بين الزوجات والسلطان عليهم .

---

[1] النساء : ١٣٥ .

ولقد كان ينبغي ان يكون المسلمون بمثل هذه التعاليم الربانيـــة أعـــدل الأمـــم وأقومهم بالقسط ، كذلك كانوا عندما كانت تعاليم الكتاب احكاما تنفذ لا مجرد آيات تتلى ، وصـــــدق عليهم قـــول الله عز وجل ﴿ وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ [1] .

ولكن حين انحرف الخلق عن سيرة السلـــف ، ونبـــذوا هدايـــة القـــرآن وراء ظهروهم ، صارت أمم العالم تفخر عليهم بالعدل ، وصار الذين ليس لهم من الإسلام إلا إسمه يلتمسون من الأمم الأجنبية القسط والعدالة وهداية القانون .

وحين تكون الشهادة لله فإن المؤمن يجب عليه أن يتحرى الحق الذى يرضـــى الله لا الناس ، فهو لا يجامل أحدا لقرابته أو صداقته ، ولا يميل مع أحد لمطامعه وأهوائـــــه ، وإنما هو يقيم الشهادة إمتثالا لأمر الله وإتباعا لشريعته المستقيمة التى لا تنحرف ولا تجور.

ومن أقر على نفسه بحق فقد شهد عليها ، لأن الشهادة إظهار الحق ، ومن أقـــر كذلك بالحق على أهله وأقاربه فقد أنصفهم لأنه كفهم عن الظلم وأبعدهم عن الباطل ، ولقد روى عن رسول الله ﷺ أنه حث المؤمن على ان ينصر أخاه ظالما أو مظلوما . قيل يا رسول الله أنصره مظلوما ، فكيف انصره ظالما . قال : أن تأخذ على يده فتكفه عـــن الظلم ، وذلك نصره ... وليس من بر الوالدين أو صلة الأقربين ان يعينهم على ما ليس لهم بحق ، أو أن ننكص عن الشهادة من أجل إرضائهم ، وانما البر والصلة فى الحق والأمر بالمعروف واقامة الشهادة على وجهها .

وإن الذين يتعاونون على هضم حقوق الناس ، يتعاون الناس كذلك على ظلمهم وهضم حقوقهم ، فتكون المحاباة فى الشهادة ، من أسباب إنتشار الظلم والعدوان وذلك من المفاسد التى تعود بالضرر على الأفراد .

وان شهادة الشاهد تكون لإرضاء الله لا لإرضاء الناس ، والعدل مـــيزان الله فى الأرض به ينتصف الله من الشديد للضعيف ، ومن المبطل للمحق ، وبـــالعدل يصـــدق

---

[1] الأعراف : ١٧١ .

الصادق ويكذب الكاذب ، ويوضع كل منهما فى موضعه الصحيح ، وكم من مجاملات فى حياتنا تجور فتقصى الأكفاء وتقرب الجهلاء فلا تجنى الأمة من ذلك الا الضياع والخسران .

وإذا وقعت المحاباة فى الشهادة أو إختل ميزان العدالة بين الناس ، زالت الثقة بينهم وتقطعت روابطهم الإجتماعية ، وصار بأسهم بينهم شديدا ، حين ذلك يسلط الله عليهم بعض عباده فيزيلون أستقلالهم ، ويذيقونه من الظلم الذى أذاقوه لغيرهم ، وتلك سنة الله التى شهدناها فى الأمم الحاضرة ، وشهد بها تاريخ الأمم الغابرة ، فكأن الإسلام ينبه الغافلين إلى أن الذى يجور منهم فإنما يجور على نفسه ، والذى يحطم ميزان العدالة اليوم ، فإن الدوائر تدور عليه فى الغد ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئا ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾ [1] .

فلا عذر لمؤمن فى ترك العدل وعدم إيثاره على الجور والمحاباة ، بل عليه ان يجعله فوق الأهواء وحظوظ النفس ، وفوق المحبة والعداوة مهما كان سببها ، ولقد كان من آيات العدالة كما اشار القرآن ان يعدل الإنسان حتى مع أعدائه والمبغضين إليه ، فلا تمنعه عداوتهم وبغضاؤهم من قول كلمة الحق ، لأن هذه الكلمة فى هذا المجال هى أقرب إلى التقوى والبعد عن سخط الله وعقابه وقد يرى الإنسان بفكره الضيق ونظرته المحدودة ان الخير فى كتمان الشهادة أو تحريفها ، وانه إن أداها على وجهها الصحيح فسيجلب عدواة الأصدقاء ونفور الأقارب وشماتة الأعداء وهو من أجل ذلك يؤثر السلامة ، ويخلد إلى الطريق السهل الذى يستبقى صداقته لأصدقائه ومودته لأقاربه ، ولكنه لو درى عاقبة ما يفعل لأدرك أن الصداقة المبنية على الباطل لا تلبث ، أن تنهار ، والصلة الممتدة بحبال المجاملات لا تلبث ان تنقطع ، ومن أجل ذلك المعنى ختمت الآية بعد الأمر بإقامة الشهادة ومراعاة واجب العدالة والتقوى بقوله تعالى ﴿ ان الله خبير بما تعملون ﴾ لأن الخبرة هى العلم الدقيق الذى يؤيده الأختبار والله لا يخفى عليه شئ من أعمال الناس ظاهرها

---

[1] يونس : ٤٤ .

وباطنها ، ولا من نياتهم وحيلهم فيها ، فهو الحكم العدل القائم بالقسط ، وهو الـــذى يجزى الناس بالعدل على تركهم العدل وقد مضت سنته فى خلقه لأن جزاء ترك العـــدل

وإقامة القسط فى الدنيا هو ذل الأمة وهوانها ، وإعتداء غيرها من الأمم على استقلالها ، ولقد قال نبينا عليه السلام "(إذا ظلم أهل الذمة كانت الدولة دولة العدو) [1] .

وصدق الله العظيم حيث يقول﴿ فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا وإن تلوا أ وتعرضوا إن الله كان بما تعملون خبيرا ﴾ .

إحساس المؤمنين بعدالة الله فى الثواب والعقاب

﴿ افأمن الذين مكروا السيئات ان يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب مـــن حيث لا يشعرون ، أو يأخذهم فى تقلبهم فما هم بمعجزين ، أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرءوف رحيم ﴾ .

إن حواس المؤمنين يقظة دائما لكل ما خلقه الله ، ومشاعرهم دائما مشدودة إليه تبغى رضاه ، هم يوقنون إن ميزان الله عادل لا يجور ، وحكمته بالغة لا تقصر ، وحسابه قائم لا يحابى ولا ينحاز ، ﴿ ليجزى الذين أســـاءوا بما عملوا ويجزى الذين احســـنوا بالحسنى ﴾ [2] . فأساس القرب من الله اوالبعدعنه هو الإحسان أو الإساءة والطاعـــة أو المعصية .

والمؤمنون رغم صلتهم بالله وقرب مترلتهم منه يمثلون هذا المقياس العادل دائما ، ويلتزمون به فى كل ما يأتون وما يدعون ، فلا يغرهم رضا الله عنـــهم فيقصـــرون ، ولا يقنطهم غضبه عليهم فييأسون ، وإنما هم سائرون على الطريق ، مجتـــهدون ليصلـــوا إلى الغاية ، متيقظون لحلم الله على المسئ ، ورحمته بالمخطئ ، وفرحته بالتائب ومـــع ذلـــك فإنهم لا يأمنون مكر الله لأنه ﴿ لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾ [3] .

---

[1] رواه الطبرى عن جابر .
[2] النجـــم : ٣١ .
[3] الأعراف : ٩٩ .

ولقد روى عن ابى بكر انه كان يقول : لو كانت احدى قدمى فى الجنة والاخرى خارجها ما أمنت مكر الله . وهذا لون من استشعار الرقابة الالهية ، ومعرفة بطبيعة العدالة الربانية ، فإن الله قد يعفو وقد يغفر ، ولكنه لا يضل ولا ينسى .

فإذا زل العبد للضعف البشرى المركب فيه ، فإن الله يفتح له باب التوبة ويمد له حبال الأمل ، ويقول للمذنبين مثل قوله عز وجل ﴿ قل يا عبادى الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم﴾ [1]

ولكنه إذا استمر فى المعصية واغتر بالغفران ، فإنه حينئذ لم يقدر عفو الله حق قدره ، و لم يؤمن حق الإيمان بأن ، القادر على العفو قادر على البطش ، وبأن (الغفور الرحيم) هو شديد العقاب ، وهذه الآيات التى تزرع الأمل فى نفوس المذنبين .. تمتد لتبعث النذر فى نفوس المتهاونين .﴿ وأنيبوا إلى ربكم واسلموا له من قبل ان يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون ، وابتعوا احسن ما أنزل اليكم من ربكم من قبل ان يأتيكم العذاب بغتة وانتم لا تشعرون ﴾ .

وإن غضب الله على المنغمسين فى الخطايا ليعد غيرة على حدوده التى يجب ان تحفظ ، وعلى محارمه التى يجب ان تصان ، لقد جاء فى الحديث النبوى الشريف (إن الله يغار ، وان المؤمن يغار . وغيرة الله أن يأتى المرء ما حرم الله) [2] .واقتراف المجرم لجرائمه ، وانسياقه وراء شهواته ، إنما يعد استهانة بحدود الله ، مخاصمة لملك شديد العقاب ، وتمردا على رب ﴿ تسبح له ما فى السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وان من شئ الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم انه كان حليماغفورا ﴾[3] .

ولولا أن رحمة الله تسبق غضبه ، وانه يمهل الظالمين ليفسح لهم مجال التوبة فيهتدوا بعد ضلال ويرشدوا بعد غى .. لولا هذا لأخذهم بذنوبهم ، ولأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ، ولكن

---

[1] الزمر : ٥٣ .

[2] رواه البخارى .

(٣) الإسراء : ٤٤ .

يؤخرهم إلى اجل مسمى ، فإذا جاء اجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا﴾ [1] .

مع ذلك الأمهال الذى يستوجب العرفان ، وهذا الغفران الذى يقتضى الإقلاع عن الذنوب ، فإن الإنسان ما يزال يقارف المعصية ، ويرتكس إلى الرذيلة ، فإذا أسرع الله بعقابه فقد حكم فعدل وقدر فانتقم ، وعاقب فأصلح الأرض وطهر العباد ، وإذا أجل عقابه فليحذر وينذر ، وليوقظ المشاعر الحية بالعفو ، وينبه النفوس الناسَية بالحلم لعلها تفئ إلى أمر الله ، وتعود إلى طريق الرشاد ، وأن الذى يدعو إلى الدهشة فى طباع البشر ، ان يد الله تحمل من حولهم ، وان قدرته تحيط بهم ، وانهم يجدونه فى كل لحظة من لحظات حياتهم فى اليقظة والمنام ، وإذا غفل احدهم عن الله حين تكلؤه النعمة ، فإنه يتذكره ويتجه اليه حين ترزؤه النقمة ، ﴿ وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا اليه ، ثم إذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعو اليه من قبل ، وجعل لله اندادا ليضل عن سبيله .. قل تمتع بكفرك قليلا إنك من اصحاب النار ﴾ [2] .

ومع ذلك يظل الذين يمكرون يمكرون فلا يعود مكرهم إلا عليهم لأنه ﴿ لا يحيق المكر إلا بأهله ﴾ . ويظل الذين أفلتوا من عقاب اله العاجل آمنين سادرين ، وكأنهم ليسوا فى قبضة الله الذى يمهلهم ان شاء ويأخذهم بذنوبهم ان شاء ، بل ليسوا هم وحدهم فى قبضته ﴿ فالأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ﴾ [3] .

وهؤلاء الغافلون لا يخشون ان تمتد اليهم يد الله فى صحوهم أو منامهم ، أو يأخذهم وهم يتقلبون فى البلاد للتجارة أو السياحة أو غير ذلك ، أو يحل بهم العذاب وهم يتوقعونه متيقظين لوقوعه ، فلا ترد يقظتهم شيئا من أمر الله ، ولا يحول توقعهم شيئا من قدر الله .

---

[1] فاطر : ٤٥ .

[2] الزمر : ٦٧ .

[3] الزمر : ٦٧ .

لأنهم لما وقعت منهم المعصية لأول مرة ، وقعت فى الخفاء وعلى استحياء ، ثم زاولوها وقد تبلدت مشاعرهم وتجمدت ضمائرهم ، ثم صاروا على كثرتهم مجتمعا يتعارف أهله على الخطيئة ، ويلتقى أفراده على الآثام .

فإذا انحط المجتمع إلى هذا الدرك فهو مجتمع الخطيئة وقد جاهروا الله بالحرب فانتقم منهم بالعدل ، والعدل هنا ان يحمى حدوده من العدوان ، وان يدافع عن محارمه من التبذل ، وهو حين ينتقم فإنما ينتقم عادلا ، وإذا عفا فإنما يعفو قادرا .

﴿ أم حسب الذين يعملون السيئات ان يسبقونا ساء ما يحكمون ﴾ [1] .

ومن هنا نتبين ان الاسلام يفرق بين نوعين من المعاصى :

النوع الأول : ذلك الذى يأتيه صاحبه دون قصد ، أو فى لحظة من لحظات الضعف البشرى الذى يلم بالناس جميعا ، فإذا استيقظت نفسه ، وتنبه ضميره ندم على ما فعل ، وأحس بالذنب فأصلح العمل ، واستشعر المعصية فجدد التوبة ، ولا يخلو بشر من خطأ ، كما لا يخلو مجتمع نظيف من نكتة سوداء .

ومثل هذا العبد يفسح الله له طريق الإصلاح ، ويفتح له باب التوبه ، ويدعوه الى ان ينهض من كبوته ، وان يستأنف السير فى الطريق الواصل إلى الله .

أما النوع الثانى : فهو الذى يأتيه صاحبه عن وعى كامل وعمد قديم ، وقد قطع فيه شوطا طويلا فاستمرأه وأصر عليه وواجه المجتمع به .

وهذا النوع من العصيان لأوامر الله ، والتحدى لتعاليمه يعد حربا سافرة يعلنها العصاة على الله ، والله سبحانه وتعالى لا يقهر ولا يغلب ، فكان من رحمته ان يعفو عن الذين وضعوا اقدامهم على أول الطرق المعصية ليرجعوا عنه ، وكان من عدله ، ان يبطش بالغارقين فى الآثام ليكونوا عبرة لمن عداهم ﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله حليما حكيما ﴾ .

وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر احدهم الموت قال :

---

[1] العنكبوت : ٤ .

﴿ انى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك اعتدنا لهم عذابا اليما ﴾ [1] .

والتعارف على الخطأ والصواب يتم فى (وسط اجتماعى) والخير كما عبر الرسول ﷺ يتطلب الأعوان عليه ليصير علامة واضحة فى طريق الحياة ، وليصبح سمة مميزة فى سلوك الناس .

ومن ثم كانت تربية النشء رسالة يجب ان يتنبه لها المصلحون الغيورون ، وأن يغرسوا الفضائل فى النفوس حتى تصير ملكة هادية .

ودستورا رشيدا ولا يتم ذلك الا على أساس من العقيدة الصالحة ، فالشباب الذى لا عقيدة له ، أو الذى تنفصل عقيدته عن مشاعره ، يعيش حياته قلق النفس موزع الخواطر ، لأن العقيدة هى مصدر الإيمان ، والإيمان هو الذى يخلق وسائل النجاح بين طيات العدم واليأس ، فإذا فقدت الأمة عقيدتها فقدت إيمانها بكل شئ وكانت هدفا لنقمة الله وغضبه ﴿وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها ، فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا وكنا نحن الوارثين ، وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا ، وما كان مهلكى القرى الا وأهلها ظالمون ﴾ [2] .

---

[1] النساء : ١٧ - ١٨ .

[2] القصص : ٥٨ - ٦٠ .

الإسلام دين الإنسانية الشامل

﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن اكرمكم عند الله اتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ [1] .

لقد جاء الإسلام والبشر أجناس متفرقون ، يتعادون فى الأنساب والألوان والأوطان ، فيرى شعب انه فوق الشعوب ويرى جنس أنه سيد الأجناس ، ويفتخر قوم على قوم آخرين بلون أو قومية أو أرض .. ثم صاح الإسلام فى الناس صيحة واحدة ، ودعاهم إلى الوحدة الانسانية الجامعة ، هذه الوحدة التى لا تنتمى إلى جنس ، ولا تتعصب لمذهب ، ولا تنحصر فى حدود وطن الإسلام ، والإسلام دين الله الذى ارتضاه لعباده ، ووطن هذا الدين الأرض كلها ، لأن رسول الله ﷺ قد بعث إلى الناس كافة ، الأبيض منهم والأسود على السواء ، ولا فضل لعربى على أعجمى الا بالتقوى .

والقاعدة الأصلية لهذه الوحدة الجامعة فى الإسلام هى وحدة الأمة ، مصداقا لقوله عز وجل مخاطباً أمة الإسلام ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾ [2] ولقد بين الله سبحانه وتعالى انه خاطب الانبياء جميعا بهذه الوحدة حيث قال ﴿ يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا انى بما تعملون عليم ، وإن هذه امتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾ [3] .

وإذا كان لكل نبى أمة من الناس هم قومه ، فإن أمة محمد ﷺ هى الناس جميعا ، وان وطن هذه الأمة هو الأرض كلها ، وقد فرض الله تعالى على هذه الأمة الايمان بجميع رسله وعدم التفريق بينهم ، لتتم فى التقاء الأديان وحدة الدين وتتم فى التقاء الأمم وحدة الانسانية ﴿ آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين احد من رسله وقالوا سمعنا واطعنا غفرانك ربنا واليك المصير ﴾ [4]

---

[1] الحجرات : ١٣ .

[2] الأنبياء : ٩٢ .

[3] المؤمنون : ٥١ -٥٢ .

(٤) البقرة : ٢٨٥ .

وبذلك كانت وحدة الإسلام وحدة فى الإنسانية بالمساواة بين أجناس البشر وشعوبهم وقبائلهم ، ووحدة فى الدين بإتباع رسول واحد جاء بأصول الدين الفطرى الذى جاء به غيره من الرسل ، وأكمل تشريعه بما يوافق جميع البشر حيث سوى بينهم فى أحكامه وفى أخرته الروحية وعبادته ، فالصلاة مثلا تجمع بين الأغنياء والفقراء والملوك والسوقة ، والحج مؤتمر عالمى يجمع الشعوب المتباعدة على صعيد واحد ، وإذا الفروق فى اللون والجنس والأرض قد ذابت فى بوتقة واحدة هى بوتقة الإيمان ، وقد بلغ النبى ﷺ ذلك للأمة يوم العيد الأكبر بمنى فى حجة الوداع هذه الوحدة الانسانية تتضمن الدعوة إلى التآلف بالتعارف والى ترك التعادى بالتحالف ﴿ يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير﴾ [1] .

ومن ثم فإن الناس فى شريعة الله سواء ، لا يفضل بعضهم بعضا الا وفق مقاييس عادلة وضعها أحكم الحاكمين ، ووحدة التشريع بالمساواة تجمع الخاضعين لاحكام الإسلام فى الحقوق بالعدل المطلق الذى لا ينحرف ولا يجور ، فكل البلاد الخاضعة للحكم الإسلامى متساوية فى الحقوق العامة ، وحكم الإسلام فى معابد الملل كلها انها خاصة بأهلها ولها حرمتها ، ولا يجوز لغير أهلها دخولها بغير اذن منهم ، المسلمون منهم وغيرهم فى هذا سواء .

ولقد كان من ملامح الوحدة الإنسانية فى هذا الدين ، ان كتابه المترل قد نزل بلغة عربية مبينة جمعت الناس عليه بالتلاوة والتدبر ، وكان المؤمنون مسوقين بإعتقادهم ووجدانهم إلى معرفة لغة كتاب الله وسنة رسوله ، حيث كانت هذه المعرفة فى حد ذاتها لوناً من ألوان العبادة ، يتقرب بها المسلم إلى الله كما يتقرب اليه بالصوم والصلاة .

وكان حرص الرسول ﷺ على وحدة الأمة الإسلامية وتماسكها وإن تباعدت اطرافها وتعددت ، انه ان كان ينكر على المسلمين كل نوع من أنواع التفرق والعصبية ، ويشبه وحدتهم الجامعة بالجسد الواحد ، حيث يقول : (مثل المؤمنين فى توادهم

---

[1] الحجرات : ١٣ .

وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى) [١] .

وكانت تلك الدعوة إلى الجنس النسبي الذى يعرفه سائر الجنس البشرى ، ثم يرجع إلى هذه الدعوة دعوة اخرى تقوم على وحدة اللسان ، فعن أبى سلمه بن عبد الرحمن قال : (جاء رجل إلى حلقة سلمان الفارسى وصهيب الرومى ، وبلال الحبشى فقال : هذا الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل ، فما بال هذا ؟ فقام اليه معاذ بن جبل رضى الله عنه ، فأخذ بتلبيبه ، ثم أتى النبى ﷺ بمقالته ، فجاء النبى ﷺ مغضبا يجر رداءه حتى أتى المسجد فخطب فى الناس : (يأيها الناس ان الرب واحد ، والأب واحد ، وان الدين واحد ، وليست العربية فيكم بأب ولا أم ، وإنما هى اللسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربى) [٢] .

والرسول ﷺ - هنا - لا يدعو إلى التمسك باللسان العربى بقدر ما يدعو إلى نبذ العصبيه بالجنس العربى ، فالإسلام ذوب الجنسيات ، وجعل الفارسى والرومى والحبشى أبناء امة واحدة ، فسلمان منا أهل البيت ، وصهيب سابق الروم وبلال مؤذن الرسول ، فالكل يتجهون إلى قبلة واحدة هى أساس الوحدة فى الصلاة وهى رمز الوحدة فى الحياة .

ولو ظل المسلمون على هذه التربية الرشيدة ، يحفظونها تعاليم دين ، ويسلكونها منهج حياة ، ويلتزمون بها قانون أمة ... لو فعلوا ما دب الخلاف بينهم ، وما حكم الشقاق أحوالهم ، وما كان لهذه الفواصل من الجنس أو اللون أو اللغة حياة فى صفوفهم ، فلقد كانوا باسم الإسلام قائمين على رياسة روحية يدين لها المشرق والمغرب ، ولو أوتوا من العلم والحكمة ما يحسنون به القيام ، ومن الحزم والعزم ما يعززون به القيادة ، ومن النظام ما يحكمون به السياسة ... لأمكنهم ان يسوسوا ويملئوا العالم عدلابعد ان ملأه

---

[١] رواه الأمام أحمد ومسلم .

[٢] رواه الحافظ بن عساكر بسنده إلى مالك عن الزهرى .

حكامه جوراً ... ولكن لأن حضارة الإسلام مرتبطة دائما بمبادئـــه ، فـــإن المســلمين يتخلفون عن الحضارة لأنهم يتخلون عن المبادئ ، وبقدر التزامهم بهذه المبادئ يحكمـــون بها أنفسهم قبل ان يحكموا غيرهم تهدى القلوب إلى دينهم إيمانا بـــه ، كمـــا تســـارع الشعوب إلى امتهم تمسكا به .

وإيمان المسلمين بوحدتهم يجب ان يكون نابعاً من إيمانهم بأن دينهم هو الديـــن وبأن عقيدتهم هى العقيدة ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ [1] . ﴿ ومن يبتـــغ غـــير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ [2] .

فليست الدعوة إلى الوحدة - حينئذ - دعوة إلى العصبية ، وليس الإنتماء اليـــها لوناً من الانتماء الجاهلى الممقوت ، وإنما هى الوحدة الشاملة الـــتى تظلـــها العقيـــدة ، والعقيدة هى الملة التى أختارها الله لعباده ليصحح بها اتجاه البشرية فيما يتعاملون وفيمـــا يدينون .

وحين جعل الله أمة محمد ﷺ خير أمة أخرجت للناس ، لم يكن ذلـــك لأنهـــم ينتسبون إلى اشرف جنس ، أو لأنهم يمثلون أقدس قومية ، ولكن لأنهم يرتبطون بدعـــوة هى الدعوة التامة ، ويكونون أمة هى الأمة الواحدة ، ويحملون كتاباً هو الكتاب الجامع ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس . تأمرون بالمعروف ،وتنهـــــــــون عـــن المنكـــر ، وتؤمنون بالله ﴾ [3] .

وحين نزل القرآن بمبادئه يلزم بها اتباعه الذين آمنوا به ، ويدعو اليـــها اعـــداءه الذين خالفوه كان يدعو الانسان بالمعنى الشامل للإنسانية ، الانسان الـــذى كرمـــه الله فخاطبه ، وشرفه فكلفه وقدره فجعل نسبته اليه ، فهو الإنسان الربانى الذى يسمع بسمع الله ويرى ببصره ويهتدى بنوره .

---

[1] آل عمران : ١٩ .
[2] آل عمران : ٨٥ .
[3] آل عمران : ١١٠ .

فليس الإسلام – اذن – هو الدعوة الإقليمية التي تلصق أهلها بقطعة من الأرض وتدعوهم إلى حماية مساحة من التراب ، وليس صيحة قومية تشيـــد بأهلـــها فترفعـــهم – بالحق وبالباطل – على سائر القوميات ، وليست فكرة ذهنية تلتف حولها مجموعة من الدارسين لها إهتمام بالنظريات والفلسفات .

ولكنه دعوة شاملة للإنسان في كل بقاع الأرض دين ودنيا عقيدة وحياة ، مبدأ وسلوك .

به يصير العبد إنسانا بعد أن لم يكن ﴿ شيئا مذكوراً ﴾ وبه يحيا حياة الإنســـــان بعد ان كان ميتاً ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون ﴾ [1] .

---

[1] الأنعام : ١٢٢ .

من القيم الخلقية القرآنية

- ﴿ وإن لك لأجرا غير ممنون . وأنك لعلى خلق عظيم ﴾

(سورة القلم/ ٣،٤)

- ﴿ .. ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضّوا من حولك ﴾

(سورة آل عمران / ١٥٩)

- ﴿ خير ما أُعطى الناس خُلق حســـن ﴾

(مسند احمد أبن حنبل حـ٤/ ٢٧٨)

- ﴿ إن من أحبّكم إِلىّ أحسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا.. الذين يألفون ويؤلفون ﴾

(البخارى: فضائل الصحابة /٢٧ - الترمزى البر /٧١ ،ابن حنبل حـ٤/ ١٩٢)

حملة القرآن على النفاق والمنافقين

﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولايذكرون الله إلا قليلا. مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا﴾ [(١)].

لا تُفسد النفوس صفة كما تفسدها صفة النفاق، والنفاق إذا عشّش فى النفوس وانطوت على الخداع، والتوت فيها الحقائق، وانحطت الإنسانية إلى درك لم تخلق لأجله،فلقد خلق الله الإنسان ليعمر الأرض بالخير، ويطهر القلوب بالإخلاص، ويزكى النفوس بالعبادة، وهو فى هذه الصورة المشرقة قد جعله الله فى الأرض خليفة، ثم هو فى الجزء المقابل لهذه الصورة مخلوق نسى الله فنسيه الله، أو نسى الله فأنساه نفسه، وإذا نسى الإنسان نفسه لم يكن شيئا مذكوراً، وهو-حينئذ- ينحط إلى درك الحيوانية بل أضل من ذلك، لأن الحيوان هكذا خلق، وهكذا كان.. لم يتغير، ولم يغير نفسه، أما الإنسان الضال فهو الذى أؤتمن على أمانة فضيعها، ووكل إليه أمر شريف فخانه وأسند إليه رسالة فنكص عن أدائها، ولقد صور القرآن الكريم هذا الصنف من الخلق بقوله:﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها.. أولئك كالأنعام بل هم أضل ..أولئك هم الغافلون﴾[(٢)]،والذين يتصفون بصفة النفاق لا يرون وسيلتهم إلى مطامعهم فى المال ومطامحهم إلى الجاه إلا الكذب والرياء، وهم يلقون الناس بوجوه متعددة الألوان، ويخاطبونهم بألسنة ناعمة الأقوال، ويخفون عنهم صدورا رديئة الخصال كما قال تعالى فيهم:﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم، وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسّندة﴾ [(٣)].

---

(١) النساء /١٤٢-١٤٣.

(٢) الأعراف /١٧٩.

(٣) المنافقون /٤.

والمنافق يحاول أن يرضى كل أحد بما يرضيه ويحببه إليه، ولاسيما الحكام وأصحاب الجاه والمناصب والثراء الذين يرجى الانتفاع منهم أو يخشى ضرهم، فهو يلبس للصالحين مسوح الرهبان، ويخلع أمام الفساق ثوب الحياء، ويضفى على المغرورين عبارات الإطراء، ولا تظهر هذه الصفة الذميمة إلا فى نفوس ضعيفة بين قوم أقوياء، فهى تخشى سطوتهم فتمالئهم، وتتقى بأسهم فتنافقهم، وتحاول أن تجد لهم مكانا بينهم فتعيش على الدس والخديعة، وتجعل الطرق الملتوية سبيلها إلى الوصول .

ومن هنا نتبين السبب فى ظهور المنافقين فى المدينة لافى مكة، فقد كان مجتمع المسلمين فى مكة مجتمعا مستضعفاً، يستخفون بدينهم من عدوان الكافرين، ويستخفون بأنفسهم من إيذاء المشركين، ولكن فى المدينة صار للإسلام قوة ودولة، إذ أسلم أكثر الأنصار بظهور نور هذا الدين القويم لهم، ولكن هذا النور لم يظهر لكل فرد منهم على سواء فاضطر بعضهم إلى الدخول فيما دخل فيه قومه، وإلى الظهور بما ظهر به سائر الناس، فهم فى الحقيقة لم يؤمنوا بل مالئوا بتظاهر هم، ولم يقتنعوا بل داهنوا بألفاظهم .
وسبيل الإسلام أن من أعلن إيمانه عومل بمقتضى هذا الإعلان كما يعامل سائر المسلمين، لأن قاعدة الإسلام هى الحكم بالظاهر والله يتولى السرائر ويحاسب على النيات .

وإذا كان الله ﷻ قد كره هذه الصفة الذميمة، وذم المتصفين بها، وتوعدهم بأسفل دركات النار يوم القيامة حيث قال:﴿إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا﴾، واستثنى منهم الذين تابوا عن النفاق، وأصلحوا أعمالهم، واخلصوا نياتهم لله حيث قال:﴿إلا الذين تابوا واصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتى الله المؤمنين أجرا عظيما﴾[1]،فإن هذه الصفة نفسها تتشكل فى نفوس أصحابها وتتلون كما تتلون الحرباء، فهم يرونها أحيانا فطنة وذكاء، ويسمونها أحيانا مرونة اجتماعية، وتدخل هذه الصفات على مجتمعاتنا الحديثة فتغير العلاقات وتلون أساليب المعاملات،وتجعل الرياء والمداهنة محل الصدق والإخلاص، ويكون ذلك أحيانا

(١) النساء/١٤٥ - ١٤٦.

باسم "الدبلوماسية" التى تلون بعض العلاقات على مستوى الدول والشعوب .ولقد قص ا لله علينا فى إحدى سور القرآن ما كان من علاقة بين اليهود والمنافقين فى المدينة، حيث كان أساس هذه العلاقة الغش والخداع، فلم تنفعهم معاهداتهم، و لم يصدقوا فى عهودهم فلا خير لأحد الفريقين فى الفريق الآخر:﴿ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب: لئن أخرجتم لنخرجن معكم، ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم وا لله يشهد انهم لكاذبون لئن اخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولنّ الأدبار ثم لا ينصرون﴾[1].

وهكذا دائما تكون العلاقة التى يحكمها النفاق، هى علاقة لا أساس لها كالبناء على الرمال قد يرتفع،ولكن مصيره الأنهيار.

ولقد كان من حكمة الإسلام فى معاملة المنافقين بظاهر إسلامهم مع ترك سرائرهم إلى ا لله المطلع على ما فى القلوب، أن من يلتزم شعائر الإسلام وأحكامه ولو بغير إيمان يقينى قد يرجى له الخير فيذعن قلبه لما أذعنت له جوارحه، ويطمئن فؤاده لما أعلن بلسانه، والإسلام يحث أتباعه دائما على أن يعاملوا الناس على أساس من الجانب الخيّر المتوقع منهم والمفروض فيهم .

ولكنه مع ذلك أيضاً لا يجب لهم أن ينخدعوا بالمظاهر البراقة تخفى وراءها حقائق كاذبة، ولا أن يميلوا مع ألفاظ معسولة فى طياتها حقد دفين، ولكنهم أن عاملوا الناس بما ظهر منهم، فانهم يجب أن يكونوا على حذر حتى لا يقعوا فى شراك نسجها لهم حسن نياتهم، ولقد كان عمر رضى ا لله عنه يقول :"لست بالخب، ولا الخب يخدعنى" ذلك لان المؤمن – كما قال نبى الإسلامﷺ– "كيّس فطن" والمنافق إن دارى حقيقته وراء مظهره، وان أخفى حقده وراء ابتسامته فانه مفضوح تنم عليه حركاته،وتعلن عنه رنة كلماته. يقول ا للهﷻ لنبيه ﷺ:﴿أم حسب الذين فى قلوبهم مرضٌ أن لن يخرج ا لله أضغانهم ولو

---

(١) الحشر /١١-١٢

نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول وا لله يعلم أعمالكم﴾[1].

فلقد وصفتهم الآية بأن فى قلوبهم مرضاً، وأى مرض اشد على القلب من التوائه وقد خلقه ا لله مستقيم الفطرة خالص الإتجاه ؟

كما أنهم مخدوعون، يظنون أن حقيقتهم خافية وسرهم مكنون، ولكن ا لله قادر على"أن يخرج أضغانهم" وكلمة "يخرج" هنا أبلغ فى فضحهم، وأبعد فى كشفهم فا لله يخرج أضغانهم ليطلع عليها كل ذى حس، ويراها كل ذى بصر.

فإذا لم يكشفها ا لله لعباده كشفا، و لم يخرجها أمامهم إخراجا، فإن ملامحهم الحائلة ونظراتهم الزائغة لتدل عليهم، وإنهم ليلوون ألسنتهم بالحديث كما التوت قلوبهم على حقيقة الايمان، فإذا بدت البغضاء من أفواههم، فإن ما تخفى صدورهم اكبر، ومن هنا فان المنافق يخدع نفسه قبل أن يخدع الناس، ويخفى الحقيقة عليها قبل أن يخفيها على غيره﴿ومن الناس من يقول آمنا با لله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين، يخادعون ا لله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون، فى قلوبهم مرض فزادهم ا لله مرضاً، ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون﴾[2].

فالمنافق يرى نفسه ضعيفا ويرى غيره قويا فيرائيه وينافقه، وهو بذلك يكبت معالم الإنسانية فى نفسه، ومن أبرز ملامح الإنسانية إن ا لله خلقه حرا فصنع القيد لنفسه، وخلقه عزيزا فاختار لها الذلة والخنوع .

ولو سأل أصحاب النفوس الضعيفة أنفسهم: علام يحرصون وهم ينافقون الناس ؟ وما الذى يبغونه وهم يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم لوجدوا أنهم يتاجرون فى الجبن فلا يربحون إلا الندم، ويزرعون الشك فلا يحصدون إلا الشوك، ويحرصون على حياة هى أشبه بالموت .

وإذا كان القرآن قد عرض صورا من النفاق فى الدين والتظاهر فى العقيدة، فلقد

---

(١) محمد / ٢٩- ٣٠.

(٢) البقرة / ٨-١٠ .

امتد هذا النفاق حتى شمل كثيراً من جوانب الحياة، وحتى صار سلعة بتبادلها الناس فيما بينهم على كل المستويات.

ولكن كما اتسعت المعارف وتطورت المخترعات، فقد تبارى الناس في إيجاد المعاذير لحجب الحقائق، وفي كشف المبرر للظهور في كل وسط بلون، والتحدث في كل مجتمع بلسان .

وإذا شاعت هذه الصفة في المجتمع كانت كلمة الحق مرة على النفوس، ثقيلة على الآذان، وكان أصحابها وهم يحملونها كأنهم يجاهدون الناس بالسيف والسنان، ولكنهم رغم صعوبة موقفهم، ورغم ضخامة رسالتهم فانهم كبار في عيون الناس، وأمثلة طيبة في قلوبهم، وسيرة عطرة على ألسنتهم.

فلقد كان المشركون يحاربون الرسول ولكنهم يُكْبِرونه، ويعترضون طريقه ولكنهم يهابونه، لأنه جهر بكلمه الحق من أَول يوم، ودعاهم إِلى الحق فكان ذلك مفترق الطريقين ﴿وإِذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوّوْا رءوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون. سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدى القوم الفاسقين﴾[1].

الكبر والمتكبرون في تصوير القرآن

﴿ولا تصعّر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور. واقصد في مشيك واخفض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾[2]، يحب الله المتواضعين من العباد ولا يحب المتكبرين، لأن التواضع يبرز الجانب اللين من الإنسان، فينجذب الناس إليه، ويحببهم فيه، وأما التكبر فهو التعالي عليهم، وهو الغرور الذي يعمى صاحبه من معرفة نفسه فلم يقدّرها و لم يضعها في مكانها الصحيح، ورحم الله امرءا عرف قدر نفسه .

(١) المنافقون /٥-٦ .

(٢) لقمان / ١٨-١٩ .

ويكفى فى تبغيض الكبر فى النفوس أن أول من مثّله هو إبليس، فجعله هذا الكبر يفضل نفسه على غيره، ودفعه كذلك إلى أن يتمرد على إرادة الله، فكان جزاؤه الطرد من الجنة، وكان مصيره الابتعاد عن رحمة الله، فهو يؤمر -كما تؤمر الملائكة- بالسجود لآدم، فتسجد الملائكة ويمتنع هو عن السجود، فيقول الله له:﴿ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك. قال: أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين. قال: فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين﴾[1]، فهو قد امتنع عن السجود متكبراً، فأخرجه الله من الجنة صاغراً.

والتكبر تكلف الكبر، أى أن الإنسان يرى نفسه أكبر مما هو عليه فى الواقع، ولقد ورد عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ ﴿لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر﴾ فقال رجل: أن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا .. وفعله حسنة ؟ قال : إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس . ويبين من هذا الحديث ان الكبر صفة تخالف رغبة الإنسان فى الظهور بمظهر حسن ، فإن الله لم ينهنا عن التزين والتمتع بالزينة، بل أباحها وحث عليها فقال:"يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد"، وقال:"قل من حرم زينه الله التى أخرجها لعباده والطيبات من الرزق"، ولكن الكبر هو عدم الانقياد إلى الحق، وحرمان الناس من حقوقهم، وإنكار ماهم من فضل .

وهذا تفسير للكبر بمظهره العلمى الذى يترتب عليه جزاء، وهو أن المتكبر لا يذعن للحق إذا ظهر له، بل يدفعه أو ينكره تجبرا وترفعا، أو يحتقر غيره بقول أو عمل يدل على عدم الاعتراف له بمزيته أو فضله، أو بتنقيص تلك المزية بادعاء أن ما دونها هو فوقها سواء ادعى ذلك لنفسه فرفعها على غيرها بالباطل، أو ادعاه لغيره بأن يفضل بعض الناس على بعض بقصد احتقار المفضل عليه وتنقيص قدره .

ومن ثم فان الكبر -بنـــاء على هذا التصوير- مزيج من الرذائل النفسية التقت فى نفس المتكبر فكانت صفة واحدة، ففيها الظلم الذى يدعو إلى إنكار حقوق الناس، وفيها الغرور

---

(١) الأعراف / ١٢-١٣ .

الذى يضل صاحبه، وفيها احتقار الإنسان لأخيه الإنسان وهو من أسوأ الصفات البشرية التى يحاربها الإسلام .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبيﷺ قال" بحسب امرئ من الشر أن احتقر أخاه المسلم "[1].

وإذا كان إبليس -كما ذكرنا- هوالذى رفع راية الكبر وانقاد لنفخة الغرور، فإن هذا الكبر سيظل سمة شيطانية فى ظل كل متكبر، وكما امتنع إبليس من السجود لآدم حيث أمره الله، فقد منع كثيرا من المتكبرين الانقياد للحق الذى حمله أنبياء الله .منع فرعون عن الإستجابة للحق الذى جاء به موسى، ودعاه إلى اللجاجة والانقياد للهوى حتى رأى نفسه إلها فقال لقومه:﴿ ما علمت لكم من إله غيرى، فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين، واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا انهم إلينا لا يرجعون ﴾[2]، والكبر أيضاً هوالذى منع قوم نوح من الإستجابة له، وركبهم غرورهم فقالوا له:﴿ ما نراك إلا بشرا مثلنا، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى، وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ﴾[3]، فلقد تكبروا على نوح لأنه بشر، وتكبروا على المؤمنين به فرأوهم اقل منهم، وتكبروا على الحقيقة نفسها حين جحدوا الفضل الذى يميز المؤمنين على الكافرين .

والكبر كذلك هو الذى حوّل وجوه قريش عن دعوة الحق التى جاء بها رسول اللهﷺ، وأبى عليهم غرورهم أن يضمهم والمستضعفين منهم مجلس واحد وان كان مجلس إيمان، وكان القرآن مع المستضعفين والمؤمنين على المتكبرين الكافرين ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشّى يريدون وجهه، ولاتعد عيناك عنهم تريد زينه الحياة الدنيا، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا﴾[4].

---

(١)رواه مسلم .

(٢) القصص / ٣٨-٣٩ .

(٣) هود / ٢٧ .

(٤) الكهف /٢٨ .

وليس للإنسان -إذا وعى- أن يتكبر وهو مخلوق، ناصيته بيد خالق مقتدر إن شاء حفظه وان شاء ضيعه، إن شاء أرسله وإن شاء قبضه، وإذا تبادر إلى وهم المخلوق انه كبير فليعلم إن الخالق أكبر، وأن الكبرياء -كما جاء فى الحديث القدسى- رداء الله لا ينازعه فيه أحد .

عن أبى هريرة قال: قال رسول اللهﷺ " قال الله ﷻ: العز إزاري، والكبرياء ردائي، فمن ينازعني فى واحد منها فقد عذبته"[1]. على أن هذا المخلوق الصغير وهو إنسان يصير كبيرا إذا انتسب إلى خالقه، ويصبح عزيزا حين يستمد عزته من ربه، فلله العزة ولرسوله وللمؤمنين..ولكن المنافقين لا يفقهون .

والإسلام يزكى هذا الإنسان الربانى، ويدعوه إلى الاستمساك بهذه العزة التى هى من عزة الله، وليست من باب "العزة بالإثم" .

ولكن حين تتضخم شخصية الإنسان فينسى خالقه، ويستبد به هواه فينقاد لغروره ويرى نفسه كبيرا، وماعداه صغيرا حين ذلك يوقظه القرآن من أوهامه، فيذكره بأنه شئ صغير فى ملك الله الكبير، وهذا الإنسان أن كان كبيرا فإن الله اكبر﴿ قتل الإنسان ما أكفره من أى شئ خلقه من نطفة خلقة فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء انشره﴾[2]، وحتى يطامن من غروره ولا يتمادى فى كبريائه فانه يلفته إلى اصل خلقه، والى انه من ماء مهين﴿ فلينظر الإنسان مم خلق. خلق من ماء دافق. يخرج من بين الصلب والترائب ﴾[3].

وكأن الذى يتكبر على غيره إنما يكذب على نفسه، لأنه يتجاهل أصله، ويتناسى الطينه التى خلق منها، ويدّعى انه من معدن غير معادن الناس، وهو فى الحقيقة يصنع لنفسه عالما من الوهم يقصيه عن الواقع ويبعده عن قلوب الناس فى الدنيا وعن رحمة الله

---

(١) رواه مسلم .
(٢) عبس /١٧-٢٢ .
(٣) الطارق ٥-٧ .

فى الآخرة، ولو علم انه بهذا الكبر إنه إنما يزيد النار وقوداً يوم القيامة ربما أشفق على نفسه ليدفع عنها العذاب .

عن أبى سعيد الخدرى -رضى الله عنه- عن النبىﷺ قال:" احتجت الجنة والنار، فقالت النار: فىّ الجبارون والمتكبرون، وقالت الجنة: فىّ ضعفاء الناس ومساكنهم، فقضى الله بينهما: إنك الجنة رحمتى أرحم بها من أشاء، وإنك النار عذابى أعذب بك من أشاء، ولكليكما علىّ ملؤها "[1]،ولقد صنع هذا الكبر سورا عاليا بين الأمم فافتخرت كل أمة بنفسها وتاهت على غيرها، وظهرت تيارات عرفت فى عصر من العصور بالشعوبية، وهى افتخار جنس على جنس أو عصبية شعب على شعب، فرفعت ألمانيا يوما شعارا هو "ألمانيا فوق الجميع"، وسمت إنجلترا نفسها "بريطانيا العظمى"، أو "الإمبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس"، ورأى اليهود أنهم "شعب الله المختار" وكان القرآن شمسا ساطعة يبدد هذه السحب المتكاثفة ﴿ يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم، ولانساء من نساء عسى أن يكنّ خيرا منهن، ولا تلمزوا أنفسكم ولاتنا بزوا بالألقاب بئس الإثم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ﴾[2].

كما دعا هذا الكبر الأمم إلى الافتخار فقد منعها من اللقاء وباعد بينها وبين السلام .

وكما صنع بالأمم فقد صنع بالأفراد، فالرجل يعلن رأيا ثم يكتشف الحق فى غيره، فيمنعه الكبر أن يرجع إلى الحق فيتمادى فى الباطل، ويختلف الرجلان على شئ، وتتسع بينهما شقة الخلاف حتى يظهر وجه الحق فلا ينزل أحدهما عليه، ولايتنازل أحدهما لأخيه، فيضيع بينهما الحق ولقد لعن الله قوما ضاع الحق بينهم، ولقد حث رسولﷺ على لين الجانب وعلى التواضع بقوله:" أن الله أوحى إلىّ أن تواضعوا حتى لا

---

(١) رواه مسلم .

(٢) الحجرات /١١ .

يفخر أحد على أحد، ولايبغى أحد على أحد "[١].

ولقد هدد الله المستكبرين بصرف قلوبهم عن هداه، وإغفال أفئدتهم عن ذكره، لأنهم تمادوا فى طريق الباطل بغير حق فقال: ﴿ سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق،وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها،وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا، وان يروا سبيل ألغى يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾[٢].

الإحسان إلى المسيئين من أخلاق المسلمين

﴿ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا، وقال إننى من المسلمين، ولا تستوى الحسنة ولا السيئة، ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولىّ حميم، وما يلقّاها إلا الذين صبروا وما يلقّاها ألا ذو حظ عظيم﴾ [٣].

يقولون إن المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه، ومعنى ذلك أن الإنسان لم يخلق لنفسه، وإنما خلق للناس جميعا، فهو ينفعهم وهم ينفعونه، ويحرص عليهم فيحرصون عليه، ويميل إليهم فيميلون إليه .

وهذه طبيعة الإنسان، وقال عنه علماء الإجتماع: الإنسان مدنى بطبعه، أى انه بطبيعته مشدود إلى الناس، ميّال إلى التعارف عليهم والحياة معهم، ولا يميل إلى الانطواء إلا فى ظروف نفسية قلقة، أو كان مزاجه غير طبيعى فهو لا يألف ولا يؤلف .

والرسولﷺ يقول:" إن من أحبكم إلى وأقربكم منى مجلسا يوم لقيامة أحاسنكم أخلاقا، الموطّئون أكنافا، الذين يألفون ويؤلفون ".

وهى صورة مثالية لما يجب أن يكون عليه المسلم مع الناس: فهو حسن الخلق معهم، لين الجانب فى معاملتهم، وتلك من الصفات الطبيعية التى تجلب المودة وتحافظ على الأصدقاء، وُصف بها رسول اللهﷺ فقال: له ربه﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾[٤]، وبينّ

---

(١) رواه مسلم .

(٢) الأعراف / ١٤٦.

(٣) فصلت /٣٣-٣٥ .

(٤) القلم /٤ .

له إنها من عوامل استبقاء الناس حوله والتفاقهم به﴿ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾[1] ، وجعل الرسولﷺ حسن الخلق من أعلى الصفات التى تدخل صاحبها الجنة، فعن أبى إمامة الباهلى رضى الله عنه قال: قال رسول اللهﷺ "أنا زعيم ببيت فى ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا، وببيت فى وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحا، وببيت فى أعلى الجنة لمن حسن خلقه"[2] .

"والموطئون أكنافا" هؤلاء الذين تلتقى بهم فتلتقى فيهم بنفسك، وتحس فى مخالطتهم بالأمان، وتجد فى مودتهم الإخلاص، فهم على سجيتهم النقية وعلى فطرتهم الخالصة لا يتكلفون ولا يتصنعون، ولا يجيدون من القول بقدر ما يجيدون من الصدق فى المودة، لا لأنهم تعلموا الصدق درسا فاستوعبوه، بل لأنهم فُطروا عليه طبيعة فأحبوه والتعارف والتآلف من صفات المسلمين، فإذا التقى أحدهم بأخيه عرفه وعرّفه بنفسه، وإن من السنة التى علمنا رسول الله إياها أنه إذا أحب أحدنا أخاه فليخبره بذلك رجاء استبقاء المودة فى الدنيا وابتغاء الأجر عند الله، وذلك هو الحب فى الله، ولقد قال أبو إدريس لمعاذ: إنى أحبك فى الله عزوجل. فقال له: أبشر ثم أبشر، فإنى سمعت رسول اللهﷺ يقول: ينصب لطائفة من الناس كراسّى حول العرش. يفزع الناس وهم لايفزعون، ويخاف الناس وهم لايخافون، وهم أولياء الله الذين لاخوف عليهم ولا هم يحزنون. قيل فمن هؤلاء يا رسول الله ؟ قال: هم المتحابون فى الله .

ولقد أوجد الإسلام للمسلمين مجالات كثيرة للقاء، يتعرف فيها القريب على البعيد، ويُصافح فيها الأبيض الأسود، وتذوب فيها كل القوميات والجنسيات إلا الأخوة فى الله، ومن هنا نستشعر الحكمة فى قوله تعالى:﴿يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا﴾[3]،فالحج والصلوات الجامعة والمؤتمرات من مجالات التعارف بين المسلمين .

---

[1] آل عمران : ١٥٩ .

(٢) رواه ابو داود بإسناد صحيح .

(٣)الحجرات /١٣ .

والتعارف أول مراحل المودة والإخلاص، فليس كل من تعرفه تألفه، وليس كل من تلتقى به تميل إليه، فكم من حالات يتم فيها التعارف ويتبعها التنافر، لأن الأرواح - كما قال رسول الله ﷺ -"جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها أختلف، وكم من علاقة تسمى فى عرف المجتمع الحديث "صداقــات"، ولكنها محكومة بالمنفعة وقائمه على الأهواء .

ولكن الصداقة فى عرف الإسلام هى "الحب فى الله"، أى الحب الذى لا تحدده غاية إلا رضا الله، ففيه الصدق وفيه الشفافية، وهو أقرب ما يكون إلى العبادة .

ومن أبرز ملامح هذا الحب التسامح والتغاضى عن العيوب، فإن من عداد المتقين الذين وعدهم الله بجنة عرضها السماوات والأرض".. الكاظمين الغيظ، والعافين عن الناس" .

لأن هذه الصفة إذا توفرت فى نفس الإنسان، فإنها تدل على حرصه على مودة أخيه والإبقاء على صداقته، فليس يخلو إنسان من عيب، ولا تخلو علاقة من شائبة، ومادام هذا العيب سيئة بجانب حسنات كثيرة، فان "الحسنات يذهبن السيئات"، ومادامت تلك الشائبة لا تطغى على العلاقة فتكدرها، فإنها كقشة صغيرة فى بحر كبير، و أى الناس تصفو مشاربه ؟ وكظم الغيظ درجة خلقية من درجات التقوى، لأن الغيظ يؤلم النفس ويستثيرها إلى التشفى والانتقام، فإذا كظم الإنسان هذا الغيظ فقد أمسك على ما فى نفسه من الألم وتذرع بالصبر، ولقد روى عن عائشة رضى الله عنها أن خادما لها غاظها، فقالت:" لله در التقوى ما تركت لذى غيظ شفاء " .

ثم يأتى العفو عن الناس درجة أرقى فى التقوى من كبت الغيظ، إذ هو التغاضى عن ذنب المسيئ، والتحكم فى سورة الغضب، ثم هو محو الأثر النفسى السيئ الذى يشعر به المعتدى عليه تجاه المعتدى، وتلك مرتبة فى ضبط النفس والحكم عليها قلّ من يتبوأها، لأنها سيطرة على اندفاع النفس فى الغضب، ثم غفران وصفح عن المسيئ .

فإذا أضيف إلى هذين المنزلتين-وهما عظيمتان- منزلة ثالثة هى الإحسان، كان الإنسان قد وصل إلى درجة عالية من الأدب النفسى، لأن الله يصف من كظم غيظه وعفا

عن المسيئ إليه بقوله:" ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور "[1] ، فكيف به إذا كظم الغيظ وعفا عن المسيئ ثم أضاف إلى هاتين الفضيلتين فضيلة ثالثة هى الإحسان إلى من أساء إليه .

ولقد روى أن بعض السلف غاظه غلام له فجأة غيظا شديدا، فهمّ بالانتقام منه، فقال الغلام" والكاظمين الغيظ "، فقال: كظمت غيظى، قال الغلام:" والعافين عن الناس "،قال عفوت عنك، قال "وا لله يحب المحسنين " قال: أذهب فأنت حر لوجه ا لله .

فهذه الواقعة تبين الدرجات النفسية الثلاث لمقابلة الإساءة: كظم الغيظ أولاً، والعفو ثانياً، والإحسان ثالثا ولا يطالب بهذه المراتب إلا ذوو النفوس القوية والقلوب النقية، لأن الإنسان الطبيعى بما كب فيه من بشرية يغضب للإساءة، ويثور للعدوان، ويرغب فى رد السيئة بسيئة مثلها، وهو فى ذلك ليس معتديا ولا جائرا، إنما هو بشر يعبر عن طبيعته البشرية، وقد أعطاه القرآن هذا الحق فقال له: "وجزاء سيئة سيئة مثلها"، ثم دعاه إلى المنزلتين الساميتين-العفو والإحسان- فقال له:﴿فمن عفا وأصلح فاجره على ا لله﴾ فواقعية الإنسان-كما أثبتها القرآن- أن يغضب وان يثور، وسموّه فى الإنسانية أن يعفو ويحسن، ولقد قابل النبىﷺ أشواك الطريق إلى ا لله بالصبر، وأحجار الأذى فى سبيل ا لله بالغفران، ولما عرض ا لله عليه أن ينتقم من الذين آذوه قال:"بل أرجو أن يخرج ا لله من أصلابهم من يعبد ا لله وحده لا يشرك به شيئا"[2]، وعن أبى مسعود رضى ا لله عنه قال: كأنى أنظر إلى الرسولﷺ يحكى نبيا من الأنبياء صلوات ا لله وسلامه عليهم ضربه قومه فأدموْه، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: "اللهم أغفر لقومى فإنهم لا يعلمون"[3]
ولنا فى رسول ا لله أسوة حسنة، نهتدى بها فى حياتنا، ونستضيىء بها فى تعاملنا، وكذلك كان أصحابه رضوان ا لله عليهم يتعلمون منه، فعن ابى هريرة رضى ا لله عنه أن رجلاً قال: يا رسول ا لله.إن لى قرابة أصلهم ويقطعوننى، وأحسن إليهم ويسيئون إلىّ،

---

(١) الشورى /٤٣ .

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

وأحلم عنهم ويجهلون عليّ. فقال :"لئن كنت كما قلت فكأنما تسفّهم الملّ- أى الرماد الحار- ولا يزال معك من الله تعالى ظهير عليهم مادمت على ذلك"[1]، والحسنة والسيئة لا تستويان فى نظر الإسلام، فالحسنة عنوان على اعتدال النفس وسلامة الطبع، والسيئة دليل على اعوجاج الخلق وانحراف الطبع السيئة داء والحسنة دواء، والمحسن بإحسانه يعطف القلوب النافرة، ويلين الطباع الخشنة،ويطامن من غلواء المعتدين، فإذا تحركت قلوبهم بهذا الإحسان أقلعوا عن العدوان، ونسوا موجبات العداوة﴿فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم﴾.

ولأنها درجه عالية من درجات الإنسانية، ومرتبة سامية من مراتب الغفران، فلا يتهيأ لها إلا ذوو النفوس الكبيرة التى اطمأنت فلا تغضب، وإلا ذوو الحظ العظيم الذى أعد للمتقين، هكذا دعا الله﴿وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾، وهكذا دعا الله نبيه ودعا المؤمنين به﴿خذا العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين، وإما ينزغنك من الشيطان نزع فاستعذ بالله إنه سميع عليم، إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾[2].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) الأعراف /١٩٩-٢٠١.

ملامح الأخلاق فى النفوس

الاقتصاد فى اليمين والوفاء به

﴿لايؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم، ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان، فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة، فمن لم يجدة فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيماتكم إذا حلفتم، واحفظوا إيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون﴾[1].

ولقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه لما نزل قوله تعالى:" يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم " فى القوم الذين كانوا قد حرموا على أنفسهم بعض الطيبات التى أحلها لهم ، قالوا يا رسول الله كيف نصنع بأيماننا خلقنا عليها فأنزل الله تعالى " لا يؤاخذكم الله باللغوفى إيمانكم" واللغو كما فسرته السيدة عائشة رضى الله عنها هو فى قول الرجل:"لا والله"،"بلى والله"،"وكلا والله". وما إلى ذلك، وهذا اللغو فى القول كالعبث فى الأفعال، فهو مالا يكـــون بقصد من القائل أو الفاعل، فلا يعتدّ به .

والإنسان فى الواقع لا يلجأ إلى اليمين إلا إذا أراد أن يؤكد به كلامه، وهو لا يلجأ إلى تأكيد كلامه إلا إذا كان يحس الشك من سامعه،أو كان هو نفسه يعلم ان فى كلامه ما يستوجب التأكيد، ولكن الإسلام يعلم المسلم ألا يكون ثرثارا يبعثر كلماته فى كل مناسبة وفى كل مجلس، فلا يعبأ بما قال لأنه لا يدرى ماذا قال، ومن هنا سمى اليمين الذى يصدر فى هذا المجال"لغوا"، وعلى الرغم من إن الله لا يؤاخذنا به فإنه يجعله من نافلة القول، ومن الكلام الذى لا يؤبه به وخير للمسلم أن يحاسب نفسه على الأقوال كما يحاسبها على الأفعال ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا﴾[2]، ولقد قال أحد الحكماء إن الله قد أعطانا أذنين ولسانا واحدا لنسمع ضعف ما نتكلم، ولقد

---

(١)المائدة /٨٩ .

(٢)الأسراء /٢٦ .

حذر رسول الله ﷺ من جناية اللسان على الإنسان، ومن خطورة الكلام على مصيره فى الدنيا والآخرة، فيقول:"وهل يكب الناس على مناخرهم فى النار يوم القيامة إلاحصائد ألسنتهم"؟!.

فإذا كان الإسلام بذلك قد دعا المسلمين إلى التحكم فى ألسنتهم فلا يصدر عنها إلا سديد القول، وحذرهم من اللغو ومن العبث بالأقوال والأفعال، فإنه أشد تحذيراً لهم من التواء القلوب التى تشوه الحقيقة، ومن تعقد النفوس التى تتعمد الكذب، وإذا كان لامناص للإنسان من أن يحلف فى بعض الأحوال، فليستحضر نفسا صافية وقلبا نقيا وعزما صادقا، وليحلف با لله سبحانه وتعالى فلا يحلف بغيره، فلقد روى أن النبى ﷺ سمع عمر وهو يحلف بأبيه فقال "إن ا لله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم فمن كان حالفا فليحلف با لله أوليصمت"[1]، وإن الحلف بالمخلوقات كالكعبة والملائكة والمشايخ والآباء ونحو ذلك ليس من أيمان المسلمين، بل هو منهىّعنه باتفاق أهل العلم وحديث الرسول السابق أما أيمان المسلمين فهى الحلف با لله أو ما فيه معنى الحلف با لله، ويقصد بهذا الحلف تعظيم الخالق لا تعظيم المخلوق .

ولقد روى أن يهوديا أتى النبى ﷺ فقال: إنكم تنددون (أى تتخذون لله أندادا)، وإنكم تشركون وتقولون: ما شاء ا لله وشئت، وتقولون: والكعبة فأمرهم النبى ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة، ويقول أحدهم ما شاء ا لله ثم شئت[2]، وذلك لبيان أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة ا لله، وكان ذلك من عادة بعض الناس فى الخطاب، وليس المراد أنه كان مشروعا ثم نهى عنه لقول اليهودى وإذا كان الحلف با لله عقدا بين المسلم وربه على فعل أو ترك، فمتى عقد المسلم يمينه فقد وثق عقده، وأحكم نيته وعزمه، ولابد أن يكون لهذا العقد جلاله وهيبته واحترامه، لأنه عقد مع ا لله، وهذا يشبه البيعة التى بايع فيها المؤمنون رسول ا لله على الصدق فى الجهاد، فان ا لله يقول له:

---

(١)رواه الشيخان .

(٢) رواه أحمد والنسائى وصحيحه ابن ماجه .

﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله، يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما﴾[1]،ويحث الله على الوفاء بالعهد، والمحافظة على عقد الأيمان الوثيقة فيقول:﴿وأفوا بعهد الله إذا عاهدتم، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا﴾[2] .

وإذا كان الله قد تفضل بالعفو عن أيمان اللغو فلم يجعل لها كفارة لأن عنصر النية مفقود فيها، فانه يكرهها، لأنها تعود الإنسان على التحدث بمالا يقصد، وعلى الله بمالا يحفل به .

والحساب على الأفعال متصل بالنية المصاحبة لها، ومن ثم فإن هذه النية يجب أن تكون ميالة إلى الخير نزاعة عن الشر، ويكره أن تكون معقودة على تحصيل شر أو تقويت خير، وإذا كانت كذلك فيجب أن ينقض الحالف عقدته، وأن يتحمل نتيجة هذا النقض، وهو الكفارة، ثم يكره فى النهاية أن يعمد المرء إلى نقض عقده مع الله حين لا يكون فى معصية، ويوجب الوفاء به، فإذا نقضه كانت الكفارة كذلك جزاء على نقضه .

وهذه الكفارة فى ذلك الوقت أشبه بردّ لاعتبار العقد الذى نقضه الحالف، وعودة إلى نية الوفاء من جديد، واعتراف من الحالف نفسه بأنه قد أخلّ بعهده وأن هذا الإخلال غير جائز، ومن ثم فإن الكفارة تحرك ضميره وتوقظ حواسه، فيعيش فترة نفسية يندم فيها على خطئه، ويعزم فيها على الالتزام بالوفاء فى عهوده، فلا تكون الكفارة حينئذ مقصودة لذاتها، وإنما لأثرها النفسى والأخلاقى على المطالبين بها .

ولقد تنوعت الكفارة فى اليمين، وتعددت أشكالها من إطعام للفقراء، أو كسوة للمساكين، أو تحرير للرقاب، أو صيام لبعض الأيام وذلك ليتحقق الشعور بالخطأ، وتتحقق الرغبة فى إصلاح هذا الخطأ فى أى صورة من صور الإصلاح .

ولقد قدم الله البر بالفقراء والمساكين فى كفارة اليمين على الصيام ليبين للناس أن بر بعضهم ببعض يرضيه، وأن رعاية الأغنياء للفقراء سبب فى رحمته وعفوه، وأن الصلة

---

(١) الفتح /١٠.   (٢) النحل /٩١

الإنسانية الرحيمة تمحو كثيرا من السيئات، فإذا لم يستطع الإنسان لضيق ذات يده أن يكفر عن يمينه بالإطعام أو الكسوة أو تحرير الرقاب، فليكن التكفير صياما لأيام متتالية بلحّ فيها الجوع والعطش على مشاعره، ويكون الحرمان فيها عاملا على إيجاده في حالة وجدانية يعرف فيها خطأه ويجدد فيها توبته .

على أن لسان الإنسان قد يسبق نيته فيجرى باليمين ، أو قد يسيطر عليه غضبه فيحلف على فعل شئ كانت المصلحة فى تركه ، أو على ترك شئ كانت المصلحة فى فعله ، ومن هنا يكون تحقيق المصلحة أرجح من البر باليمين ويكون الخير فى الحنث فيه ، ولا بأس حينئذ أن يحنث فى هذا اليمين ليحقق المصلحة ، وان يكفر عن حنثه ليتعود على التروى فيما يقول . وروى أحمد والشيخان أن رسول الله ﷺ قال: " إذا حلفت على يمين ، فرأيت غيرها خيراً منها ، فائت الذى هو خير ، وكفر عن يمينك " . ولقد خاطب الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ على تحريم ما أحل الله له فى واقعة معلومه ، وامتن عليه وعلى المؤمنين بأنه فرض لهم تحلة أيمانهم ، وذلك مبين فى أول سورة " التحريم " حيث يقول الله عز وجل ﴿ يأيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك ، تبتغى مرضاة أزواجك والله غفور رحيم قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم ﴾ [1] وإذن فإن اليمين قيد يقيد الإنسان نفسه . وعهد يلزمه الوفاء به ولا يسعى الإنسان إلى القيد إلا إذا كان هناك مبرر له ، ولا يربط نفسه بعهد إلا إذا قدم النية على الوفاء به .

وكثيراً ما يعمد بعض الحالفين إلى أسلوب ملتو ليدخلوا على سامعيهم فكرة معينة فهم يحلفون على شئ ويقصدون بنياتهم شيئاً آخر ، أو يحلفون بألفاظ تحتمل تأويلات متعددة ، وهم بذلك يحسبون أنهم لم يحلفوا على شئ ، أو لم يحنثوا فى يمين .

ولكن أمر اليمين مبنى على العرف العام بين الناس لا على مدلولات اللغة واصطلاحات الشرع ، ولقد روى أحمد ومسلم والترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة ، قال ، قال رسول الله ﷺ "يمينك على ما يصدقك به صاحبك " .

---

[1] التحريم /١-٢.

فليحذر الذين تسرع ألسنتهم إلى الحلف من الكذب ، وليقتصدوا فى أيمانهم حتى لا يوقعوا أنفسهم فى الحرج ، وليعلموا أن الأيمان التى تكون وسيلة إلى هضم حقوق الناس أو إلى الغش والخديعة لا يكفرها عتق ولا صدقة ولا صيام ، بل لا بد من التوبة وأداء الحقوق والإستقامه ، فلقد قال النبي ﷺ : " من حلف على يمين وهو فيها فاجر يقتطع بها مال امرئ مسلم لقى الله وهو عليه غضبان " [1]

وقال تعالى : ﴿ ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم ﴾[2]

تهذيب الكلام وتهذيب الإستماع

﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين . وما على الذين يتقون من حسابهم من شئ ولكن ذكرى لعلهم يتقون ﴾[3]

يحب الإسلام من المسلمين أن يحرصوا على فضائله ، وأن يتأدبوا بآدابه ، والمؤمن إذا تحرك لسانه كان نطقه ذكرا ، وإذا صمتت جوارحه كان صمته فكرا ، فهو لا يتكلم إلا بخير ، ولا يختار لسمعه إلا ما هو خير ، وإن ربنا عز وجل لينبه مشاعرنا إلى أهمية اختيار ما نسمعه وما نراه وما نفكر فيه فيقول : ﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾ .

وإذا كان الكلام شهوة عند كثير من الناس ، فان من صفات المؤمن أنه يتسامى على شهواته فيهذبها ويرتفع بها ويتحكم فيها، فهو يتكلم حين يكون الكلام ضرورة لا بد منها ، فيدلى مثلاً بالشهادة ولا يكتمها فإن من يكتمها فهو آثم قلبه ، والصمت حينئذ نكوص من الشهادة وتخلف عن الحق ، والساكت عن الحق شيطان أخرس .

---

[1] رواه الشيخان .

[2] سورة النحل / ٩٤ .

(٣) سورة الأنعام /٦٨، ٦٩ .

ولكن حين يكون الكلام ثرثرة لا تؤدى إلى شئ ، أو نجوى تستهدف نهش الأعراض وإيذاء الناس ، فإن الإمساك عن الكلام حينئذ واجب ، وإن الإمتناع عن سماع هذا الكلام حينئذ حكمة ، ورحم الله امرءاً قال خيراً فغنم ، أو سكت فسلم .

وإن إجتماع الناس فى مكان ما لا يخلو من متكلم وسامعين ، ولا يمكن أن يلتقى الناس على صمت الا فى مواضع خاصة ، بين بعضها رسول الله ﷺ فى قوله : " إن الله تعالى يحب الصمت عند ثلاث : عند تلاوة القرآن ، وعند الزحف ، وعند الجنازة "[١] فالصمت عند تلاوة القرآن لتدبر معانيه وتأمل أحكامه حيث يقول الله تعالى : ﴿ وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا ﴾ وعند التقاء الصفوف فى الجهاد لأن السكوت أهيب وأرهب ، وعند الجنازة لتأمل حكمة الحياة والموت، ومن ثم فقد كان الرسول اذا شهد جنازة أكثر الصمات وأكثر الحديث إلى نفسه .

ولكن الأحاديث تستهوى الناس ، والمسامرات تجذب النفوس، وتضيع أوقات كثيرة بين كلام المتكلمين واستماع المستمعين ، فلا يكون الهدف من قضاء هذه الأوقات الا التسلية وإزجاء الفراغ الطويل ، والإستمتاع بتعليقات الظرفاء من الناس ودعابات المازحين والمتفكهين .

وفى مثل هذه الجلسات يطلب من المؤمنين أن يفرزوا الخبيث من الطيب ، وأن يميزوا بين الغث والسمين ، وأن يتزودوا بملكاتهم الواعية وفطرتهم السليمة ليختاروا لأنفسهم ما ينفع ، ويختاروا لأسماعهم ما يفيد . فليس كل ما يتكلم به الناس نافعاً وإن كان ممتعاً ، وليس كل ما يسمعونه طيب الأثر وإن كان خفيف الظل .

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى قوله عز وجل :﴿ لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيما﴾ [٢] .

---

[١] للطبرانى فى الكبر

[٢] النساء : ١١٤ .

فلقد نفت الآية الخير عن كثير مما يجرى بين الناس من نجوى ، واستثنت من ذلك ما يكون من النجوى فى الخير كالأمر بالصدقة أو المعروف أو الإصلاح بين الناس ، فتلك من الأبواب الطيبة التى تطرقها الأحاديث فتؤدى إلى الآثار المحمودة بين الناس .

وليس معنى ذلك أن يلتزم المسلمون باتجاه واحد فى أحاديثهم، وأن يتقيدوا بصرامة الجد فيما يقولون فلا يعرفون البسمة ولا يطيقون المزاح ، فلقد كان رسول الله ﷺ يمزح ، ولكنه لا يقول إلا صدقا. ولكن المقصود من ذلك أن يكون الكلام فيما يفيد ، فإذا لم يكن فيما يفيد ، فلا يكن فيما يضر ، فإن الكلام فى الشئون الخاصة كالزراعة والتجارة وغيرها من الكلام المباح الذى ينظم أمور المعاملات فى الحياة .

ولقد خاطب الله المؤمنين لتنظيم أمور أحاديثهم ونجواهم بقوله : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ، وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذى اليه تحشرون ﴾[1] .وأبواب البر والتقوى كثيرة لا يحصرها الإسلام فى وجه واحد من الوجوه ، ولكنه يعددها ولا يحددها حتى يقبل الناس عليها كل بحسب استعداده ، وكل بحسب طاقته .

ولقد بين رسول الله ﷺ كثيراً من أبواب البر أمام المسلمين فى قوله فيما يرويه أبو هريرة عنه : " كل سلامى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس : تعدل بين الإثنين صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة - وتميط الأذى عن الطريق صدقة "[2] .

والعبرة المستفادة من آداب الإسلام فى الصمت والكلام أن يختار الإنسان الكلمة التى يتكلم بها ، كما يختار الوقت الذى يتكلم فيه ، وأن ينتقى الكلمة التى يسمعها ، كما يحدد المجلس الذى يجلس فيه ، فقد لا يعبأ بكلمة يقولها أو كلمة يسمعها فتجره هذه الكلمة الى عواقب وخيمة ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع النبى ﷺ يقول : " إن

---

[1] المجادلة /٩

[2] متفق عليه .

العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها ، يزل بها إلى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب "[1] أو إن العبد يتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يلقى لها بالا يرفعه الله بها درجات ، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقى بالا يهوى بها فى جهنم[2] والمتكلم الذى لا يلقى بالا إلى ما يقول من ألفاظ ، كالطاعم الذى لا يعبأ بما يلقيه فى جوفه من طعام ، فكلاهما يضر نفسه بغفلته ، وكلاهما أخضع نفسه لشهوته ، وكما طلب الإسلام من المسلمين حماية أنفسهم بتنظيم طعامهم فقال رسول الله ﷺ : " ما ملأ آدمى وعاء شراً من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه . فإن كان لا محالة فاعلاً ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه " ، ولقد طلب منهم أن يحفظوا ألسنتهم وأن ينظموا أحاديثهم لتنظم حياتهم ، فعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : " إذا أصبح ابن آدم ، فإن الأعضاء تكفر اللسان أنها تذل وتخضع له ليتقى الله فيها وكأنه القائد الذى يقودها ، فإذا أحسن القيادة فقد أدى بها إلى نتيجة حسنة ، وإذا أساء القيادة فقد عرضها لعاقبة وخيمة .

ولقد قال المثل العربى : (المرء مخبوء تحت طى لسانه) ، لأنه يظل مجهول الشخصية غير واضح النفسية ، فإذا تكلم أفصح لسانه عنه ، وشهد كلامه له أو عليه . فقد يدعو مظهر الإنسان إلى احترامه، وقد تدعو هيئته إلى مهابته ، ولكنه إذا تكلم لم يتطابق قوله مع مظهرة ، و لم تتفق كلمته مع هيئته ، وحينئذ يضيع احترامه وتسقط مهابته حيث كشفه كلامه ونم عنه لسانه . وقد يهزل الإنسان فينال بهزله من الناس دون أن يقصد الإيذاء ، وهزله حينئذ عبث يترفع الإسلام بالمسلمين عنه ويحذرهم منه ولو كان لغواً لأنه يريد أن يعودهم على الجد من جهة ، وعلى إدارة الكلمات فى نفوسهم قبل أن تدور على ألسنتهم من جهة أخرى ، فإن كان مزاحاً فليكن حميداً لا يؤذى ولا يضر .

ولقد حكت عائشة رضى الله عنها واقعة حدثت منها أمام رسول الله ﷺ

---

[1] متفق عليه .

[2] رواه البخارى .

فقالت : قلت للنبى ﷺ : حسبك من صفية كذا وكذا - تعنى أنها قصيرة - فقال : " لقد قلت كلمه لو مزجت بماء البحر لمزجته " [١] أى خالطته مخالطه يتغير بها طعمه أو ريحه لشدة تأثيرها .

وهذا الحديث من أبلغ الزواجر عن إطلاق اللسان فى عيوب الناس وإن كانت على سبيل الدعابة والمزاح ، ويكفى فى ذلك أن يسأل رسول الله ﷺ : وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فيجيب سائله : ثكلتك أمك . وهل يكب الناس فى النار على وجوههم الا حصائد ألسنتهم " ﷺ[٢] ؟!

وكما يطلب من المسلم أن يحفظ لسانه فلا ينطق الا بالخير ، ولا يتكلم الا فى النافع له وللناس فانه يطلب منه أن أن ينزه سمعه عن فحش القول وعن بذىء الكلام ، يقول الله تعالى فى وصف المؤمنين : ﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا : لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين ﴾[٣] فهم منصرفون عن اللغو من القول : لا يفعلونه لأنهم عودوا أنفسهم على الجد من القول ، ولا يسمعونه لأنهم يؤمنون بمسئوليتهم عن السمع والبصر والفؤاد . فإذا كان الكلام سخرية أو لمزا فهو أولى بالنهى وأجدر بالتحذير عن قوله وسماعه ، بل يكون المسلم إيجابياً إذا سمع هذا الكلام فمنعه ، ورد الأذى عن أخيه ، فعن أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : " من رد عن عرض أخيه ، رد الله عن وجهه النار يوم القيامة " [٤] ولقد نهانا الله عن السخرية واللمز فقال: ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ، ولا تنابزوا بالألقاب بئس الإسم الفسوق بعد الإيمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون [٥] . ﴾

---

[١] رواه أبوداوود والترمذى

[٢] رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

[٣] القصص :٥٥ .

[٤] رواه الترمزى وقال حديث حسن .

[٥] الحجرات : ١١ .

الرضا بالرزق والعفة فى الطلب

﴿ وما تنفقوا من خير فلأنفسكم ، وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله ، وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون . للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضرباً فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا ، وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم ﴾[1] .

فى طبيعة الإنسان حب المال والحرص عليه والعمل على استثماره وتنميته ، و لم ينكر عليه الإسلام هذه الرغبة ، و لم يحارب فيه هذه الطبيعة ، بل دعاه إلى السعى والعمل وعن طريق السعى والعمل يجمع المال ، وبالمال يفتح أبوابا للخير ويكون من المنفقين فى سبيل الله .

ولكن إذا كان الإسلام يدعو إلى جمع المال لإنفاقه فى وجوه البر ، فانه يدعوهم لأن يجعلوه فى أيديهم لا فى قلوبهم ، وفى داخل جيوبهم لا فى طيات نفوسهم ،أو بمعنى آخر يدعوهم إلى أن يستولوا على المال ، ولا يرضى لهم أن يستولى المال عليهم ، فالمال يخدمهم ولا يخدمونه ، ذلك لأن حب الإنسان للمال غريزة ، والغرائز ظواهر فطرية فى الإنسان فلا سبيل إلى إنكارها ولا إلى كبتها ، ولكن هناك سبلا إلى إعلائها كما يقول علماء النفس، والإنسان ينظم غريزته فتخدمه ، ويضعف أمامها فتلتهمه . ومن هنا يحث الإسلام أتباعه على أن يطلبوا الأمور بعزة الأنفس فإن الأمور تجرى بالمقادير ، فطلب المال محمود ، ولكن التكالب عليه مذموم ، ولا تقاس ثروة الإنسان فى نظر الإسلام - بكثرة المال ، ولكن بقوة النفس ونقاء الضمير ، و " ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس " [2] وغنى النفس معنى شامل لكل المعانى الإنسانية ، لأن المتصف به مطمئن الخاطر مرتاح الضمير ، لا يأخذ بصره بريق الحياة ، ولا تذهب نفسه لما فى أيدى الناس ، ولا تلعب به من الأطماع ما يؤرقه وما يرهقه ، فقد استغنى بقناعته عن الغرض ،

---

[1] البقرة /٢٧٢ - ٢٧٣

[2] متفق عليه .

واستغنى برضاه عن المتاع . عن حكيم بن حزام رضى الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ فاعطانى ، ثم سألته فأعطانى ، ثم سألته فأعطانى، ثم قال : يا حكيم . إن هذا المال خضر حلو، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بأشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان الذى يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى " قال حكيم: " فقلت : يا رسول الله والذى بعثك بالحق لا أرزأ أحداً بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا ، فكان أبوبكر رضى الله عنه يدعو حكيماً ليعطيه العطاء فيأبى أن يقبل منه شيئاً فلم يرزأ حكيم أحدا من الناس بعد النبى ﷺ حتى توفى . [1]

حكيم هذا مثل من الأمثلة البشرية الواقعية ، فهو يسأل المال فيعطاه، ثم يعرف قيمته فيتعفف عنه ويزهد فيه ، ولا يطلبه الا بعفة نفس ، ولا يأخذه الا عن طيب خاطر .

وحسب الإنسان راحه بال أن يأتيه الرزق بعزة نفس ، وأن يحوز المال براحة ضمير ، فإذا أنفقة أنفقه وهو يعلم الغاية من كسب المال والوسيلة إلى إنفاقه ، وإذا ضاع منه المال لم يحزن على شئ عزيز ضاع منه ، فشأن المال أن يأتى ويذهب ، ولا يبقى بعده الا الأحاديث والذكر ، وبهذه المشاعر المطمئنة يعيش حياته فلا يفرح لشئ أصابه حتى يبطره الفرح ، ولا يأسى على شئ فاته حتى يقتله الأسى ، فمن بات آمنا فى سربه ، معافى فى بدنه ، وعنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها .

ولأن المؤمن يعلم أن المال رزق ، وأن الرزق مكفول ، لأنه ﴿ ما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين ﴾[2] فهو يبيت قرير العين راضى النفس ، مطمئناً إلى قضاء الله ﴿ ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم الا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم إن الله لا يحب كل مختال فخور ﴾[3] وعلى هذا أيضاً تأدب صحابة رسول الله ﷺ ، تعلموا منه دروساً ، وأخذوا منه قدوة ، ووضعوا

---

[1] متفق عليه .

[2] هود : ٦ .

[3] الحديد :٢٢ - ٢٣ .

المال حيث يجب أن يوضع ، ونظروا اليه النظرة اللائقة به ، فلم يحتقروه حتى يكفوا عن طلبه ، و لم يتشبثوا حتى يؤلهوه فلقد روى عن عمر بن تغلب رضى ا لله عنه أن رسول ا لله ﷺ أتى بمال أو سبى ، فقسمه فأعطى رجالاً وترك رجالا ، فبلغه أن الذين تركوا عتبوا ، فحمد ا لله ثم أثنى عليه ، ثم قال : " أما بعد فو ا لله إنى لأعطى الرجل وأدع الرجل ، والذى أدع أحب إلى من الذى أعطى ، ولكنى إنما أعطى أقواماً لما أرى فى قلوبهم من الجزع والهلع ، وأكل أقواماً إلى ما جعل ا لله فى قلوبهم من الغنى والخير ، منهم عمرو بن تغلب " قال عمر بن تغلب : فوا لله ما احب أن لى بكلمة رسول ا لله ﷺ حمر النعم .[1]

فالرسول ﷺ هنا يعطى فلا يكون الإعطاء دليلاً على الرضا ، ويمنع فلا يكون المنع دليلاً على السخط ، ولكنه لا يريد أن يتعلق أصحابه بغاية قريبة أو عرض زائل ، إنما هم يجاهدون فى سبيل ا لله ، فيجودون بالمال ويجودون بالنفوس التى هى أغلى من المال ، لأنهم يتاجرون مع ا لله ، وا لله قد اشترى منهم أنفسهم بأن لهم الجنة ، أفيربطون غايتهم بعد ذلك بعرض قريب وأجر عاجل ؟! .

وهكذا يجب أن يكون المؤمنون فى كل زمان ومكان : ثروتهم فى القناعة التى تغنيهم عن كل شئ ، وجنتهم فى رضاهم الذى يجعل مشاعرهم برداً وسلاماً ثم هم بعد ذلك يرون الأرض ذلولاً فيمشون في مناكبها ويطلبون الرزق الحلال من ا لله فى غير إفراط ولا تفريط .

ولقد كان على بن أبى طالب يقول : الرزق رزقان : فرزق تطلبه ورزق يطلبك ، فإن لم تأته أتاك غير أن الرزق لا يأتى عفوا ، ولا يدق على الناس أبوابهم ، وإنما هو مكفول بشتى نواحى العمل والحركة والنشاط ، ومقيم حتى يأتيه طلابه ويسعى إليه خطابه .

وا لله جل شأنه يبسط الرزق لمن يشاء وينزله بقدر على من يشاء ، فلقد ورد فى

---

[1] رواه البخارى .

الحديث القدسى " إن من عبادى المؤمنين من لا يصلح إيمانه الا الغنى ، ولو أفقرته لفسد حاله ، وإن من عبادى المؤمنين ، من لا يصلح إيمانه الا الفقر ، ولو أغنيته لأفسده ذلك "

ولقد عرض القرآن لصورة من صور التعفف فى طلب المال مع شدة الحاجة إلية وجعل لها نموذجاً أولئك الذين أحصروا فى سبيل الله ، فعجزوا عن طلب الرزق لسبب خارج عن إرادتهم ، فهم :"لا يستطيعون ضرباً فى الأرض " ، ولا يجدون إلى السعى على الرزق سبيلا ، ولكن نفوسهم أكبر من أن يتعرضوا لسؤال الناس ، وعزتهم أغلى من المال الذى يعرضهم للهوان ، فيلوذون بالصمت ، وينطوون على الآلام ، حتى ليخيل إلى من لا يعرفهم أنهم أغنياء .

وذلك فى الواقع لون من الغنى النفسى يرفع صاحبه فى عيون الناس ، ويحيطه بمهابة قد يغبطه عليها كثير من ذوى الجاه والسلطان ، وهذا ما عناه الرسول ﷺ بقوله : " ليس المسكين الذى يطوف على الناس ترده اللقمه واللقمتان ، والتمرة والتمرتان ، ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ، ولا يفطن له فيتصدق عليه ، ولا يقوم فيسأل الناس "[1] وهو من الذين يصفهم القرآن بقوله " لا يسألون الناس إلحافا " أى لا يسألون الناس شيئاً مما فى أيديهم سؤال إلحاح ، وإذا كان ظاهر الآيه نفى الإلحاح فى السؤال لا مطلق السؤال ، فإن ظاهر السياق يفيد نفى السؤال مطلقاً ولقد روى أحمد وأبوداود عن رسول الله ﷺ قوله : " من سأل وعنده ما يغنيه فإنما يستكثر من جمرجهنم . قالوا : يارسول الله . وما يغنيه ؟ قال : ما يغديه أو يعشيه " . والأصل فى المؤمن أن يكون عزيز النفس ينزهها عن السؤال ما استطاع ، وينبغى أن يجعل الغنى قدراً معيناً من ماله الذى يعده للصدقات لما يعرض من الحاجات والضرورات حتى لا يلجئ إخوانه إلى السؤال .

أما أولئك الذين احترفوا السؤال وهم قادرون على العمل فلا حق لهم فى العطاء ولقد رأى عمر رضى الله عنه سائلاً يحمل جراباً فأمر أن ينظر ما فيه فإذا هو خبز ، فأمر

---

(١) رواه الشيخان .

بأن يؤخذ منه ويلقى إلى إبل الصدقة .

ولقد دعا رسول الله ﷺ أصحابه إلى ترك المسألة لأنها لا تحل الا لثلاثه : لذى فقر مدقع ، أو لذى غرم مفظع ، أو لذى دم موجع ، وقال لبعض أصحابه : ألا تبايعون رسول الله ؟ فقالوا : قد بايعناك يارسول الله . فعلام نبايعك ؟ قال:" أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، والصلوات الخمس وتسمعوا وتطيعوا الله "وأسّر كلمة خفيفة"، " ولا تسألوا الناس شيئا " ، فقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحدا يناوله إياه [١] .

غير ان الرسول ﷺ لم يكن يقصد السؤال الذى يدل على تعاون المسلمين بعضهم مع البعض الآخر ، ولكنه كان يقصد السؤال الذى يصدر عن غير حاجة ، وهو الذى يعذب به صاحبه يوم القيامه ، وقد روى أحمد ومسلم وابن ماجه عنه ﷺ : " من سأل الناس أموالهم تكثرا ، فانما يسأل جمرا ، فليستقل منه أو يستكثر " .

وخلاصة القول أن الإسلام يربى المسلمين على عزة النفس ، ويرفع هممهم حتى تعلو على المعانى الأرضية التى ارتبطت بها همم الناس ، فإذا احتاجوا أخذوا عن تعفف وغنى نفس ، وإذا أنفقوا أنفقوا عن سماحة وإيمان ، وصدق الله العظيم حيث يقول : ﴿ والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ [٢] .

---

[١] رواه مسلم .

[٢] الحشر /٩ .

أداء الأمانة من الدين

قال الله تعالى:﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى اهلها﴾[1] ،وقال:﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا﴾[2] .

الأمانة سمه فاضلة من سمات الأنسان، اودعها الله فى طبيعة البشر، فهم بها يتعاملون مع الله، وهم بها يتعاملون مع بعضهم البعض، وإذا وصف بعض المخلوقات بالامانة فهذا من باب التجاوز فى الوصف، لأن الامانة خلق، ولان الخلق لايكون إلاعن وعى بقيمته ومعرفة بمعناه، ومن هذا خوطب الانسان بالامانة وكلف بها لانه يعرفها ويعرف مفهومها ويستطيع ان يتصف بها .

والأمانة حق على المكلف يتعلق به حق غيره، فإذا اودع الانسان وديعة لدى أخيه، فانه يضمن الوفاء بها بحق الامانه المفوضة فيه، وسواء أكان المؤتمن على هذه الوديعة قد تعاقد مع المودع بعقد قولى ام لم يتعاقد، فان الامانة تقتضى ان يحفظ الانسان الوديعة وان يؤديها إلى اهلها، ولقد روى فى سبب نزوله قوله تعالى:﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى اهلها﴾ عن ابن عباس انه لما فتح رسول الله ﷺ مكة دعا عثمان بن طلحة، فلما اتاه قال: أرنى مفتاح الكعبة، فلما بسط يده اليه قام العباس فقال:يا رسول الله بأبى أنت وأمى، اجمعه لى مع السقاية، فكفّ عثمان يده، فقال رسول الله ﷺ: هات المفتاح يا عثمان، فقال: هاك أمانة الله، فقام ففتح الكعبة، ثم خرج فطاف بالبيت، ثم نزل عليه جبريل يأمره يرد المفتاح فدعا عثمان بن طلحة فأعطاه المفتاح ثم قال:﴿ان الله يامركم ان تؤدوا الامانات إلى اهلها﴾ حتى فرغ من الآية فالرسول ﷺ يضرب المثل على الأمانة فى رد الوديعة، والقرآن قد سمى الودائع "الأمانات"، لأن قبولها أمانة، والمحافظة عليها أمانة، وأداءها عند طلبها امانة فصارت الودائع بالتزام الامانات أمانات كذلك .

---

(١) النساء /٥٨ .

(٢) الأحزاب /٧٢ .

ولقد أئتمن الإنسان على كثير من الأمانات، وهو مطالب برعايتها وحفظها وأدائها إلى اصحابها.

فقد ائتمن على الدين والفرائض، فهو يحافظ على الدين ويدعو اليه الناس، ويحافظ على الفرائض ويؤديها فى اوقاتها، ولقد قال ابن عباس: ان الامانة هى الطاعة التى عرضها الله على السموات والأرض والجبال قبل ان يعرضها على آدم فلم يطقها، فقال لآدم: انى قد عرضت الأمانة على السموات والارض والجبال،فلم يطقها فهل انت آخذ بما فيها قال: يارب وما فيها قال: إن احسنت جزيت وان أسات عوقبت، فأخذها آدم فتحملها، فذلك قوله تعالى:﴿وحملها الأنسان انه كان ظلوما جهولا﴾ .

وايما كان تفسير الأمانة المقصود فى الآية، فإن الأنسان قد أئتمن على ودائع، وان امانته تقتضيه ان يصونها وان يحافظ عليها حتى يحين وقت أدائها .

والعلم أمانة فى عنق الإنسان، وقد عهد اليه ان يحفظه وان يعلمه الناس ويرشد به، وقد أخذ الله العهد العام على الناس بأداء أمانة العلم وعدم كتمانه فقال:﴿وإذ أخذ الله مثياق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولاتكتمونه﴾[1] ،ولذلك فقد عُدّ علماء اهل الكتاب خائنين بكتمان صفات النبىﷺ ، فيجب على العالم ان يؤدى امانة العلم إلى الناس كما يجب على من اودع مالا ان يرده الى صاحبه .

ولكن كيف يؤدى العلماء أمانة العلم ؟ ان طريق أداء هذه الأمانة تختلف باختلاف الزمان والمكان والظروف: فنشر العلم بتدريسه لطلابه أداء للأمانة، ونشره بجمعه بين دفتى كتاب متداول بين الناس أداء للامانة، ومراعاة الصدق والدقة فى الأجابة عن السؤال أداء للأمانة .

ولقد ائتمن الرسولﷺعلى أداء الرسالة وتبليغها إلى الناس ، كما ائتمن قبله جبريل فى أدائها اليه ، فسمى كل منهما أمينا، وقال الله لرسوله:﴿يا أيها الرسول بلغ ما

---

(١)آل عمران /١٨٧.

أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾.[١] ، وما كان للوحى أن يكتم شيئا من هذه " الأمانة " فلا يبلغها الرسول ، وما كان للرسول أن يكتم شيئا من القرآن أو يحرفه ، وإلا كان حاشاه ، قد خان الأمانة ، والله عز وجل يقول له:﴿وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذن لاتخذوك خليلا﴾. ثم يقول له :﴿إذن لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لاتجد لك علينا نصيرا﴾.[٢] والسر بين إثنين أمانة ، فمن أفضى إليك بسره فقد أئتمنك عليه ، فيجب ألا تفشيه أو تبوح به ، وقد جاء فى الحديث :﴿إذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فهو أمانة﴾.[٣]

وكثير ما يدب الخلاف بين اثنين ، فيعمد كل منهما إلى كشف سر الآخر وإخراج المكنون منه ، فكأن كلا منهما يتخلى عن وديعة صاحبه عنده ، وكأنه بذلك يتنكر للأمانة المفروضة فيه ، وحين يضيع الإنسان الأمانة التى أئتمن عليها ، فقد ضيع صفة من أبرز صفاته الإنسانية وأجلّها.

ولقد حدّث الرسولﷺعن رفع الأمانة فقال:﴿ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيصبح الناس يتبايعون ، فلا يكاد أحد يؤدى الأمانة ﴾.[٤]

والأمانة من الأمن وهى طمأنينة النفس وعدم الخوف ، ومنها قوله تعالى:﴿هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل﴾[٥] .

لأن الانسان إذا أمّن أخاه على وديعة فقد أمن عادينه وأطمأن اليه كما أطمان على وديعة عنده، وإذا سادت الأمانة بين الناس، ساد الأمان، وسادت الطمأنينة .

وإن أزمة المجتمع المعاصر فى فقدان الثقة على مستوى الأفراد، وعلى مستوى الدول: يشك الفرد فى الفرد فيحمل كلامه على محمل سيئ، ويتوجس منه الشر فى كل

---

(١) المائدة/ ٦٧.

(٢) الإسراء/ ٧٣، ٧٥.

(٣) رواه أحمد وأبو داؤد والترمذى.

(٤) من حديث طويل متفق عليه.

(٥) يوسف / ٦٤ .

تصرفاته، ويعيش الإنسان مشدود الأعصاب مرتعش المشاعر، يده على قلبه يتلمس فيه الأمن المفقود، ويده الأخرى على حبيبه، لتحسس النقود، ولو حلت الأمانة بين الناس لحل الأمن في الصدور، ولزال الخوف من النفوس، ولحلّ الحب مكان الكراهية والبغضاء في القلوب، وهذا يحتاج إلى وازع نفسى أساسه الخوف من الله، يقول الله تعالى: ﴿فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى أئتمن أمانته وليتق الله ربه﴾[1].

وتشك الدولة في جارتها من الدول الاخرى، فتتسابق كل دولة إحراز السلاح، والأسلحة في العصر الحديث قد تطورت تطورا رهيبا، ولايجنى المزيد من السلاح إلا مزيدا من الرعب والتوجس.

والأمانة تغرس الأمن محل الخوف، وتزرع الحب محل البغضاء والكراهية، ولكنها لاتصير واقعا يطمئن اليه المجتمع البشرى بمقال يكتب أو محاضرة تلقى أو قانون يفرض، ولكنها تنبثق من ضمائر الافراد إيمانا واقتناعا بان الحياة امانة الله للانسان وبأن الله حيث اختار الأنسان خليفته على الأرض، انما أودعه هذه الحياة، واستحفظه على أمنها وعلى كيانها، فمن حفظ هذه الامانة الكبيرة فقد حقق الجانب الأنساني فيه وحافظ على الرسالة التى خلق من أجلها، ومن ضيعها فقد ضيع نفسه وكيانه وهو من الخائنين.

ومن هنا كان الإنسان مؤتمنا على حياته الخاصة بينه وبين نفسه، وحياته العامة بينه وبين الناس، فصحة الإنسان وديعة اودعه الله أياها، وجعله امينا عليها، فلا يجوز له ان ياتى من الافعال ما يضر بها، ولايجوز له أن يتناول من الطعام والشراب ما يؤذيها، ولقد بين لنا الرسول ﷺ الحكمة في تنظيم الطعام حيث قال: " ماملأ آدمى وعاء شرا من بطن بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فان كان لامحالة فاعلا فثلث لطعامه، وثلث لشرابه وثلث لنفسه "، والإنسان إذا أقبل على طعام أو شراب وهو يعلم انه يؤذيه فقد خان الأمانة في صحته.

وعقل الانسان امانة وماله أمانة، فهو مكلف بحفظ عقله بالبعد عن كل ما يذهب

---

(١) البقرة/ ٢٨٣ .

به، ولذلك فان الخمر "رجس من عمل الشيطان " لانها تذهب بالعقل الذى هو وديعة الله عند كل إنسان .

وهو مكلف أيضاً بحفظ ماله، فلا ينفقه إلا فى وجوهه المشروعة، ولايبذر فى هذا الإنفاق، فان التبذير يحوله من إنفاق مشروع إلى أسراف حرام، ﴿إن المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا﴾[1] .

أما الأمانة الواجبة بين الإنسان وبين غيره من الناس فإنها تقتضى أن يحرص كل منهم على خير الآخر بوجه عام . وبيان ذلك أن يؤدى الأنسان واجب النصيحة للناس، وهذا الواجب يصدر من رغبة صادقة ونية صافية فى إصلاح أحوالهم فقد قال تعالى إخبارا عن نوح عليه السلام:"وأنصح لكم"، وعن هود عليه السلام "وانا لكم ناصح أمين" وعن جماعة المؤمنين "أنما المؤمنون اخوة"، ولقد قال رسول الله ﷺ "الدين النصيحة" قالوا:لمن قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم"[2] . هذه النصيحة أمانة، وهى أحيانا أمانة ثقيلة، لأن أداءها يتطلب نفسا عالية، ولأن قبولها يتطلب قلبا سليما، وكثيرا ما يقصر الناس فى النصيحة لما يجره عليهم من متاعب، وما تسببه لهم من عداوات وأحقاد .واقرب ما يتبادر إلى الاذهان فى أداء الأمانة هو رد الأمانات العينية التى يودعها الناس عند الآخرين، لأن ردها مقياس لأمانة الإنسان واختبار لأخلاقه، وكثيرا ماتقع الخلافات بين الناس لان أحدهم قد أودع لدى الاخر وديعة ثم راح يطلبها فلم يجدها لانها بددت أو غيرت أو انكرت، فتتغير العلاقة وتختفى الصداقة وتدب بين الناس العداوة والبغضاء، ومن هنا دعا الإسلام إلى كتابة الديون، فيكتب للدائن والمدين كاتب بالعدل، ويملى الذى عليه الحق حتى يكون اعترافاً بالدين وتوثيقا له، ولايمنع ذلك أن يذكّره الله بواجب الأمانة وصدق الاقرار حيث يقول:﴿وليتق الله ربه ولايبخس منه شيئا﴾، ثم يوثق ذلك كلّه شاهدان، وامانة الشاهدين تتمثل فى شيئين أن يقبلا الشهادة إذا ما دعيا إليها

(١) الأسراء /٢٧ .

(٢) رواه مسلم .

"ولايأب الشهداء إذا ما دعوا"، وان يكونا عادلين في أداء الشهادة ودقيقين في تحديد الدّين ﴿ذلكم اقسط عند الله، واقوم للشهادة، وادنى الاترتابوا﴾[1] .لا ينافى ذلك ان ياتمن كل انسان أخاه، وان تكون الامانة فيصلا عادلا بين المتقاضيين،فانه بالأمانة تزكو النفوس وتتقارب القلوب ويسود الوفاق بين الناس﴿فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى ائتمن امانته وليتق الله ربه ولاتكتموا الشهادة، ومن يكتمها فانه آثم قلبه والله بما تعملون عليم﴾[2] .

شكر المنعم على نعمه بالأنفاق في سبيله

﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم. يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب. وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من تذر فإن الله يعلمه وما للظالمين من أنصار. ان تبدوا الصدقات فنعما هى وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خيرلكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير﴾[3] .

ان الله يعطى الدينا لمن يحب ولمن لايحب، ولايعطى الدين إلا لمن احب، ونحسب ان من معالم إعطاء الدين للمؤمنين الذين يحبهم الله، انه اعطاهم القدرة على تصريف أمور الدنيا فى ظل الدين، وعلى صبغ الحياة التى يحيونها بالدين الذى آمنوا به. ولقد اعطى الله المال لكثير من عباده، منهم المؤمنون ومنهم الكافرون، فيهم الحكام وفيهم السفهاء .

و لم يجعل الإسلام للمال قدرة فاعلة إلا بالعقل الذى يدبر هذا المال، والغاية من تدبيره هى التى تحدد نصيبه من الخير أو الشر، فكم من ملايين تنفق فلا يزيد بها منفقها إلاقربا من النار، وكم من قروش قليلة تخرج من جيب صاحبها فتكون له ذخرا يوم القيامة

ولقد حذر الله من الشح ونسبه إلى النفس فقال ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾[4] لأن النفس إذا أصيبت بالشح فقد إنعدمت فيها معانى الخير بوجه عام

---

(١) البقرة / ٢٨٢.

(٢) البقرة / ٢٨٣.

(٣) البقرة / ٢٦٨-٢٧١ .

(٤) الحشر / ٦

ومنها البذل والسخاء ، فمن أنفق بيده وآذى بلسانه فإنه لم يوق شح نفسه و لم يكن من المفلحين ، ولقد رسم الله صورة المن الذى يبطل الصدقة فقال : ﴿ يأيها الذين أمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن با لله واليوم الأخر ، فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شئ مما كسبوا وا لله لا يهدى القوم الكافرين ﴾[1] .

وجعل الرسول ﷺ هذا الشح غير مقصور على قبض المال ومنعه عن مستحقيه ، ولكنه كذلك مصدر لكثير من الرذائل والكبائر . فقال فيما يرويه جابر رضى ا لله عنه : " اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامه ، واتقــوا الشــح فـإن الشح أهلـك مـن كـان قبلكم . حملهم على أن سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم " [2] .

وهذه الآيات التى تصدرت هذا الحديث تبين أن الشيطان يوسوس للإنسان ويخوفه من الإنفاق الذى يذهب بالمال ويقضى إلى سوء الحال ، ومن ثم فلا بد من إمساكه والحرص عليه استعدادا لما يأتى به الزمن من أحداث .

ولذا فقد كان هذا التخويف من الإنفاق مرادفا للأمر بالفحشاء ، فإن هذا الأمر عبارة عما تولده الوسوسه من الإغراء بالفحشاء ، ومنها البخل ، ولقد كان البخل عند العرب من أفحش الفحش .

ولقد جعل ا لله الإنفاق كفارة لكثير من الخطايا ، وسببا يفضل به المرء قومه ويسودهم بما يجذب إلية من قلوب الناس ، وهذا الفضل من الجاه بالحق لا بالباطل ، وقد أثر عن ابن عباس رضى ا لله عنهما أن الفضل الذى يعد ا لله به عباده مع المغفره هو ما يخلفه ا لله تعالى على المنفق من الرزق ، ويؤيدة قوله تعالى : ﴿ وما أنفقتم من شئ فهو يخلفة وهو خير الرازقين ﴾ [3] .

---

[1] البقرة /٢٦٤

[2] رواه مسلم .

[3] سبأ /٣٩

وقد ورد في الصحيحين : " ما من يوم يصبح فيه العباد الا وملكان ينزلان . يقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الأخر : اللهم أعط ممسكاً تلفا " ومعنى هذا الدعاء أن من سنه الله أن يخلف على المنفق بما يسهل له من أسباب الرزق ويرفع من شأنه في القلوب، وأن يحرم البخيل من مثل ذلك .

وإذن فوعد الله للمؤمنين يتمثل في شيئين : الأول لخير الآخرة وهو مغفرة الذنوب التي المت بهم في الدنيا ، والثاني لخير الدنيا وهو الفضل الذى يعطيه إياهم إذ يخلف عليهم ما ينفقونه بركة ورزقاً ومهابة في قلوب الناس .

وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، فمن أعطاه الله نعمة طالبه بحسن التصرف فيها ومن أحسن التصرف فيها فذلك هو الفضل العظيم .

عن أبي هريرة رضى الله عنه أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : : ذهب أهل الدثور – أى الأغنياء – بالدرجات العلى والنعيم المقيم : فقال : وما ذاك ؟ فقالوا : يصلون كما نصلى ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون ولا نتصدق ويعتقون ولا نعتق ، فقال رسول الله ﷺ : " أفلا أعلمكم شيئا تدركون به من سبقكم ، وتسبقون به من بعدكم ، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم ؟ " قالوا : بلى يا رسول الله . قال : " تسبحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاه ثلاثا وثلاثين مرة " فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا : سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله ، فقال رسول الله ﷺ ﴿ ذلك فضل الله يوتيه من يشاء ﴾ [1] .

أى أنه فضل إختص به بعضاً من خلقه ، وما دام قد اختبرهم بالمال والمال فتنة ، فلم يأخذ بريقها عيونهم ، و لم تشغل كثرتها قلوبهم ، وانما أدوا حق الله فيها ، وأنفقوها في وجوهها المشروعة ، فإن لهم الفضل وفضل الله يؤتيه من يشاء . ولا يجوز لمسلم أن يحسد غيره على نعمة أنعم الله بها عليه ، وما دامت هذه النعم من فضله فانه لا راد لفضله : ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده

---

[1] متفق عليه .

وهو العزيز الحكيم ﴾[1] .

ولكن حسد المؤمن لون من الغبطة والتنافس فى وجوه الخير ، ولا يكون فى ذلك الوقت مذموماً ، لأنه يدل على استعداد النفس للعمل الصالح وتسابقها إلى الخيرات .

عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال:" لاحسد إلافى اثنين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار"[2] ، وكلاهما توظيف لنعمه الله فيما خلقت من أجله، فتلاوة القرآن والصلاة به آناء الليل وآناء النهار إحياء للقلوب "ألابذكر الله تطمئن القلوب"، وإنفاق المال فى وجوهه المشروعة إيمان بفضل الله وشكر له على نعمته .

ولقد أخبر الله ﷻ أنه مطلع على نيات عباده فى إنفاقهم وصدقاتهم ونذورهم فقال:﴿ وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فان الله يعلمه وما للظالمين من أنصار ﴾ ، فإن الله يجازى على القليل كما يجازى على الكثير، ولأن علمه محيط بكل عمل وقصد فإنه يعطى على النية التى تدفع إلى العمل إن كانت نية صالحة، ويعاقب عليها إن كانت نيه فاسدة، وهى فى ذلك الوقت ظلم لصاحبها، إذ الظالمون فى مقام الأنفاق هم الذين ظلموا أنفسهم فلم يزكوها من البخل، و لم يطهروها من الرياء والمن والأذى، وظلموا الفقراء كذلك ماأوجبه الله لهم، وظلموا أمتهم حيث تركوا الإنفاق فى المصالح العامة فكانوا قدوة سيئة لغيرهم .

وفى هذا المجال فإنه يجب تنبيه الأغنياء إلى واجبهم نحو الفقراء، فلقد أئتمنهم الله على ثروة وضعها فى أيديهم، وائتمنهم على إخوة وضعهم فى رعايتهم وجعل لهم حقا معلوما فى مال الأغنياء، فإذا تعاون الأغنياء مع الفقراء فقد قدروا مسئوليتهم وعرفوا حق المال الذى فى أيديهم، وإذا تخلوا عليهم فقدتربصوا بانفسهم البوار فىالدنياوالعذاب فى الاخرة .

---

[1] فاطر /٢ .

(٢) متفق عليه .

و لم يجعل الإسلام كسب المال غاية فى ذاته، وإنما المال وسيلة إلى تحقيق الغاية الشريفة التى خلق الإنسان من أجلها على الارض، فالانسان مخلوق فى هذه الحياة وا لله غايته، وهو يفعل الخير يبغى به وجه ا لله، ويخرج الصدقة يطلب بها رضاه، وينفق المال فى سبيله ليشترى بها جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين .

ومن إحساس الغنى بواجبه فى ماله، ومن إحساس الفقير بحقه فى هذا المال، يتولد شعور إنسانى بالمودة والتكافل، فلا يتعالى غنى على فقير لأنه أعطى، ولايستخذى فقير أمام غنى لانه أخذ، فالمال مال ا لله، والأغنياء وكلاؤه عليه، والفقراء عياله، وكما جاء فى الحديث القدسى "فإذا بخل وكلائى على عيالى أذقتهم وبالى ولا أبالى" .

ولقد جاءت الآيات أيضاً تحث على الصدقة سرا وجهرا، فقد يجهر الانسان بصدقاته ولكنه لايبغى من وراء ذلك رياء ولا يطلب ثناء، وانما يفعل ذلك ليقتدى غيره به، وليتذكر الناس صدقاتهم فيخرجوها، وحين ذلك فإذا أبديت الصدقات تحيط بها هذه النية الصالحة "فنعماّ هى"، ولكنها إذا اختفت عن عيون الناس، وكان سرا بين الغنى والفقير أمام ا لله فهى خير، فليس كل مظهر لعمله مرائيا، ولكن كل مخف لهذا العمل فهو بعيد عن الرياء .

ولقد خص بعض المفسرين الصدقات التى يجب إخفاؤها بصدقات التطوع، لأن الفرائض كالزكاة لارياء فيها إذ أنك تخرج قدرا مفروضا وحقا معلوما ان تاخرت عن أدائه فقد قصرت، وقد يكون إبداء الفريضة إشهارا لشعيرة من شعائر الإسلام، ولو أخفيت لتبادر إلى الأوهام أنها منعت فيمنع المتوهمون كما منع الآخرون، وفى ذلك تعطيل لفريضة من فرائض ا لله .

ولأن من شأن الفرائض ان تكون عامة فلا محل للرياء فيها، لان المرائى حينئذ لايكون مؤمنا بفرضيتها .

ولأن ظهور الإسلام وقوته بإظهار شعائره وفرائضه، بل ان بعض العلماء قالوا:" إن الإظهار أفضل لمن يرجو اقتداء الناس به وان كان تطوعا " .

وايما كان الأمر فإن الإسلام يحث على الإنفاق، ويحرر المسلم من عبادة المال، ويجعل البذل والإعطاء وسيلة إلى رضاء الله عزوجل﴿فاما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى. وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى. وما يغنى عنه ماله إذا تردى. إن علينا للهدى. وان لنا للآخرة والأولى﴾ .

نعمة الصبر على البلاء

يقول الله عزوجل﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والانفس والثمرات وبشر الصابرين، الذين إذا اصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا اليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾[1] .

إن الصبر فضيلة من أسمى الفضائل الإنسانية، وهى مقياس صادق لحسن إيمان العبد وقوة صلته با لله عزوجل، ومن أجل علو منزلتها ورفعة شأنها، فقد ذكرت فى القرآن سبعين مرة، و لم تذكر فضيلة آخرى فيه بهذا المقدار .

ولقد قرن الصبر بالصلاة فى قوله تعالى:﴿واستعينو بالصبر والصلاة﴾[2] ، وفى قوله:﴿وأمر أهلك بالصبر وأصطبر عليها﴾[3] ، لأن الصلاة والصبر معا ذريعة الاستعانة على ما يلاقى المؤمنون فى طريق الحق من الشدائد، كما قرن الصبر بالحق فى قوله:﴿وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾[4] ، لأن الداعين إلى الحق لابد لهم من التذرع بالصبر الذى يمنحهم القدرة على مواصلة السير فى طريق الدعوة، وطريق الدعاة إلى الحق غالبا مفروش بالأشواك .

والصبر ملكة الثبات والاحتمال: تهون على صاحبها كل ما يلاقيه، وتربى فى نفسه ملكات الخير، فما من فضيلة إلا وهى محتاجة الى الصبر، ومتى رسخت ملكةالصبر فى نفس الإنسان سمى صاحبها "صبورا" أو "صبارا" ولاتتحقق هذه الملكة إلابعد رياضة

---

(١) البقرة/ ١٥٥-١٥٧ .

(٢) البقرة/ ٤٥ .

(٣) طه/ ١٣٢ .

(٤) العصر/ ٣ .

روحّية، وتعّود نفسى، ولذلك فقد أمر ا لله تعالى به، وإنما يكون الأمتثال لأمر ا لله بتعويد النفس على تحّمل المكاره ومواجهه الشدائد .

وعلى ذلك جرى النبىﷺ ، وأصحابه عليهم الرضوان، فقد كان الصحابة كلما أشتد عليهم الأذى، وضاقت بهم السبل، لجئوا إلى الرسولﷺ فمسح على قلوبهم الوجلة بالأمان، وأسكن فى نفوسهم الضجرة الصبر، فعن خباب بن الأرتّ قال: "شكونا إلى رسول ا للهﷺ وهو متوسد بردة فى ظل الكعبة، فقلنا: ألاتستنصرلنا ؟ ألاتدعو لنا ؟ فقال: قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض، فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار، فيوضع على رأسه فيجعله نصفين، ويمشط بأمشاط من حديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه. وا لله ليتمن ا لله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، فلا يخاف إلا ا لله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون"[1] وهذا لون رائع من الصبر وهو الصبر على الأذى فى سبيل العقيدة، وهو يحتاج إلى قوة من الإيمان عالية، ودرجة من الأرادة صلبة، ويتطلب فهما عميقا لمنزلة الصبر عن الإيمان، ولعاقبة الصبر عند ا لله، والذين يصبرون على الأذى فى سبيل ا لله إنما يتاجرون مع ا لله ﴿ألا إن سلعة ا لله غالية، ألا إن سلعة ا لله الجنة﴾.

وا لله دائما مع الصابرين، يمدهم بعونه إذا صار الصبر وصفا لازماً لهم، ويعدهم بالنصر والظفر إذا كان الصبر من أسلحتهم، ومن كان ا لله معينه وناصره فلا يغلبه شيء . وإن من سنة ا لله عزوجل أن الأعمال العظيمة لاتتم إلابالثبات لها والاستمرار عليها وهذا لايكون إلا بالصبر، فمن صبر فهو على سنة ا لله، وا لله معه يؤيده ويرعاه .

ولقد وصفت الآيات الصابرين المستحقين لبشارة ا لله بقوله﴿ الذين إذا اصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا اليه راجعون﴾، وليس المراد بهذا القول أن يتلفظوا بها كلمات على اللسان دون أن تختلط معانيها بالقلب بل المراد بهذا القول أن يعبر عن حالهم، وعن إيمانهم العميق بأنهم من ا لله و إلى ا لله، نواصيهم بيده، ومصيرهم اليه، فهو الذى بيده

(١) أخرجه البخارى وأبو داود والنسائى .

ملكوت كل شيء، ولا يفعل إلا ما سبقت به الحكمة وارتضاه النظام الإلهي.

وحين ذلك ينطلق اللسان بالكلمة يحركه إيمان بمعناها وتسليم بمغزاها، واصحاب هذا الأعتقاد والشعور هم الجديرون بالصبر إيمانا وتسليما، بحيث لا يسيطر الجزع على نفوسهم، ولاتثبط الأحزان هممهم، بل تزيدهم ثباتا ومثابرة وقوة يقين، وذلك مصداق قوله تعالى: ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله، والله ذو فضل عظيم﴾[1]

ولا ينافى الصبر والتثبيت ما يكون من حزن الإنسان عند نزول البلاء . فالحزن غير الجزع : الحزن من الرحمه التى أودعها الله فى نفوس عبادة ، ترقق مشاعرهم ، وتهذب نفوسهم ، وتعطف بعضهم على البعض ، والجزع ضعف يهز المشاعر ، ويحطم النفوس ويذهب بصلابتها أمام النوازل ، وهو الذى يحمل صاحبه على ترك الأعمال المشروعة لأجل المصيبه ، والأخذ بعادات وأعمال مذمومه ضارة ينهى عنها الشرع ويستقبحها العقل . ولقد ورد فى الصحيحين أن النبى - ﷺ - بكى عندما حضر ولده ابراهيم الموت ، فقيل له أليس قد نهيتنا عن ذلك ؟ فأخبر أنها الرحمه ، وقال : إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول الا ما يرضى ربنا ، وانا بفراقك ياإبراهيم لمحزونون "[2] .

ولقد ذكر الله البلاء ، وبشر الصابرين عليه ، وذكر الوصف الذى يستحقون به البشارة ، وختم القول ببيان الجزاء المبشر به فقال : " أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمه وأولئك هم المهتدون " .

فأما الصلوات فهى حسن رعايه الله لهم فى الدنيا بالتخفيف عن مشاعرهم وتسكين نفوسهم ، وهى إعلاء منزلتهم فى الآخرة بغفران ذنوبهم والتكفير عن سيئاتهم ،

---

(١)آل عمران / ١٧٣-١٧٤ .

(٢) رواه الشيخان من حديث أنس .

فلقد قال الرسول - ﷺ - مرة لأبي‌بكر : يا أبا بكر ألست تصاب ؟ ألست تحزن ؟ أليس تصيبك اللأواء ؟ - أى الشدة - قال : بلى . قال : فهذا بهذا " .. أى أن المصيبة التى تلم بك ، والحزن الذى يسكن قلبك ، والشدائد التى تواجهك .. كلها من موجبات رحمة الله إذا قابلها الإنسان بالصبر والرضا بقضاء الله .

وأما الرحمه فهى ما يكون لهم فى المصيبه من حسن العزاء ، وبرد الرضا والتسليم بالقضاء ، وهى رحمه يشعر بها المؤمن الصابر حين ينزل الله عليه سكينته وأمنه فيرى أن قدر الله غالب ، وأن كلمه الله نافذة ، وأن نعم الله منح ، إن شاء وهبها وأن شاء سلبها والذين يعقلون ذلك " هم المهتدون " إلى ما ينبغى عمله فى أوقات المصائب والشدائد ، إذ لا يستحوذ الجزع على نفوسهم ويذهب البلاء بالأمل فى قلوبهم ، ولا يحل الحزن محل الإيمان فى صدورهم ، فيكونون هم الفائزين بخير الدنيا والراحة فيها ، المستعدين للسعادة الآخرة بعلو النفس وتزكيتها بمكارم الأخلاق وصالح الأعمال . والمؤمن مأجور على الصبر فى الضراء كما هو مأجور على الشكر فى السراء ، لأن الصبر والشكر كليهما تعبير عن إيمان الإنسان بارادة الله وتسليم لمشيئته ، فهو يصبر عند البلاء لأن الله يريد أن يبتليه ، وهو يشكر عند النعمه لأن الله يريد أن ينعم عليه .. وهو فى كلتا الحالتين مأجور . عن أبى يحيى مهيب بن سنان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن : إن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له " (١) .

على أن من أجل مراتب الصبر وأعلاها منزله عند الله الصبر عند الموت ، وفراق الأحباب ، لأن الموت حق يمتحن الله به إيمان المؤمنين، وهو سبحانه تعالى " خلق الموت والحياه ليبلوكم أيكم أحسن عملا وإذا كان فى الموت مرارة الفراق ، ولوعه الوداع ، فإن فى الصبر عليه برد الراحة وأنس اليقين .

وسيظل الموت كلمه الله القائمه على رءوس الأحياء ، لا يستطيعون له دفعاً ،

---

(١) رواه مسلم .

ولا يجدون عنه محيصا ، وهو انتقال من دار فناء إلى دار خلـود وبقـاء ، فإذا لم يكـن مـن نزوله بد ، فليكن عند نزولـه قلـب مؤمـن بالقضـاء ونفـس خاشـعة تسـكن عنـد البـلاء ، وتسليم كامل لله الذى له ما أخذ وله ما أعطى وكل شـئ عنـده بـأجل . وهـذا التسـليم يتحول إلى سخط فى نفوس الجـازعين ، ويتحـول إلى رضـا فـى نفـوس المؤمنـين ، ولكـن كلمه الله نافذة لا يردها سخط ولا ينفعها رضا ، وان عظم الجزاء مع عظم البـلاء ، فإذا أحَب الله قوما ابتلاهم، فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط .

والمؤمن كغيره من الناس يدركه الضعـف البشـرى فيبكـى ويحـزن عنـد المواجهـه الأولى لألم الفراق ، ولكنه يعود بعد ذلك إلى ايمانه ، فيستظل بقدر الله ، ويسـلم بقضائـه ويفر من لهيب الجزع إلى جنه الرضا ، حيـث هـى السـلوى عنـد المصيبـه ، والمفـزع عنـد وقوع البلاء ، فإذا جهل الإنسان عند وقوع الصدمه فليرشده أخوه ، وإذا نسى فليذكرة ، فخير الأصحاب - كما يقول نبينـا عليـه السـلام - " مـن اذا ذكـرت الله أعـانك ، وإذا نسيته ذكرك " . ولقد روى عن أنس - رضى الله عنه - أنه قال : لما ثقل النبى ﷺ جعـل يتغشاه الكرب ، فقالت فاطمه - رضى الله عنها - : واكرب ابتاه . فقال : " ليس علـى أبيك كرب بعد اليوم " فلما مات قالت : " ياأبتاه .. أجـاب ربـا دعـاه ، ياأبتـاه .. جنـه الفردوس مأواه .. ياأبتاه إلى جبريل ننعاه .."[1] .

وما دام الصبر عند الفراق تسليما بقضاء الله وتعبيراً عن الرضا بمشيئته ، فـان الله يعوض صاحبه راحه فى الدنيا لا يحس بردهـا المتبرمون ، وأجـرا فـى الآخـرة لا ينالـه الا المتقون ، فعن أبى هريرة رضـى الله عنـه أن رسـول الله ﷺ قـال : يقـول الله تعـالى : مـا لعبدى عندى جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثـم احتبسـته الا الجنـه"[2] وان القـرآن ليرسم صورة مشرقة لجزاء المؤمنين الصابرين : الذين صبروا ابتغـاء وجـه ربهـم " فيقرنهـم بالأوفياء والمتقين والمقيمى الصلاه ، والمنفقين فى سبيل الله وهؤلاء لهم درجات العلا يـوم

---

[1] رواه البخارى .

[2] رواه البخارى

القيامه ، لأنهم صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، واستضاءوا بإيمانهم فأنار لهم حياتهم ، وحين يتحدث القرآن عن جزاء هؤلاء جميعا ، يجعل الملائكة يستقبلونهم بقولهم : سلام عليكم بما صبرتم " وكأن الصبر رأس الأعمال الصالحه وملاكها يوم القيامه ، وصدق الله العظيم حيث يقول : ﴿ أولئك لهم عقبى الدار .. جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكه يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ [١]

[١] الرعد /٢٢ - ٢٤

من الأخلاق الإجتماعية

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن إكرمكم عند الله أتقاكم﴾

(سورة الحجرات/١٣)

﴿المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه﴾

(البخارى-٤-باب) المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده .

* سئل رسول الله ﷺ:- ﴿ أى الإسلام خير؟!"قال: تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف"

(البخارى . كتاب الإيمان . باب إفشاء السلام من الإسلام.)

من قيم البناء الأسرى

الترابــــط

إن بناء الأسرة البشرية هو أجمل تعبير عن رقى الإنسـان وصلاحيتـه للإضطـلاع برسالته التى هيأه لها بما بث فى طبعه من عاطفة مشرقة ومشاعر دقيقة .

وإذا كان فى عاطفة الإنسان جانب عام يشمل الإنسانية كلهـا، ويربـط البشـرية برباط واحد، فإن فيها جانبا خاصـا ينـزع بالإنسـان إلى تحديـد نطـاق الأسـرة البشـرية ، وتخصيص بعض المشاعر والعواطف بعدد محدود من الأفراد، هذا العدد هو الأسرة ، وهـذه الأسرة هـى الترجمة لفطرة مركبة فى نفس كل إنسان ، وهى الصورة الشريفـة النقية التى ينبثق منها الأفراد، وتتكون فى ظلها الروابط.

والجانب الأول هو الجانب العام يثبته القرآن الكريم فى مثـل قولـه تعـالى﴿ يأأيهـا الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلنـاكم شعوبا وقبـائل لتعـارفوا﴾ [(١)]، فـالنداء هنـا نداء للناس جميعـا وقـد تفرعـوا مـن ذكـر واحـد وأنثـى واحـدة ، وفـى هـذا إشـارة إلى وحـدة الأسرة الإنسانية ، وشمول الرباط البشرى الذى يوحد بين أفرادهـا علـى إختـلاف جنسياتهم ومشاعرهم.

بل أن القرآن ليعدّ إنبثاق الناس من أب واحد وأم واحدة آيـة مـن الآيـات الدالـة على قدرة الله ، الداعيـة إلى طاعتـه وتقـواه فيقـول:- ﴿ يأيهـا النـاس إتقـوا ربكـم الـذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء،،﴾ [(٢)] ولقد جاء فى تفسير هذه الآيـة أن الله تعـالى قد ذكر أن أصل الخلق من أب واحـد وأم واحـدة ليعطف بعضهم على بعض ، وليرحم ضعفاءهم أقوياؤهم .

وأما الجانب الثانى وهو الجانب الخاص بتحديد نطاق الأسرة البشرية ، فقد تكفل الإسلام برعايته ممثلا ذلك فى البناء الأسرى: فبدأ بالحث على الزواج الذى هو من آيـات

---

(١) الحجرات /١٢.

(٢) النسـاء /١.

قدرة الله عز وجل ، وبين الحكمة من ذلك فجعلها فى الأنس الروحى الذى يؤلف الله تعالى به بين الزوجين. يقول الله تعالى:-﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها، وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ [1] وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال:" ان الدنيا كلها متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة"[2]، فإذا جمع الله بين إثنين فى ظل حياة زوجية صالحة، أوجب على كل منهما واجبات قبل الآخرحتى تدوم هذه الحياة وتظل سعيدة مشرقة ،فجعل المرآة راعية فى بيت زوجها ، وأوجب عليها طاعته فعن أم سلمة - رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ :" أيما إمرأة ماتت وزوجها راض عنها دخلت الجنـــة". [3] وألقى على الزوج عبء الإنفاق والرعاية والحماية ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال:- قال رسول الله ﷺ :" دينار أنفقته فى سبيل الله ، ودينار أنفقته فى رقبة ، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك.. أعظمها أجرا الذى أنفقته على أهلك"[4] فإذا نمت الأسرة بوجود الأولاد فيها ، كثرت الواجبات وتعددت الروابط ، وكان على هؤلاء الأولاد واجب البر الذى يتمثل فى صلة الرحم للجانب الرقيق الضعيف، ورسول الله ﷺ يقول:" الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذى الرحم ثنتان:صدقة وصلة"[5] وكان عليهم أيضا واجب الطاعة للوالد قادرا والبرّ به عاجزا ،والوالد كما يقول الرسول ﷺ:- أوسط أبواب الجنة فإن شئت فأضع ذلك الباب أو أحفظه".[6] .

وإذا نحن إستعرضنا صور الترابط الأسرى فى الإسلام، فإننا يمكن أن نستنتج أن بناء الأسرة الإسلامية يعتمد على دعامتين رئيسيتين:

---

(٢)الروم /٢١.

[2] أخرجه مسلم والنسائى وإبن ماجه

[3] رواه الترمذى وقال حديث حسن.

[4] رواه مسلم.

[5] رواه الترمذى وقال حديث حسن.

[6] رواه الترمذى وقال حديث حسن.

* الدعامة الأولى: دعامة نفسية تشمل السكن النفسى والمودة والرحمة المنصوص عليها فى قوله تعالى:" ﴿لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾".

*والدعامة الثانية: دعامة مادية تتمثل فى إستيفاء شروط العقد، وفى إلتزام كل من الزوجين بواجباته من نفقة ورعاية وقيام على أمور البيت وصحة الأطفال.

وإذا تأكدت الروابط النفسية بين الزوجين ، كان من الطبيعى أن تنتقل إلى الأبناء فيتعلق كل منهم بأبويه ، ويتعلق كل منهم بأخوته الذين تفرعوا جميعا من أصل واحد ، وتتحقق النعمة التى لا تخفى على المتأمل فى قوله تعالى:"﴿وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا و صهرا وكان ربك قديرا﴾.[1]

الذرية الطيبة

سيظل الإسلام عنوانا على رسم الصورة المشرفة للإنسان، وستظل تشريعاته مثلا خالدا على الحرص على سمو هذا الإنسان الذى جعله الله فى الأرض خليفة يقيم الميزان ويرتفع بقيم الإيمان.

وإذا كانت الطفولة هى المظهر الأول للإنسانية وجاءت شريعة الإسلام فعنيت بها عناية لم نجدها فى شريعة ولا حضارة سابقة ، فلقد كانت فى عنايتها هذه إنما تعنى بالصورة الأولى للإنسانية ، فأطفال اليوم هم آباء الغد وأمهاته ، وهم صانعو المستقبل وحراسه . وإننا لنستطيع أن نستشف هذه العناية السامية إبتداء من دعوة الإسلام إلى الزواج ، حيث كان النسل من أهم أهدافه، فقد جعل الإسلام البنين "زينة الحياة الدنيا" ، ولقد روى أن رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله أصبت أمرأة ذات حسن وجمال وحسب ونسب ومال إلا أنها لا تلد أفأتزوجها فنهاه ، ثم آتاه الثانية فنهاه،، ثم آتاه الثالثة فقال: تزوجوا الودود الولود فإنى مكاثربكم"[2] لأن الزواج إذا كان وسيلة من الوسائل الشرعية لتهذيب مشاعر الإنسان والإرتفاع بها عن المستوى الشهوانى ، وإلى

---

[1] الفرقان / ٥٤.

[2] رواه النسائى وأبو داود

تزكية الجانب الإنسانى فيه بإيجاد الألفة والمودة بينه وبين زوجه ، فإنـه كذلـك تعبير عـن صورة إجتماعية ناطقة بأن الإنسـان مـا خلق لنفسـه وشـهوته ، بـل خلـق ليعمـر الأرض بالذرية التى تعبد الله ، كما يعمرها بالمبادئ التـى تثبـت جدارتـه فـى خلافـة الله علـى الأرض. ولقد وجه الإسلام عنايته إلى الأطفال وهو يحث الناس على الزواج ، وضرب لهم المثل بأنبياء الله وهم يطلبون الذرية الصالحة لامطلق الذرية، فيطلب زكريا من ربـه" ذريـة طيبة". هنـالك دعـا زكريا ربـه قـال:" رب هـب لى مـن لدنـك ذريـة طيبـة إنـك سميـع الدعـاء"[1] وكذلك يطلب إبراهيم عليه السلام ذرية صالحة فيقول لربه:" رب هب لى من الصالحين، ويستجيب الله له بقوله: ﴿فبشرناه بغلام حليم﴾[2] .

ولا تكون الذرية طيبة أو صالحة إلا بعبادتها لربها وخدمتها لمجتمعها، ولايتم ذلك إلا بحسن إختيار الآباء للآمهات اللاتى يحملن الأطفـال ويتكفلـن بإرضـاعهم وحضـانتهم وتربيتهم ، وقد حث الرسول على ذلك فى الحديث الـذى ترويـه السـيدة عائشـة" تخيروا لنطفكـم فـانكحوا الأكفـاء وأنكحـوا اليهـم". [3] وتظهر آثار ألاختيار الحسن فى المستقبل ، حيث يحمل الأطفال كثيرا من الصفات الوراثية للآباء و الأمهات ، فبدلا من أن ندفع إلى الدنيا أطفالا جانحين أو مشوهى الخلق أو الخُلُـق يحرص الإسلام على صلاح المنبت لتصلح الثمار .

ولقد نظم الإسلام للأطفال كثيرا مـن الأحكـام التـى تضمـن مسـتقبلهم وتحـرس نشأتهم ، وأحاطهم بسياج من الرعاية فى تمهيد الجو السليم لـتربيتهم وصيانـة حقوقهـم ، وكفل لهم جـوا مـن الحـب الفطرى والإخـلاص الطبيعـى والمشـاعر الصادقـة ، ولا تشـع المشاعر الصادقة إلامن عواطف طبيعية مفعمة بالحنان ، هذا الحنان الـذى يعـد هبـة ربانيـة مودعة فى قلوب الآباء نحو الأبناء .

---

[1] آل عمران/٣٨.

[2] الصافات / ١٠٠.

[3] المستدرك للنيسابورى.

ولقد جاء عن عائشة رضي الله عنها أن أعرابيا جاء إلى النبي ﷺ فقال: "تقبلون الصبيان فما نقبلهم ، فقال النبي ﷺ أو أملك أن نزع الله من قلبك الرحمة ".[1] وهذه الرحمة التي يشير اليها رسول الله ﷺ هي الرحمة المنبثقة عن مشاعر إنسانية ثبت الله دعائمها فجعلها صورة مشرقة لإنسانية الإنسان كما أراده الله ، فصورها نعمة جليلة يتمتع بها الآباء والأبناء و من هنا نفهم أن الإسلام يرى الأطفال اللبنات الأولى في مجتمع الغد ، والآباء والأمهات لجيل المستقبل ، فإذا كفلت الوسائل السليمة لرعايتهم ، فقد ضمنت تكون المجتمع الصالح الذى يعُمر الدنيا بالخير وينفع الدين بالوعي والإيمان ."

تنظيم الحقوق والواجبات بين الآباء والآبناء

يقول الله عز وجل: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إ حسانا ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفّ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريما . وا خفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ، ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للآوابين غفورا ﴾ [2].

إن من أجل الصلات الإنسانية وأبعدها عمقا في النفوس ، وقداسة في القلوب ، صلة الآباء بالأبناء ، لأنها صلة تصاحب ولادة الإنسان ونشأته على الأرض ، وتمتد فتشكل الجانب الإنساني في حياته كلها، فإذا مات إنقطع عمله إلا من ثلاث ... إحداها هذه الصلة التي تبقى أثراً خالدا له حياة وله عطاء ، وهذا الأثر الباقي هو الذي يعّبر عنه رسول الله-ﷺ -بقوله:"... إذا مات ابن آدم إنقطع عمله إلا من ثلاث ... منها"أو ولد صالح يدعوله". وهذه العلاقة الطيبة التي في الإسلام بين الآباء والأبناء ، تتميز على ماعداها من العلاقات بين بقية المخلوقات ، فهي تتعدّى المنفعة المادية ، وتعلو على المصالح الضرورية ، وتكون غاية مقصودة لذاتها، وعبادة يؤكد القرآن جلالها ورفعة شأنها.. فإن الوليد يرتبط بأمه؛ لأنه يستمد حياته من حياتها ، ويستمد أمنه واستقراره من حنوها

---

(1) رواه البخاري.

(2) سورة الأسراء /٢٣ - ٢٥ .

وحنانها ، وهى ايضا ترتبط به لأنه جزء منها ودليـل عليهـا ، فـإذا ضحـت براحتهـا مـن أجل راحته ، وبسعادتها من اجل سعادته ،فهى تفعل ذلك بباعث فطرى ملهم ، ولا تحس فى ذلك بفضل ، ولا تشعر برغبة فى المن على العطاء ، وهى التى تعطـى الحيـاة . ولكـن هذا الجانب الإنسانى من العلاقة يتشكل بشكل جديد ، حيث ينمـو الرضيـع ، ويسـتغنى عن اللبن ، ثم ينمو فيستغنى عن المساعدة ، ثم ينمو أكثر فأكثر حين يستغنى عـن الأخـذ ويكون قادرا على العطاء.

وقد يستغنى كل من الوَلدَ والوالدة أحدهما عن الآخر إستغناء ماديـا، فكلاهمـا مكفول الرزق مبسوط العيش ، ولكن لأن الصلة الإنسانية ترتفع على الماديات ، وتتجاوز المصالح ، فإنها تظل حبلا ممتدا بين الطرفين ، وتظـل عقـدة وثيقـة تحكمهـا فطـرة إسـانية مغروسة فى القلوب ، ويؤكدها إحساس جميل بالواجب والإلـتزام ، وتتداخـل الواجبـات والحقوق بين الوَلدَ وأمه حتى تزول الفواصل بينهما ، وحتى يرق الخيط الرفيع الذى يفرق بينهما ، فالأم تحنو على إبنها صغيرا وتحوطه بمشاعرها كبيراً وهـذا واجبهـا الـذى إقتضتـه رسالتها ، وهو فى الوقت نفسه حقها الذى إقتضته فطرتها، وهى حين تحنو وتعطف ، فإن أحدا لايستطيع أن ينكر عليها حقها ، ولا يستطيع أن ينازعها فيه .

وحقها فى التعبير عن عاطفتها نحو إبنها بشتى الأساليب ، يلقى عليه واجبا نحوها هو الصلة التى أضفى عليها الإسلام جلالا حين سماها " صلة الرحـم" وجعـل قطعهـا مـن الإفساد فى الأرض والتخبط فى المشاعر ، وذلـك يسـتوجب لعنـة ا لله " فهـل عسـيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعـوا أرحـامكم .﴿ أولئـك الذيـن لعنهـم ا لله فـأصمهم وأعمى أبصارهم ﴾ [1] .

وإذا وصل الإنسان أمه وبَرّ بها فوصل بذلك الرحم الذى أمر ا لله بوصلـه ، فهـو بذلك يؤدى واجبا ، وهو فى الوقت نفسه يمارس حقا لا ينازعه فيه أحد ولا ينكـره عليـه إنسان .

---

[1] سورة محمد / ٢٢ - ٢٣

وإذا كانت هذه هى حقيقة العلاقة بين الولد وأمه ، فهى أيضا حقيقة العلاقة بين الوَلَدَ وأبيه ، قد تختلط بالمنفعة حين يحتاج أحدهما إلى الآخر ، وقد تشوبها المصلحة حين يكون أحدهما آخذا والآخر معطيـــــا.

ولكنها ترتفع عن ذلك المعنى المادى الضيق حين يشب الوَلَدَ فيستقل بنفسه ، وحين يستغنى الوالد عما فى حوزة ولده ، وحين ذلك تختفى شبهة الإنتفاع لتبقى شفافية الصلة ، ويبقى عمق الرابطة المتينة كما أرادها الله ، فتزداد حبا وعمقا وحرصا من كلا الجانبين ، وتمتد حتى يبر الولد والديه بعد وفاتهما.

فعن مالك بن ربيعة الساعدىّ – رضى الله عنه – قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله- ﷺ إذ جاءه رجل من بنى سلمة ، فقال : يا رسول الله هل بقى من بر أبوىّ شئ أبرهما به بعد موتهما؟ فقال:" نعم الصلاة عليهما والإستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التى لاتوصل إلا بهما، وإكرام صديقهما"[1].

وحين دعا القرآن إلى صلة الأبناء قال:﴿وبالوالدين إحسان﴾ ، وهذا يشعر أن الإحسان ملتصق بالوالدين ، وأنه لا فرق بينهما وبين المطالب بتقديم الإحسان وهو الولد.

ومعرفة الإحسان لا تحتاج إلى تعليم عميق أو فلسفة دقيقة، وإنما هو فطرة ربانية قد توجد فى الجاهل ولاتوجد فى المتعلم ، ولا يقتصر تفسير الإحسان على آداء الواجبات المادية دون بقية الواجبات ، فمن أحسن إلى والديه بتحصيل مطالبهما والإنفاق عليهما بقدر سعته ، ثم لم يلقهما بعد ذلك إلا عابسا مقطبا، أو أدى المنفعة التى يحتاجان اليها، وهو يظهر الفقر والقلة والتبرّم فإنه لايُعد محسنا ، لأن الإحسان معنى نفسى يتوفر فيه الإخلاص والتجرد وصدق النيـــة.

فإن الله -ﷻ -بعد أن وصى الأبناء بالآباء ودعا إلى حسن المعاملة بينهم ، بين أن العبرة فى ذلك بما فى نفوس الأبناء من قصد البر والإحسان والإخلاص فيه.

وجعل التقصير مع هذا مرجوّ الغفران، لأنه- حينئذ- تقصير فى الصلة المادية التى تشبه

---

(١) رواه أبـــو داود.

العجز ، وليس تقصيرا فى الجانب الإنسانى الذى يشبه العقـــوق.

فقال تعالى:﴿ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صـــالحين فإنـه كـان للأوابـين غفـــــورا﴾.

وكما أن الولد مطالب بالإحسان إلى والديه ، فإنهما أيضا مطالبان بالإحسان إليه فلا يكلفانه مالا يطيق ، ولا يدفعانه إلى مالا ينبغى ، ولا يجوران بسلطتهما علـى إرادتـه ، وهما اللذان آتاهما الله من الرحمة الفطرية ما لم يؤت سواهما.

فقد تظلم الأم ولدها فى بادرة غضب ، فتتغير عاطفتها نحوه، ويطغى فـى نفسـها سلطان استعلائها عليــــه، وقد يتحكم الوالد فى تزويج ولده بمن يكره أو يكرهــه على تطليق من يحب ، وهو تحكم فيما لايرضى به الشرع ولا تقره الفطرة ، وهو أيضا من ظلم الإستعلاء الذى يوهم الرجل أن إبنه كعبده لارأى له معه ولاإختيار له فى أمره.

فهناك لابد من تنظيم العلاقة بين الولد والوالدين ، بحيث يعرف كـل منهمـا حق الآخر فيؤديه ولا يجور عليه ، ويعرف واجبه فيتنبه إليه ولا يقصر فيه.

وإنما أشرنا إلى ذلك لأن الناس يظنون أن وصايا الديـن بحسـن الصلـة بـين الأبنـاء والآباء ، إنما هى إلقاء بالتبعة كلها على الأبناء ، وإعفاء تام من كل تبعة على الآباء ، وأنـه ليس للولد أن يخالف رأى والديه ولا هواهما ، وإن كان هو عالما وهما جاهلين بمصالحه ، مع أن الله ﷻ قال فى كتابه الكريم:﴿وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علـم فلا تطعهمـا.... ﴾ (1).

بل يجب أن نفهم أن الإحسان بالوالدين الـذى أُمِرنـا بـه هـو فـى حسـن المعاملـة الشرعية من قول وفعل فى حدود ماأمر الله به ، ولايدخل فى ذلك شئ من سلب الحريـة أو المساس بالعقيدة.

وهـذا الإحسـان تنظيـم لحقـوق الوالديـن على الأولاد ، وحقـوق الأولاد علـــى الوالدين ، وحقوق الأمة على الفريقين ، فإنه إذا ما قام الولد بأداء الحـق لوالـده، وإذا قـام

(1) ســـورة لقمان ١٥.

الوالد بأداء الواجب لإبنه ، تكوّن من ذلك أساس لبناء أسرى كامل ، والمجتمع الكبير مجموعة من الأسر الصغيرة.

وإذا كان القرآن الكريم قد وصى الأبناء بالأباء و لم يوص الآباء بالأبناء فذلك لأن الشأن فى الآباء أن يحسنوا الى أبنائهم فطرة لاتفتقر إلى توصية ولا تحتاج إلى تعليم ، أما الأبناء فقد تشغلهم الشواغل حين يستقلون بأنفسهم ويكونون هم الآخرون آباء ، وحين ذلك يذكرهم القرآن بآبائهم فى وقت هم محتاجون فيه إلى المعاونه فيقول:﴿إما يبلغنّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما ، فلا تقل لهما أفٍ ولا تنهرهما وقل لهماَ قولا كريما، وأخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقلْ ربِ إرحمهما كما ربيانى صغيراً﴾

الحقوق الإنسانية

﴿ ولاتقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا. ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشةً وساء سبيلا، ولاتقتلو النفس التى حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتلِ إنه كان منصورا﴾ .[1]

ما حافظ قانون من القوانين ، ولاشريعة من الشرائع على الإنسان وعلى حقوق الإنسان بقدر ما حافظت شريعة الإسلام ، فالإنسان فى نظر هذه الشريعة الحكيمة مخلوق كريم ، كرمه الله منذ بدء الخليقة إذ دعا الملائكة للسجود له ؛ لأنه دليل على قدرة الخالق الذى صوره من طين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه .

وكرمه إذ جعله فى الأرض خليفة ، وأجاب عن تساؤل الملائكه إِذ قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك بقولة تعالى﴿ انى أعلم مالا تعلمون ﴾ [2] وكرمه إِذ حمله فى البر والبحر ورزقه من الطيبات وفضله على كثير من مخلوقاته ، ثم ساح الإنسان فى الأرض ، وتعرض لتيارات الحياه ، وواجه مختلف

---

(١) الإسراء / ٣١-٣٣.

(٢) البقرة / ٣٠

القوانين فى مختلف النظم والحضارات ، فأتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ، وأتى عليه حين آخر فاخترع وأنشأ وعمر وكون المجتمعات ، وتقلب كثيراً بين القوة والضعف والسيطرة والخنوع فاستبد بقوته على ضعف أخيه ، وطغى بحقه ففرضه بسيطرته على الآخرين الذين ضاعت حقوقهم .

ولقد ضرب القرآن لنا مثلاً على بطش الإنسان بأخيه الإنسان واعتداء أحدهما على حق أخيه فى الحياة بجانبه ، بابنى أدم ﴿إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما و لم يتقبل من الآخر﴾ ، وفى نهاية القصة المعروفة يقول :﴿من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا﴾.(١)

وإذا كانت الآيات قد خصت بنى إسرائيل بالذكر ، فإن سياق القصة مسوق للإنسان فى كل أوان ، وإن حرمة النفس مصونة فى كل وقت ، وإن حياة الإنسان على الأرض حق له ولاينبغى منازعته فيه إلا بحق كذلك.

وإن الفرد الواحد من بنى الإنسان ليمثل النوع كله ، فمن أستحل دمه بغير حق فقد أستحل دم كل واحد ، وقد هانت عليه حياة البشر ، ومن ثم فقد كان القصاص من القاتل فى الإسلام محافظة على حياة بقية الأحياء من الناس حيث يقول الله ﷻ: ﴿ولكم فى القصاص حياةً يا أُولى الألباب لعلكم تتقون﴾.(٢)

ومعرفة قيمة الحياة الإنسانية واحترامها، والوقوف عند حدود الشريعة فى حقوقها ، يجعل الإنسان حريصا على حقوق الناس أجمعين.

فالآيات تعلمنا ما يجب من وحدة البشر ، وحرص كل إنسان على حقوق الآخرين وحرمة الفرد التى هى حرمة المجتمع ، لأن أنتهاك حرمته إنتهاك لحرمة الجميع ، والقيام بحقه قيام بحق المجتمع .

---

(١) المائدة / ٢٧-٣٢.

(٢) البقرة/ ١٧٩.

ولقد نهى القرآن عن القتل بغير حق بقوله تعالى: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم إن ا لله كان بكم رحيما﴾.[1]، وقد يكون ظاهر الآية أن النهى إنما هو عن قتل الإنسان ، لنفسه بالإنتحار ، ولكن المتبادر منها فى السياق أن المراد لايقتل بعضكم بعضا، وذلك للإشعار بتعاون الأمة وتكافلها ووحدتها ، فكأن الإنسان حين قتل غيره فأفضى ذلك إلى قتله قصاصا قد قتل نفسه ، فأرتكب بذلك جريمتين وأزهق روحين : روح المقتول بغير حق ، وروحه هو وقد ذهبت قصاصا . ولقد شددت الآيات التى صدرنا بها هذا الحديث على حرمة النفس حتى نهت عن قتل الأجنة فى بطون أمهاتها خشية الفقر، ووصفت هذا القتل بأنه :" كان خطئا كبيرا"، ثم عادت فنهت عن قتل النفس التى حرم ا لله إلا بالحق ، لأنه يفتح باب الفتنة ويؤدى إلى إتساع نطاق الجريمة .

وماذا يبقى فى الحياة من حقوق للإنسان إذا إعتدى على حياته ؟ إن هذه الحياة هى حقه الكبير ، فإذا أهدرت فقد أهدرت كل الحقوق ، و لم يبق إلا حق ميت فى رقاب الأحياء .

ولقد كان نبى الإسلام ﷺ ، وهو يخطب خطبة الوداع يقرر حقوق الإنسان فيوجزها فى حرمات تجب صيانتها وعدم الإعتداء عليهاحيث قال :﴿فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا فى شهركم هذا ، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم . ألا فلا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض ﴾.[2]

فكأن رسول ا لله ﷺ قد جعل القتل بغير وجه حق من ملامح الكفر ، وذلك تشديدا على حرمة النفس ، وتأكيدا على حق الإنسان فى الحياة . ثم تأتى بعد هذا الحق الكبير حقوق كثيرة يحافظ عليها الإسلام ويصونها لصاحبها ويحرم الإعتداء عليها.

ومنها حرمة المال الذى هو ملك لصاحبه ، فمادام قد كسبه بالحق فإنه يملكه

---

(١) النساء / ٢٩.

(٢) متفق عليه.

بالحق حيازة وتصرفا، ولقد كرر القرآن الكريم فى أكثر من آية تقرير هذا الحق للإنسان ، وتأكيد واجب الناس نحو إحترام هذا الحق ، وحين قال ا لله تعالى مثل قوله سبحانه:﴿ولاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾. أضاف الأموال إلى الجميع للتنبيه على تكافل الأمة فى حقوقها وواجباتها ومصالحها ، فكأنه يقول: إن ما لكل واحد منكم هو مال أمتكم ، فإذا إستباح أحدكم أن يأكل مال أخيه بالباطل فقد إستباح لأخيه أن يأكل ماله بالباطل كذلك ، وكما تدين تدان.

ولقد بعث رسول ا لله ﷺ معاذ بن جبل ﷺ أميرا على اليمن فكان من وصاياه له قوله :﴿.. إياك وكرائم أموالهم ، واتق دعـــوة المظلـــوم ، فإنه ليس بينها وبين ا لله حجابٌ ﴾.[1]

وتقرير حرمة الأموال على المسلمين جميعا ، وصيانة حق التصرف فى الأموال للناس جميعا وجعل هذه الأموال فى الحرمة وكأن مال الفرد هو مال المجتمع .، ذلك من القواعد التى يصبو اليها الإشتراكيون فى حياتنا المعاصرة ، ولكنهم لم يهتدوا إلى سنة عادلة فيها، إذ الإسلام يجعل ذلك كله فى ظل الدين الذى يعطف القلوب بالحب ، وهم يجعلونه فى ظل الطبقيات التى تنشر الحقد والبغضاء .

ولو التمسوه فى الإسلام لوجدوه ، فإن الإسلام يجعل مال كل فرد من أفراده مالا لأمته كلها ، ويرى كل منتسب لهذه الأمة أن مالها هو ماله ، لأنه إذا أضطر إليه ، فسيجده مذخورا له .

ومال الأمة أخيرا هو مال ا لله ، ففيه حق مقرر للفقراء والمساكين وأصحاب الحاجات مع إحترام حقوق الحيازة والملكية للأفراد ، وتلك الحقوق قد نبه الرسول ﷺ عليها ، وحذر من العدوان عليها حيث قال فيما يرويه أبو أمامه ﷺ ﴿من أقتطع حق إمرئ مسلم بيمينه فقد أوجب ا لله له النار وحرم عليه الجنة ﴾.

---

(١) متفق عليـــه .

فقال رجل:وإن كان شيئا يسيرا يا رسول الله ؟ فقال:﴿وإنْ قضيبا من أراك﴾.[1] ، ولقد جعل الرسول من حرمة المال أداء الدين لصاحبه ، حتى إن المماطلة فى آدائه لتعد من الذنوب التى لاتكفرها الشهادة فى سبيل الله ، فلقد سأله رجلٌ : ﴿أرأيت إن قتلت فى سبيل الله أتكفر عنى خطاياى؟﴾ فقال رسول اللهﷺ :﴿نعم إن قتلت وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر .. إلا الدّينْ ، فإن جبريل قال لى ذلك﴾.[2] ، فإذا تقررت حرمة النفس الإنسانية، وتقرر حق الإنسان فى ماله وملكيته ، فلقد قرر الرسول أيضا حرمة الأعراض فيما قرر فى خطبة الوداع ، ونهى القرآن فيما نهى عن قربان الفاحشة ما ظهر منها وما بطن ، وهدد الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا بعذاب أليم فى الدنيا والآخرة ودعا إلى إقامة الحد على الزانى والزانية دون مراعاة الرأفة فى دين الله ، بل دعا إلى أن يشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ، ولكنه رغم هذا التشديد فى إقامة الحد على من أستعلن جريمته ، فقد دعا إلى ستر الأ عراض والمحافظة على من أستتر بستر الله ، وقال الرسولﷺ:﴿لايستر عبد عبدا فى الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة﴾.[3] وكان من كشف هذا الستر أن يجاهر الإنسان بالذنب ويستعلن بالمعصية ، فكأنه يستبيح العرض الذى حرمه الله عليه ، وكأنه يهتك الستر الذى ستره الله به ." وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملا ، ثم يصبح وقد ستره الله عليه ، فيقول :﴿يا فلان عملت البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره ربه ، ويصبح يكشف ستر الله ﴾.[4]

وعلى وجه العموم ، فإن حقوق الإنسان فى الإسلام نابعة من أعتبار إنسانى ، والإنسان له كرامته ، وله شرفه ليضطلع بعبء الرسالة التى كلف بها ، ومن ثم فإن حقوقه تتقرر فى حدود كرامته التى أرادها الله له ، وفى ضوء شرفه الذى خلقه الله عليه ، ولقد حدد الرسول بعض الحقوق الإنسانية فى قوله :﴿لا تحاسدوا ، ولاتناجشوا ، ولا

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه مسلم.

(٣) متفق عليه .

(٤) رواه مسلم.

تباغضوا ولا تدابروا ، ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانا .. بحسب أمرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم .. كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه ﴾.[1] فإذا أجتنب الإنسان هذه الصفات فقد إحترم حقوق أخيه الإنسان ، وقد أجتنب كثيرا من الكبائر والله يقول :﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريماً﴾[2]

---

[1] رواه مسلم.

[2] النساء / ٣١.

تنظيم العلاقات الإجتماعية

الإسلام والنظام

قال تعالى :﴿أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ﴾.(١)

تصلح هذه الآيات الكريمة لنستدل بها على معان مختلفة تستدل بها على الله عز وجل ، ونستدل بها على بديع صنعه فى الكون ، ونستدل بها على وجوب التأمل فى خلقه لنصل من هذاالتأمل إليه سبحانه .

ولكننا هنا نريد أن نستدل بها على فضيلة بثها الله فيما خلق وأحكم ، وعلى المؤمنين أن يبحثوا عنها ويعرفوها ، فإذا عرفوها فيجب عليهم أن يتأسّوا بها ، لأنهم ما مأمورون أن يتخلقوا بأخلاق الله ... تلك الفضيلة هى النظام .

والنظام من أبرز المظاهر الحضارية للمجتمعات الحديثة ، لأنه يشير إلى بنيانها المتلاحم المتناسق ، وهو وإن كان مظهرا تراه العين وتحسه الجوارح ، فهو قبل ذلك حقيقة مستقرة فى النفوس ، كائنة فى الطبائع ، ثم هى منعكسة بعد ذلك على كل ما حولنا من مظاهر الحياة .

والآيات الكريمة التى ذكرناها توقظ مشاعرنا إلى بديع صنع الله ودقة إحكامه ، كما تشير إلى تنسيق مظاهر الكون وحسن نظامه فالسماء بناء محكم دقيق ، ولم تنقصه إلى جانب هذا الإحكام وهذه الدقة زينة تبرز روعته وتجلو جماله . والأرض ممتدة مترامية الأطراف ثابتة الأركان ، وفيها أيضا ما يروق العين ويبهج الخاطر ، ففيها كما قال الله عزّ وجلّ :﴿من كل زوج بهيج ﴾.

فإذا لفت القرآن أنظار الناس إلى دقة الخلق ، فهو ينبههم أيضا إلى حسن النظام ، وهو يستنثير حواسهم إلى التأثر ، وينبه مشاعرهم إلى الإقتداء .

---

(١) سورة ق / ٦-٨ .

ولقد خلق ا لله جلت قدرته الحياة كلها على أروع ما يكون النظام وأكمله ، لايختلف على ذلك أثنان ، ولايمارى فى هذه الحقيقة أنسان أيّا كان دينه وكائنا ما كان فكرة وأنتماؤه وهويته . فالأرض التى نحيا عليها بشكلها الكروى وبالدقة المحسوبة فى سرعة دورانها ، وباقى الأجرام وما تربطها من علاقة وهى فى أفلاكها تسغى وتسير بملايين الملايين من الأعداد وبمواقعها الهائلة على ملايين الملايين من الأبعاد ، مما جعل ا لله سبحانه وتعالى . وهو أعلم بما خلق . يقسم بقوله :﴿فلا أقسم بمواقع النجوم ، وأنه لقسم . لو تعلمون عظيم﴾[1]

بل حتى فى جسم الكائن الحيّ وما ينتظم به من قوانين الحركة والحياة ، وما خصص من الوظائف لكل خلية من خلاياه ، كل ذلك ينطق بالإعجاز فى هذا النظام الربانى البديع والقرآن كتاب ا لله ودستور المسلمين ، شاء سبحانه أن تأتى آياته لتقول للناس على تعاقب أجيالهم وعلى إختلاف ألسنتهم وألوانهم أنه من عند ا لله ، وكما أن آيات ا لله الكونية قد أحكمت بهذا النظام الرائع فقد جاءت آياته القرآنية صورة أخرى لهذه الدقة وهذا الأحكام .

فمن الآيات ما يحض على التفكير فى هذا النظام الربانى والتأمل فى قدرة ا لله المبدع ، وهى كثيرة منبثة فى سور القرآن ، تصف هذا النظام وتصوره لتلتفت إليه أذهان الناس ، ففى مجال الفلك :﴿والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ﴾.[2]

أليس ذلك عنوانا على النظام فى ملكوت ا لله ؟! الشمس لها مجال تسير فيه وغاية ينتهى إليها ، والقمر يتدرج فى منازل الضوء ويهبط فى منازل الشحوب ، وكأنه يحكى حياة الإنسان على الأرض . فا لله ﴿خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف

---

(١) سورة الواقعة / ٧٥-٧٦ .

(٢) يس / ٣٨-٤٠

قوةٍ ثم جعل من بعد قوةٍ ضعفاً وشيبةً﴾.[1] ومسار الشمس غير مسار القمر ، وغاية كل منهما تختلف عن غاية الآخر ، وهناك قوة قادرة حكيمة تنظم " المرور ، بينهما فلا يختل التنظيم ، ولا يرتبك المسير .﴿وكلٍ فى فلكٍ يسبحونْ ﴾.

وفى النبات يصف ا لله جلت حكمته الثمار بقوله :﴿والنخل باسقات لها نضيد ﴾ أى منظم، وتصف الآية إلتقاء النهر العذب بالبحر المالح فنقول :﴿مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخٌ لايبغيان ﴾ "فهما يلتقيان ، ولكن هناك " برزخا" يحول دون ملوحة العذب ، وعذوبة الملح ، فهما " لا يبغيان ".

ويدرك الإنسان النظام الرائع فى تنسيق جسمه ، كما يتأمل الدقة الحركية فى أجزاء هذا الجسم . بل وحين يقرأ من هذا العالم الزاخر الذى أنطوت كل خلايا الجسم عليه ، لايملك إلا أن يسجد لله المبدع سبحانه تقديرا وخشوعا وإنبهارا وهناك من الآيات الأخرى مايوحى بمدى إهتمام القرآن بالنظام ، وهى الآيات التى تشتمل على التعاليم المختلفة فى المواقف المختلفة . نجد ذلك فى تنظيم الصلاة والتخطيط لها فى وقت الحرب " ﴿ وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك ، وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ، ولتأت طائفة أخرى لم يصلّوا فليصلّوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ﴾[2] .

فالأيات تخطط لتنظيم الصلاة كما تخطط لتنظيم الحرب ، والمسلمون المحاربون فى سبيل ا لله " عيونهم مفتوحة تترقب العدو ، وقلوبهم مشغوله تطمئن بذكر ا لله والمسلم لا يدخل إلى الصلاه الا عن طريق الوضوء ، حيث يقول رسول ا لله ﷺ : " لا يقبل ا لله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ " ، فإذا قام للصلاة وقف منتظماً لأن ا لله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ".[3]

---

[1] الروم : ٥٤

[2] النساء : ١٠٢ .

[3] الصف / ٤

ووقف فى هذا الصف المستقيم لأن ا لله لا ينظر إلى الصف الأعوج ، فإذا إعوج الصف فى الصلاه ، كان على الإمـام أن يقومـه قبـل أن يبـدأ صلاتـه ، وكـأن الصـلاة لا ترتفع خالصه إلى ا لله الا من خلال صف مستقيم ومظهر منظم والمتتبع لآيات ا لله البينات يجد هذا التنظيم الربانى فيما لا يكاد يحصى من الأمثله من آيات العباد كـالصلاة والصـوم والزكـاه إلى آيـات تتنـاول العلاقـات الإجتماعيـة كالتربيـة والرضـاع والـزواج والطـلاق والميراث وغير ذلك من عديد المجالات .

ولقد إنعكس أثر هذا النظام فى قيام المسلمين بعبادتهم تطبيقـاً لما جـاء فـى هـذه الآيات ، واسترشاداً بهدى الرسول الكريم صلوات ا لله وسـلامه عليـه ، فـأنت تـرى فـى صلاة الجمعة مثلاً العديد من المسلمين وقد إحتشدوا فـى المسـجد فـى خشـوع ، مـا بـين متعلم وأمى ، وصبى وشيخ ، وما بين محب للكلام وميال إلى الصمت وقد التزموا جميعا بالهدوء والإنصات للخطيب ، فلا تكـاد تحـس بوجـود كـل هـذا الحشـد. فـإذا قـاموا إلى الصلاه تعاونوا على تنظيم صفوفهم بمحاذاة المناكب والأقدام لا يشذ عـن ذلـك صغـير أو كبير متعلم أوغير متعلم .

وليست العبادات فى الإسلام المجال الوحيد لتعليـم النظـام والإلـتزام بـه ، بـل ان المسلم مأمور بالتزام النظام فى كل أحواله ، وبأن يجعله من عاداته فى كـل أمـوره ، وبـأن يحرص حتى على زينته ومظهره . ان تأهب للذهاب إلى المسجد سمع قول ا لله عز وجـل : ﴿ يابنى أدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ [1] وإن جلس بين الناس جلس بمظهر جميـل وسمت كريم . فعن زيد بن اسلم أن عطاء بـن يسـار أخـبره أن رسـول ا لله ﷺ كـان فـى المسجد فدخل رجل ثائر الرأس واللحية فأشار رسول ا لله ﷺ بيده أن اخرج ، كأنه يعنـى اصلاح شعر راسه ولحيته ، ففعل الرجل ، ثم رجع ، فقال رسول ا لله ﷺ : " اليـس هـذا خيرا من أن يأتى أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان " ؟ ! لم يأت الاسلام اذن بمجموعـه مـن القرانيم المبهمة أو التعاليم المطاطه ، ولكنه جاء يحض علـى استشعار عظمـة ا لله والتعـرف

---

[1] الأعراف / ٣١ .

على إبداعه ، كما جاء يحض فى كل مناسبة على اتباع النظام والعمل به ، ذلك لأن كلمه النظام لا تنصرف إلى مجرد بعض الحركات العسكريه ، وانما النظام هو سر بقاء هذا الكون ، ولولاه لاصطدمت الأجرام فى أفلاكها ولاختلط العذب الفرات بالملح الأجاج ، ولشاع الدمار والفوضى فى جسم الإنسان .

ويحدثنا علماء النفس بما يسمى بانتقال أثر التدريب بمعنى أنه حين يدرب إنسان فى مجال ما ، فإن المهارة التى يكتسبها من هذا التدريب فى هذا المجال تفيده فى مجال آخر مشابه ، فهو إذا تدرب على قيادة السيارات مثلا يساعده ذلك فى تعليم قيادة الطائرة .

فما بالنا نحن معشر المسلمين ازاء تعاليم ديننا الحنيف ؟! تحض كلها على النظام ، ثم لا ينتقل ذلك إلى سلوكنا فى مجتمعاتنا أن أكثر المشكلات التى تواجهنا فى هذه المجتمعات ترجع إلى سوء النظام ، وهذه المشكلات تجابهنا فى الطرقات والمرافق العامه والمواصلات . ولسنا نحتاج فى حلها إلى قانون صارم بقدر ما نحتاج إلى وعى رشيد ، والنظام سلوك عملى صادر عن اقتناع شخصى ، فلينفع كل منا نفسه ، ويهذب كل منا سلوكه ، وليحول كل منا آيات القرآن فى الصدور ترجمة عملية بالجوارح حتى لا يصدق علينا قول ربنا عز وجل : ﴿ يأيها الذين أمنوا : لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون ﴾ .

حق الجار والوصية به

﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخورا ﴾ [1]

تحدثت هذه الآيه الكريمه عن بعض أصحاب الحقوق الذين يوصى بهم القرآن ، ويدعو إلى حسن معاملتهم ورعايتهم ، والإسلام دائما يدعو إلى حسن المعاملة ولين

(1) النساء/٣٦ .

الجانب مع الناس جميعا ، ولكن هؤلاء المذكورين فى هذه الآيه لهم حقوق بقدر مالهم من صله وقرابه بالإنسان .

فالوالدان لهما حق الطاعة والرحمة ، وذوو القربى لهم حق القرابة ، واليتامى والمساكين لهم حق العطف والحنان ، وللجار حقوق على جاره ، وقد دعا اليها الإسلام الحنيف ، ورعاها القرآن الكريم والسنه النبويه المطهرة .

والجار أشبه بعائله الإنسان ، وإذا أخلص فقد أصبح إلى الإنسان أقرب من قريبه فى النسب ، لأنه ملتصق به يعرف أحواله عن قرب ، ويسمع صوته إذا ناداه .

وقد يأنس الإنسان لجاره القريب أكثر ما يأنس لقريبه البعيد ، ويحتاج كل جار إلى جاره فيتعاونان ويتناصران أكثر مما يحتاج الأقرباء الذين تناءت بهم الديار وشط بهم المزار . والإنسان - كما يقول علماء الإجتماع - مدنى بطبعه ، لا يحب أن يعيش وحيداً ، ولا يرضى أن ينعزل بعيداً ، ولو تأملنا أمزجة الناس فى اختيار البيوت التى يسكنونها لأدركنا هذه الصفة ، فإنهم يختارون مساكنهم فى المناطق المعمورة الآهله بالسكان ، حتى وان لم يعرف بعضهم بعضا ولم يسبق بينهم لقاء ، فان الاجتماع مطلوب لذاته ، وان الأنس النفسي ليتحقق بمجرد معايشه الناس قبل أن يصطفى الإنسان منهم صديقاً ، وقبل أن يفضل بعضهم على بعض .

ولعل معنى هذا الإلف الإنسانى هو الذى أراده الرسول ﷺ بقوله عن أحب الناس اليه وأقربهم مجالس يوم القيامه " الموطئون أكنافا ، الذى يألفون ويؤلفون " .

ولقد جاء فى الأثر : خذ الجار قبل الدار ، وخذ الرفيق قبل الطريق ، لأن الجار هو الذى يسمع نداء جاره ويستطيع أن يهب لنجدته إن استغاث به ، ولأن الرفيق يهون على الإنسان مصاعب الطريق ، فيؤنسه من وحشته ، ويؤمنه من خوفه ، ويقاسمه همه إذا طال المسير.

وإذن فإن البحث عن الجار ، وطلب معاشرة الناس من ملامح الإنسانيه التى هى من الطباع المركوزة فى نفس الإنسان ، ولا تجد إنسانا ينفر من معاشرة الناس ويميل

إلى الإنطواء والعزله الا إذا كان فى ظروف غير طبيعيــه تملى عليه الوحدةوتنأى بـه عـن الناس .

فإذا أحس الإنسان أنه فى وسط اجتمـاعى ، وأن الجـيران مـن حولـه يشـاركونه المكان الذى يعيش فيه ، ويقاسمونه الحى الذى يسكنه ، فقد أصبح لكل منهم حقوق قبـل الآخر ، وقد أصبح على كل منهم واجب تجاه أخيه .

ولقد حدد رسول ا لله ﷺ حقوق الجيران ومراتبها فى حديث يرويه عنه جابر بـن عبدا لله رضى ا لله عنه حيث يقول : " الجيران ثلاثة : فجار له ثلاثة حقوق : حـق الجـوار وحق القرابه وحق الإسلام ، وجار له حقان : حق الجوار وحق الإسلام ، وجـار لـه حـق واحد : حق الجوار " .

وهذا الجار الأخير هو الذى لا يمـت إلى جـاره بصلـه الا صلـه الجـوار ، فـلا هـو قريب له ، ولا هو من أهل دينه ، ولكنه صاحب حق قبل جاره المسلم ، وهذا الحق ايضـاً حق كبير .

فلقد ثبت الأمر بالإحسان فى معامله الجار غير المسلم ، لأنه ان لم يكن أخـا فـى الدين فانه أخ فى الإنسانيه ، وان لم يتصل بجاره بصله نسب فإنه قد اتصل به بصله الجوار ولقد روى البخارى فى الأدب المفرد عن عبدا لله بن عمر رضى ا لله عنهما " أنه ذبح شاة فجعل يقول لغلامــه : أهديـت لجارنـا اليهـودى ؟ سمعـت رسـول ا لله ﷺ يقـول : مـازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه " .

وهذا يدل على أن ابن عمر رضى ا لله عنهما قد فهم من الوصايا المطلقة فى الجار أنها تشمل المسلم وغير المسلم ، ولقد جعل رسول ا لله ﷺ الإحسان إلى الجـار مـن معـالم الإيمان ، فعن أبى شريح الخزاعى رضى ا لله عنه أن النبى ﷺ قال : " من كان يؤمـن بـا لله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره ، ومن كان يؤمن با لله واليوم الأخر فليكرم ضيفه ، ومـن كان يؤمن با لله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت " [1] والحكمـه فـى الوصيـه بالجـار

---

[1] رواه مسلم بهذا اللفظ وروى البخارى بعضه .

هى التى تعرفنا سر الوصيه ومعنى الجوار : فالجار يرى جاره ويلتقى بـه ، فيشـتركان معـا فى أكثر الطريق ، ومن هنا وجب حسن المعاملة وحسن العشـرة ، لتصـير الحيـاة سـهلة ، وتصير الدار التى يسكنها الإنسان طيبة المقام .

وليس هناك تحديد لعدد الدور التى تجعل اصحابها جيرانا ، وإنمـا ذلـك راجـع إلى العرف العام فى تحديد القرب والبعد . ولقد كان الإحسان إلى الجار من عادات العـرب ، حتى كان إيقاد النار لتلمع فى الظلام ، وإطلاق الكلب لينبح فى سكون الليل من ملامـح الكرم وسرعه النجـدة فـى الصريـخ ، فلمـا جـاء الإسـلام جعـل الإحسـان إلى الجـار مـن الأخلاق التى دعا اليها المسلمين ، وأكدها فى القرآن الكريم والسنه النبويه الشريفة .

واذا تأملنا ما فعلته المدنية الحديثة فى علاقات الناس لأدركنـا أهميـه العنايـة التـى أولاها الإسلام لعلاقات الجيران .

فلقد فصلت هذه المدنية الجار عن جاره ، وأغلقت على كل منهما بابه ، وطـوت صدر كل منهما علـى همومـه الخاصـة ، فـلا يعـرف الجـار مـا عنـد جـاره ، ولا يشـارك أحدهما الآخر فى مشاعره حيث باعدت بينهما الأبواب المغلقة والأسرار المطويه .

ومن هنا لم يحرص الجار على مشاعر الجار ، فهذا المنزل يفيض بأفراحـه ، وأمامـه منزل مقابل يضج بأتراحه ، وكل منهمـا بعيـد عـن الآخـر بعواطفـه وان كـان قريبـا منـه بحدوده .

ومن مظاهر الإساءة إلى الجيران كما نراه فى هـذه الأيـام إسـاءة اسـتعمال الحريـة الشخصية بما يؤذى الصحـة أو يضـر بالمشـاعر ، والحريـة إذا تطـاولت حتـى طغـت علـى حقوق الناس كانت ضرباً من الفوضى ولونا من الإيذاء ، ولقد حـذر رسـول الله ﷺ مـن هذا الإيذاء ، فجعله ينقص درجه الإيمان ، فقال فيمـا يرويـه عنـه أبـو هريـرة : " والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن : قيل من يا رسول الله ؟ قـال: الـذى لا يـأمن جـاره بوائقـه" [1] والبوائق هي الغوائل والشرور ، وهى الصـــــور التى يقوم بها بعض الناس من إيذاء

---

[1] متفق عليه .

وإقلاق للجيران .

واذا رأينا الرسول ﷺ يوصى أباذر بالإحسان إلى الجار حتى يقول له " إذا طبخت مرقه فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك " فاننا نفهم من هذه الوصيه ان من مظاهر الإحسان إلى الجار أن نبره فنقدم اليه بعض ما نأكل ، لا لحاجته إلى الطعام ، ولكن لتأليف قلبه وكسر الحواجز النفسية التى بيننا وبينه .

فكيف بنا الآن وقد تعددت ألوان الطعام ، وكثرت أنواع الفواكه ، وتسابق الناس إلى التغالى فى المظاهر غير عابئين بما يخلفه ذلك من امتعاض العاجزين وكسر قلوب الفقراء غير القادرين وإذا كان من حقنا أن نتمتع بالنعم التى أنعم الله بها علينا ، لأن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عباده ، وإذا لم نستطع أن نجود ببعض هذه النعم على المستحقين من الجيران ، فلا أقل من أن نستخفى بها ، أو نعتدل فى الظهور أثناء استعمالها فإن خير الأصحاب عند الله تعالى خيرهم لصاحبه ، وخير الجيران عند الله تعالى خيرهم لجاره .

واذا أحسن كل جار إلى جاره تكونت مجتمعات صغيرة متحابه ، وانضمت هذه المجتمعات لتشكل المجتمع الكبير الذى يلتقى على المودة ويتعامل بالحب ، وهذا الحب هو الذى افتقدناه فضاعت من مجتمعاتنا ملامح التماسك وأواصر القربى .

وحين يعود هذا الحب المفقود تتجدد الروابط وتعود الألفة وتستقر المشاعر ، وبها نصل إلى ما انقطع فيصدق فينا وصف القرآن الكريم : ﴿ الذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ﴾ .[1]

---

(1) الرعد /٢١ .

مجتمع التواصى بالحق والصبر

يقول الله تعالى: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وألئك هم المفلحون﴾[1].

إن التناصح سمة من سمات الأمم المتماسكة، لأنه يدل على حرص الأفراد بعضهم على بعض، وهى وسيلة اتباع الحق والإقلاع عن الاخطاء، ومن القواعد المسلمة انه لاتقوم لقوم قائمة إلا إذا كان لهم جامعة تضمّهم ووحدة تجمعهم وتربط بعضهم ببعض، فيكونون بذلك أمة حية كأنها جسد واحد، يقول الرسول ﷺ :" مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر الاعضاء بالسهر والحمى "[2].

وإن مما يحفظ وحدة الامة ويبقى على تماسكها كلمة الحق يقولها من يدركها لمن غفل عنها، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهما يحتاجان إلى قوة النفس وشجاعة القلب والضمير، لأنه كثيرا ما يأمر الناس بالمعروف فيواجه بالسخرية، وينهى عن المنكر فيواجه بالاستنكار والإيذاء، ولقد كان من وصايا لقمان لأبنه:" يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر وأصبر على ما أصابك أن ذلك لمن عزم الأمور "[3]، ولقد جاء الحث بالصبر على الأذى بعد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، لأنهما يتطلبان الصبر على التبليغ والصبر على الأذى بعد التبليغ، كذلك كان أنبياء الله: ما جاء أحد منهم بكلمة الحق إلا أوذى، وما نهى عن رذيله فاشية فى قومه إلا اضطهد، وكذلك كان المصلحون الذين ساروا على دروب الأنبياء: دعوا بالحسنى فقوبلوا بالعنف، وقالوا كلمة الحق فحوربوا بالباطل، لأن كلمة الحق كما تحتاج إلى نفس عالية تبلّغها، فهى تحتاج إلى نفس عالية لتسعها وتتقبلها، عن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:"ما من

---

(١) آل عمران / ١٠٤.

(٢) رواه احمد ومسلم.

(٣) لقمان /١٧ .

نبي بعثه ا لله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم أنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون مالا يفعلون، ويفعلون مالا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل"[1].

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سياج يحفظ الجماعة ويحمي وحدتها، وهو برهان على صلاح الأمة واستعدادها إلى الخير، حيث يكون فيه الصالحون الذين ينصحون، ويكون فيها الصالحون الذين يستمعون النصح، ولقد قص ا لله علينا شيئا من أخبار الأمم السالفة لنعتبر بها فقال:﴿لعن الذين كفروا من بني أسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون﴾[2] على انه يراد بالمعروف ما عرفته العقول والطباع السليمة، ويراد بالمنكر ما أنكرته العقول والطباع السليمة، ولايلزم لمعرفه ذلك ان يتعلم الانسان كثيرا من الفلسفات أو يقرأ كثيرا من الكتب، فان الحلال كما يقول رسول ا لله ﷺ بيّن والحرام بيّن، والأثم ماحاك في الصدور وخشيت ان يطلع عليه الناس .

ولكن فضيلة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر تحتاج-كما قلنا- إلى فطرة صافية تعرف المعروف فتتبعه، وتنكر المنكر فتتجنبه، وتحتاج إلى قلب جرىء يجهر بالحق ويتصدى للباطل، فلقد عدّ الرسول ﷺ الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر من سادة الشهداء حيث قال:"سيد الشهداء حمزة رضى ا لله عنه ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله"[3] كما تحتاج هذه الفضيلة إلى نفس قوية تصبر على المكروه وتتحمل الأذى في سبيل ا لله.

---

(١)المائدة /٧٨-٧٩ .

(٢) المائدة /٧٨-٧٩ .

(٣) روى مسلم وابو داود والترمذي وقال حديث حسن .

وذلك من ملامح المجتمعات الصالحة، فهى تملك طهـارة الضمـير لتصلـح نفسـها، وتمتلك قوة النفس لتصلح غيرها، وتقول كلمة الحق فى المقـام الـذى يجـب ان تقـال فيـه، كما يتسع صدرها لكلمة الحق يهديها غيرها اليها .

وماضرّ المجتمعات الحديثة إلا المداراة والمجاراة، فتشيع رذيله فى مجتمع حتـى تصـير عرفا عاما، فتتغاضى بقية المجتمعات عنه، باسم المجاملة تارة وباسم الحياد تارة آخرى، وقـد لاتتوقف هذه المجاملة عند السكوت أو المداراة، بل قـد تصـل إلى المجـاراة حيـث تسـتهوى هذه الرذيلة مجتمعا آخر فيقلدها وتشيع فيه وتبـدو فـى تصرفـات أبنائـه، والرذائـل سـريعة الأنتشار كما تنتشر النار فى الهشيم، ولكنها داء وبيل يسكن جسوم الأمـم، فيظـل ينخـر فيها من الداخل حتى يحولها إلى هيكل متها ومن الخارج.. وذلك هو الهلاك المبين .

عن أبن مسعود رضى ا لله عنه قال:قال رسـول ا للهﷺ "ان أول مـا دخـل النقـص على بنى أسرلئيل انه كان الرجل يلقى الرجل فيقول: "اتق ا لله ودع ما تصنع فانـه لايحـل لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك ان يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلمـا فعلوا ذلك ضرب ا لله قلوبهم بعضهم ببعض" ثم قال:"لعن الذين كفروا من بنـى أسـرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكـانوا يعتـدون، كـانوا لايتنـاهون عـن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون.. ثم قـال"كـلا وا لله لتـأمرن بـالمعروف ولتنهـون عـن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا ، ولتقصرنه علـى الحـق قصـرا، أو ليضربن ا لله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم"[1] .

ولقد بدأت الآية بالدعوة إلى الخير وهى تهيئة النفوس للصـلاح العـام ، وتهذيـب الفطر لتنجذب إلى المعروف وتنفر من المنكر ، والخير كلمة جامعـة لكـل المعـانى الصالحـة ولقد اتجه بعض المفكرين إلى ان المراد بالخير هو الاسلام إذ الاسـلام ديـن ا لله علـى لسـان جميع الانبياء لجميع الامم ، وهو الاخلاص لله تعالى والرجوع عن الهوى الى حكم ا لله وقد سمانا ا لله الأمة الوسط ، وخير الامور الوسط ، وذلك لندعو الناس إلى الحق

(١) رواه أبو داود والترمذى وقال حديث حسن .

الذى عرفناه ، ونأخذهم إلى الخير الذى ائتمننا الله عليه : ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾[1] وجعلنا كذلك ﴿خير أمة اخرجت للناس﴾، لا لنستعلى عليهم، ولا نستبد بحقوقهم، ولكن لتكون كما أرادنا الله﴿تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون با لله﴾.

فمراحل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تبدأ أولاً بالدعوة الى الخير، أو الدعوة إلى الإسلام، وتهيئة النفوس للبر والتقوى .

ثم يكون الأمر بالمعروف والنهى عاملا على وحدة الامة ومانعا من فرقتها، لأنها إذا اجتمعت على اتباع المعروف والآنتهاء عن المنكر سيطرت على الأمم، وتلاشت الاهواء الشخصية بين أفرادها، فإذا عرض البغى والحسد لواحد منهم تذكر وظيفته الغالية الشريفة التى لا تتم الا بالتعاون والاجتماع، فأزالت الذكرى ما عرض، وشفت النفوس قبل تمكن المرض .

ولايتصور ان الامة كلها قد أقامت على الحق واجتنبت الباطل، ومن ثم فهى لا تدعو إلى الخير إلا غيرها من الأمم، ولكن الدعوة والأمر والنهى تكون بين المسلمين بعضهم والبعض الاخر ببيان طرق الخير وتطبيق ذلك على أحوال الناس، وضرب الأمثال المؤثرة فى النفوس ليأخذ كل سامع منها بحسب حاله، وتكون بالدلالة على الخير والحث عليه، والنهى عن الشر والتحذير منه .

ولقد ذكر رسول اللهﷺ طائفة من أمته، يؤمنون به ولا يرونه، ثم قال لصحابته ان للواحد منهم أجر سبعين، فقالوا:سبعين منا أم منهم .فقال: بل منكم أنتم.. أنتم تجدون أعوانا على الخير ولا يجدون .

والمعاونة على الخير تنشره بين الناس، وتجعله شيئا فى سلوكهم، وتقوى أنصار الخير وفاعليه، لأن الفضيلة تحتاج إلى مجتمع يغرسها ويحرسها ويجتمع عليها .

وإذا كنا نرى التناصح قد صار سببا للتخاصم والتدابر، حتى صار من العسير ان

---

[1] البقرة / ١٤٣ .

تنصح أخا أو صديقا أو ولدا، وحتى أضطر المصلحون والغيورون ان يلجئوا إلى الكنايات والتعريض لا المواجهة والتصريح، فان الأمة التى يفشو فيها الضيق بالنقد الصريح ومطاردة كلمة الحق هى من الأمم التى تودّع منها كما قال نبى الإسلام ﷺ ، وانما الكلام فى الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع الأمة المسلمة التى عرفت نعمة الله إذ كانت على شفا حفرة من النار فأنقذها الله منها، ومع من يشاركها فى الشعور ويوافقها فى سنة الأهتداء، وهؤلاء يصدق عليهم قول الرسول ﷺ :"المؤمن أخو المؤمن :يكفّ عليه ضيعته ويحوطه من ورائه"[1] ، وان ما نراه الآن من سوء الحال كان أثره التفريط فى كلمة الحق، وترك التناصح، واتباع كل فرد لهواه .. ومن العجيب أن يحتاج بعض الناس فى ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بقوله تعالى﴿يأيها الذين أمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم﴾[2] ، ويتبادر الى أذهانهم أنها تحث على أن يشتغل كل منا بإصلاح نفسه، وألا يتعرض لغيره فإن هدايته لنفسه وضلاله لا يعود الا عليه .

وهذا فهم ملتو لآية مستقيمة، ولقد قال أبو بكر فيها:" انكم تقرءون هذه الآية، وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإنى سمعت رسول الله يقول:" أن الناس إذا رأوا المنكر و لم يغيروه يوشك أن يعمهم الله تعالى بعقابه، وقد روى الترمذى أن رسول الله ﷺ قال فيها: بل اءتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع عنك العوام، فإن من ورائكم أياما الصابر فيهن مثل القابض على الجمر"[3] .

وهكذا يصحح الرسول ﷺ ما ترامى إلى وهم الناس فى زمانه من الآية الكريمة، ونحن اليوم أحوج إلى هذا التصحيح، فلقد أصبح مهمة الداعين إلى الخير شاقة، وصار طريق الآمر ين بالمعروف.. والناهين عن المنكر محفوفا بالمكاره والأشواك، وما أيسر أن

---

(١) رواه الطبرانى والبخارى وابو داود .

(٢) المائدة / ١٠٥ .

(٣) قال الترمزى: حديث حسن غريب صحيح ورواه ابو داود وابن ماجه .

يلجأ الضعاف من الناس إلى تأويل لهذه الآية على غير وجهها ليعفوا أنفسهم من مشقة النصيحة تلقى اليهم أو يكلفون هم بالقائها إلى غيرهم ..

وهذا الدين لايصلح إلا بأن يدافع عنه أهله، وان يبذلوا ما فى طوقهم لرد الناس إليه، كذلك جرت سنة الانبياء والمرسلين والسلف الصالحين على الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإن كان محفوفا بالمكاره والمخاوف ﴿فان لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن أتبع هواه بغير هدى من الله ان الله لايهدى القوم الظالمين﴾[2].

---

[2] القصص/ ٥٠ .

الدعوة إلى الخير

﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾[1] .

لقد جعلنا الله بفضله ومنته" خير أمة أخرجت للناس"، لا لاننا خير أجناس الارض، ولا لميزة أختصنا بها على سائر البشر، ولكن لاننا كما وصفنا سبحانه﴿تامرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتؤمنون با لله﴾[2] ، وهذه خصائص الامة الخالدة التى ان فنى افرادها فلا تفنى مبادئها، وان ذهب شكلها المادى فلا يذهب تاريخها الروحى .

وان حضارات الامم تختلف باختلاف مصادرها وأسسها، فهناك حضارة تقوم على اسس عسكرية، وهناك حضارة تقوم على اسس فنية أو عمرانية أو غير ذلك، فتبقى حين يفنى هذا الأساس وتضيع معالمه فى زوايا التاريخ .

وقد يكون لحضارة الأمة الاسلامية روافد من الآداب أوالفنون أو ما إلى ذلك، لكن الأساس الذى تقوم عليه هذه الحضارة، هو أساس متين من المبادئ الخالدة التى لاتضيع وإن طال بها الزمن، ولاتغنى وان امتدت بها القرون،لأنها مبادئ موصولة الأسباب بالسماء فهى موصولة الأسباب با لله، وما كان لله دام واتصل .

والدعوة إلى الخير من أبرز مبادئ هذه الحضارة الخالدة العريقة، أو هى اساس هذه الحضارة، فلقد نزل القرآن دعوة إلى الخير، حيث كان الخير كلمة جامعة لكل الفضائل، وحيث كان التواصى بالحق سمة بارزة من سمات المؤمنين، فهم الذين "تواصو بالحق وتواصو بالصبر" .

ولقد كان رسول الله ﷺ يحث المسلمين دائما على الدعوة إلى الخير، ويرغبهم فى كلمة الحق، حتى يجعل من دعا إلى الخير كمن قام بفعله فيقول مثل قوله:"﴿من دل على خير فله مثل أجر فاعله﴾ " ، "﴿ومن دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه

---

(١) آل عمران / ١٠٤.

(٢)آل عمران /١١٠ .

لاينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لاينقص ذلك من آثامهم شيئاً ﴾.[1]

ولقد خطب فى الناس يوما فتلا قوله ﷻ:﴿يا أيها الناس أتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء وأتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً﴾ [2] ثم قال :﴿تصدّق رجل من ديناره ، من درهمه . من ثوبه . من صاع بره . من صاع تمره . حتى قال : تصدق ولو بشق تمرة ، فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها ، بل قد عجزت فقال رسول الله ﷺ : من سن فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم ، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شئ" [3] .

ومن القواعد المسلمة أنه لا تقوم لقوم قائمه الا إذا كانت لهم وحدة تجمعهم ورابطة تربط بينهم ، والتواصى بالحق والدعوة إلى الخير من أقوى الروابط ، لأن الأمة بهذه المبادئ تكون أمة حية كأنها جسد واحد ، كما ورد فى حديث : " مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى " [4] .

وإذا كانت الوحدة الجامعه هى اساس كل أمه سواء أكانت هذه الأمه مؤمنه أم كافرة ، فإن المؤمنين أولى بالوحدة من غيرهم ، لأنهم ينتمون إلى مله هى ملة التوحيد ، ولأنهم يعبدون رباً واحدا هو رب العالمين ، ولانهم يتجهون فى صلاتهم اتجاها واحدا هو قبلة المسلمين ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاعبدون ﴾ [5] .

---

(١) رواه مسلم .

[2] النساء / ١.

[3] رواه مسلم .

[4] رواه أحمد ومسلم .

[5] الأنبياء /٩٢

ولما كان لكل جامعة وكل وحدة حفاظ يحفظها ، فقد أرشدنا الله سبحانه وتعالى إلى ما نحفظ به جامعتنا التى هى مناط وحدتنا فقال : : "ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون " وجعل من دعاء المؤمنين المقبولين قولهم : ﴿واجعلنا للمتقين اماما ﴾ [1] .

وكثيرا ما يضيع الحق بين الناس ، لأنهم كرهوه ، بل لأنهم لم يعرفوه ، فهم فى حاجة إلى من يذكرهم بالحق ، ويرشدهم إلى الخير ، لأن كلمة الحق تتطلب جماعة تتواصى بها ، ولأن البر ينمو فى وسط مجتمع يعين أفراده بعضهم بعضا عليه .
وان من مشكلات مجتمعنا المعاصر أن الإنسان قد لا يجد الأعوان على الخير ، فيظل يحمله حتى ينوء به كاهلة فيضعف عن مواصلة الطريق ، أو تضعف قبضته على دينه ، لأنه يكون حينئذ كالقابض على جمر ، أو يحاول أن يجهر بكلمة الحق فيصرفه عن ذلك قوم أصموا آذانهم وأغلقوا قلوبهم ، فيؤثر السلامه ويطوى كلمته بين جنبيه ، وقد يجرفه التيار فينسى كلمته ، وينسى نفسه ويتوه بين الزحام .

ولقد سئل رسول الله ﷺ : أى الأصحاب خير يارسول الله ؟ قال : من إذا ذكرت الله أعانك ، وإذا نسيته ذكرك ، قيل : فأى الناس شر يا رسول الله ؟ قال : من إذا ذكرت الله لم يعنك وإذا نسيته لم يذكرك فالرسول ﷺ هنا يضع مقياسا لصدق الصحبة هو التناصح والتعاون على الخير والتذكير بالمعروف ، وهو مقياس دقيق يقيس إخلاص الصديق لصديقه ، فهو يعاونه على طريق الحق إن سار فيه ، ويدعوه الى سلوكه إن انحرف عنه ، أما الصديق الذى يجامل صديقه بالحق وبالباطل ، ويجده على ضلاله فلا يرشده ولا ينهاه ، فذلك قرين سوء ورفيق طريق يضر صديقه بسكوته ويخدعه بابتسامته والدين – كما بين رسول الله ﷺ – النصيحة . قالوا : لمن ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ، ولأئمه المسلمين وعامتهم " [2] وهذه النصيحه ان كانت قولا حسنا أو كلمة لينة فانها

---

[1] الفرقان /٧٤

[2] رواه مسلم .

هداية حكيمة وموقف شجاع ، لأنها تكون أحياناً وقفة شجاعة فى وجه تيار جارف ، ومواجهة صلبه لباطل عنيد .

ولو أن أصحاب الرأى وأهل الفقه فى الدين عمموا دعوتهم وارشادهم فى الأمه ، وواصلوا هذه الدعوة فلم تفتر لهم عزيمة ، و لم تلن لهم قناة لكانوا رواداً لأمتهم ومعاقد لرابطة وحدتها ، وإذا عم التناصح بين أفراد الأمه فنصح كل أخ أخاه ، وذكر كل صديق صديقه لانحسر تيار الشر ، واستقر أمر الخير والمعروف بين الناس .

وللدعوة إلى الخير مجالات رحبه متعددة ، إذا أحسن استغلالها أنتجت خيراً ، فالأباء فى بيوتهم ، والمربون فى معاهدهم ، والخطباء فى دور العبادة ، والموجهون فى وسائل الإعلام كالصحافة والاذاعه وغيرها هؤلاء جميعا على ثغر التربية والتوجيه ، وهم يستطيعون . وقد تصدوا . لحمل الأمانة - أن يأخذوا الناس ، وبخاصة الشباب الذين يفتقدون المرشد إلى الطريق المستقيم .

ولقد نصح رسول الله ﷺ فكان داعيا بالحكمة والموعظة الحسنه ، وكانت نصيحته اللينه أبلغ من مواجهه عنيفة ، فكان أثرها فى النفس حميداً وفى القلب بليغا ، ولقد روى أبو أمامه أن غلاما شابا أتى النبى ﷺ فقال : يانبى الله أتأذن لى فى الزنى ؟ فصاح الناس به - أى ليزجروه - فقال النبى ﷺ : أتحبه لأمك ؟ قال : لا ، قال : أتحبه لابنتك ؟ قال لا ، قال أتحبه لأختك ؟ قال لا . فوضع رسول الله ﷺ يده على صدره وقال : اللهم طهر قلبه واغفر ذنبه وحصن فرجه " فلم يكن شئ أبغض اليه من الزنى . [1] .

فالرسول ﷺ هنا يواجه رغبه جامحه بنصيحة هادئة ، ويتوج هذه النصيحة بدعوة تعطف القلب إلى الحق وتنأى به عن الباطل ، وهذه النصيحة تظل هادئه ما دامت قد وجدت أذنا صاغية ونفساً مستجيبه ، فإذا وجدت اعراضا وصادفت صدودا فلتتحول إلى انكار قوى أو استنكار صريح ، حتى يعلم أنصار الباطل أن للحق جنوداً ينكرون

---

[1] رواه أحمد باسناد جيد .

بمشاعرهم ويقاومون بأيديهم ، فلا تفشو المعصيه ولا يظهر المنكر على المعروف..

ولقد بين رسول الله ﷺ خطورة السكوت على الباطل ومهادنه الأشرار بقوله فيما يرويه ابن مسعود عنه : " ان أول ما دخل النقص على بنى اسرائيل ، أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فانه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض " ثم قال : " كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطرا ، ولتقصرنه على الحق قصرا ، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم " . [1]

" ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون . ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل اليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون " [2] .

---

[1] رواه أبوداود والترمذى وقال حديث حسن .

[2] المائدة /٨٠-٨١ .

صور تطبيقية للقيم الاجتماعية

- المال فى خدمة المجتمع .
- التسامح حتى مع القتل .
- فلسفة الحرب والسلام .
- مجتمع النظافة والنظام .
- الرزق الحلال الطيب .
- مجتمع الحب والتآلف .

المال فى خدمة المجتمع

حين نحاول إيجاد صيغة لتنظيم العلاقة بين الدين والمعاملة ، فإننا قد نصوغها على النحو التالى :

أولا : الانسان يمارس حياته على الأرض .

ثانيا : هو صائر بعد ذلك إلى الآخرة.

ومن هنا فإنه محتاج الى تشريع ينظم له حياته ، ومحتاج الى منهج يهيئه لآخرته ، لأن الإسلام يحكم الدنيا بالدين ، ويهيئ الحياة للآخرة . ولعل المال أبرز الأسس التى ترتكز عليها معاملات الناس فى الدنيا ، فالمال كما يقولون عصب الحياة ، والإنسان بنصّ القرآن الكريم يحب المال حبا جما .. والإسلام لا ينكر على الإنسان حبه للمال ، فإن هذه طبيعة مغروسة فيه ، بل إنه ليدعوه إلى الكسب والتثمير .. ونعم المال الصالح للرجل الصالح .

ولكنه يدعوه إلى جانب ذلك أن يوظف هذا المال فيما وضع له ، وأن يستخدمه لأداء دوره الاجتماعى فى التكافل بين الناس ، وان ينفى عنه السحت الذى يفسده ثم يكون سببا فى هلاكه ، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيبا .

ومن هنا نهى الله عن الربا ودعا إلى الصدقة بقوله : (يمحق الله الربا ويربى الصدقات) ، ووازن بين أثر كل منهما بقوله : (وما أتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون) .

ولقد أراد الله سبحانه أن يرفع الناس إلى مستوى من التعامل الإنسانى الكريم ، فشبه علاقته بهم بالقرض حيث قال : ((من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة ، والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون)) . وليس الله محتاجا إلى عباده ليقترض منهم ، فلقد ((كفر الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء)) . ولكنه أراد أن يعلمهم القرض الحسن ، وأن يجعلهم يطبقون هذا العلم فى المعاملات فيما بينهم .

ولقد أراد الحسن البصرى أن يذهب إلى تحريم الربا مذهبا بعيدا فقال : ((إذا

كان لك على رجل دين ، ، فما أكلت من بيته فهو سحت ، وهذا من قوله صلى الله عليه وسلم : ((كل قرض جر نفعا فهو ربا)) .

وهو يهدف من هذا الاتجاه ألا يستغل الدائن حاجة المدين فيجعل دينه ضاغطا على عنق صاحبه ، وألا يطارده بهذا الدين فيأخذ منه بالوسائل المباحة ما يعدل الربا المحرم ، ومنها الطعام الذى يأكله فى بيته .

وهذا اتجاه يحاول تأكيد سد الذرائع ، فقد يأكل الدائن عند المدين وهو ينوى أنه بهذا الأكل يستثمر دينه عند صاحبه ، فيعد ذلك منفعة محرمة من وراء القرض المشروع .

ولكن ليس معنى ذلك أن يقاطع الدائن المدين وألا يتزاور كل منهما ، فإن الإسلام كما دعا إلى التكافل والتعاون وتنفيس كربات المكروبين حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((من نفّس عن مؤمن كربة من كربات الدنيا ... نفّس الله عنه كربة من كربات يوم القيامة)) ... فقد دعا إلى التزاور والتواد وما يترتب عليهما من إكرام الضيف والقيام بواجبات الضيافة ((ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه)) .

وإن المودة بما فيها من تبادل الهدايا والطعام صورة من صور المحبة ، ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((إذا دعى أحدكم إلى طعام فليجب .. فإن شاء طعم ، وإن شاء ترك)).

وما دامت المعاملات قائمة بين الناس على أساس من التكافل والحب ، فإن النيات الطيبة تحكم تصرفاتهم وتصلح أساسا لتقييم معاملاتهم .

وبذلك يمتزج معنى المعاملة بمعنى العبادة : فتسترشد المعاملة بقيم العبادة ، وتدوم العبادة بدوام المعاملة ، وهذا هو المجتمع الذى يريده الإسلام : الأيدى التى تدبر المال أيد نظيفة ، والضمائر التى تصرّفه ضمائر مخلصة ، والمجتمع الذى يتعامل به مجتمع متكافل .

وتلك هى التجارة الرابحة : ﴿ يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم .. تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير

لكم إن كنتم تعلمون ﴾ .   وإن الإنسان يحرص في هذه الحياه على شيئين : رزقه وأجله ، والرزق معدود تكفل الله به في مثل قوله تعالى :

﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها و يعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين ﴾ .

والأجل محدود حدده الله في مثل قوله ﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ .

ولكن لهفة الإنسان على الرزق تجعله يكدح لتحصيله ، فإذا صار في يده اشتدت قبضته عليه ، وضنّ بإنفاقه حرصا منه على الاحتفاظ به .

وحرصه كذلك على اجله يدفعه بعيدا عن تيارات الحياة ، وينأى به عن المواطن التي يتوقع فيها الخطر . ولقد صور الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الحرص على هاتين الناحيتين في قوله : (يهرم إبن آدم وتشب منه اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر) . وهاتان الظاهرتان تلحقان كثيرا من الناس حتى تكون ملامح سيئه في أخلاقهم : أنهم يحرصون على أموالهم حتى يتحول هذا الحرص بخلا يغل أيديهم عن الانفاق والتكافل مع عباد الله ، ويحرصون على أجالهم حتى يتحول هذا الحرص جبنا يقعد بهم عن الجهاد في سبيل الله .

ولقد روى عن عمر قوله : إذا ضنّ الناس بالدينار والدرهم وتركوا الجهاد في سبيل الله انزل الله بلاء فلا يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم) .

فكأنه قد جعل الإمساك عن الانفاق والقعود عن الجهاد نذيرا بوقوع البلاء ... وكأنه قد جعل ذلك أيضا مظهرا لإنفصام عرا الدين ، فإذا حل البلاء فإن الله لا يرفعه الا إذا رجع الناس إلى أنفسهم وراجعوا دينهم .

وقد يعلم الناس أن تمتعهم بأموالهم محدود بحياتهم على هذه الأرض ، وأن هذه الحياة وإن طالت فإنها قصيرة ... وقد يعلمون ذلك بعقولهم ، ولكن هذا العلم لا ينعكس على سلوكهم ، فهم يكنزون المال حتى يتحول وبالا فيقال لهم ﴿ هذا ما كنزتم لانفسكم

فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾ وهم يضنون بأعمارهم حتى يجبنوا عن لقاء عدوهم فيصدق فيهم قول الله : ﴿ ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين اشركوا .. يرد أحدهم لو يعمر ألف سنة ، وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون ﴾ .

ولقد رسم رسول الله صورة للحرص على المال بقوله ﴿ يقول ابن آدم مالى مالى ... وهل لك يا ابن أدم من مالك الا ما أكلت فأفنيت ، أو تصدقت فأمضيت .. وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس ﴾ . أما الجهاد فقد جعله الرسول ذروة سنام الأمر كله ، لأن العقيدة اذا كانت تشبه البناء ، فإن الجهاد يشبه السور الذى يحيط بهذا البناء ويحميه .

وكما أن للعقيدة أتباعا يؤمنون بها ، فإن لها اعداء يكيدون لها ، ومن هنا شرع الجهاد فريضة مكتوبة على المؤمنين ليصدوا به عدوان الكافرين ..

ولئن كان جهاد المجاهدين محنة تبتلى بها نفوسهم ، فإنه فى ميزان الله درجات تعظم بها منازلهم ، ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا يجتمع على عبد غبار فى سبيل الله ودخان جهنم).

وان منازل الشهداء فى الجنة أعظم المنازل عند الله لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم .. فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى ، وفضل الله المجاهدين على القاعدين اجرا عظيما)) .

التسامح حتى مع القتل

الأصل فى حكم القاضى أنه : (مشمول النفاذ) ، لأنه لم يصدره إلا وقد قلّب الأمر على كل الوجوه ، فسأل الخصوم ، وناقش الشهود وطلب البيّنة .

ولكن قد تعرض أمور للحكم بعد صدوره فتعطله أو تغير مساره أو غير ذلك ، فقد يتراجع الشهود عن شهادتهم – مثلا – بعد صدور الحكم وقبل نفاذه ، وحينئذ فإن المحكوم به إذا كان حدا أو قصاصا فإنه لا يجوز للقاضى استيفاؤه باتفاق الفقهاء الأربعة لأن الحدود تدرأ بالشبهات[1] .

أما إذا كان المحكوم به غير حد و لا قصاص ، فليس للقاضى أن ينقضه ، بل عليه أن يستوفيه ويعطيه للمحكوم له ، ثم يضمن الشهود المحكوم به للمحكوم عليه .

وهذا ما ذهب إليه الإمام أحمد و مالك والشافعى و أبو حنيفة وغيرهم [2] .

واذا رجع الشهود عن شهادتهم بعد صدور الحكم وتنفيذه ، فإن الشهود يضمنون ما أتلفوا للمشهود عليه من مال ، كما يضمنون قيمة الأضرار المترتبة على الحكم

هذا وإن كان المحكوم به حدا أو قصاصا فإن الشهود عند كثير من الفقهاء يؤخذون بالقود وإن تعمدوا الشهادة وقتل المحكوم عليه أو قطعه ، ويؤخذون بالضمان إن أخطئوا فى الشهادة .

وقد ذهب إلى هذا الرأى الحنابلة ابن أبى ليلى والاوزاعى والشافعىوأشهب من المالكية[3] .

رجوع ولىّ الدم : وكما يجوز أن يرجع الشهود عن شهادتهم بعد الإدلاء بها ، فقد يرجع ولى الدم نفسه عن دعواه . فإذا حكم الحاكم على رجل بالقتل بناء على دعوى من ولى

---

(١) انظر : المغنى جـ ١٠ /٢١٩ - ٢٢٠ ، مغنى المحتاج جـ ٤ /٤٥٧ ، منتهى الارادات جـ٢ /٦٧٦.

(٢) انظر : حاشية ابن عابدين جـ٣/٥٠٤ - ٥٠٥ ، شرح فتح القدير جـ٦/٨٦ ، مغنى المحتاج جـ٤ /٤٥٧ ، قليوبى وعميرة جـ٤/٣٣٢/٣٣٣، مجلة الاحكام العدلية مادة ٤٧٢٩ .

(٣) انظر : المقتع جـ٢ / ٧١٨ ، أسهل المدارك جـ٣ / ٢٢٧ ، وطالب أولى النهى ج ٦ / ٦٤٥ .

الدم ، ثم تراجع ولىّ الدم وحده معترفا بأن الدعوى كانت خطأ ضد المدعى عليه ، وأنه فى الحقيقه لم يكن قاتلا .... فإن على ولى الدم نفسه الدية إن كان قد أخطأ ، وإن كان متعمدا فإن عليه القود لأنه المباشر للقتل.

وحتى إذا رجع ولى الدم عن دعواه كما رجع الشهود عن شهادتهم ، فإن فى مذهب الإمام الشافعى روايتين :

الأولى : وهى الأصح - : يجب القصاص على ولى الدم وحده للمباشرة ، وهم معه كالممسك للقاتل .

والثانية : ولى الدم والشهود شركاء لتعاونهم فى القتل ، فعليهم القود ، وإن آل الأمر الى الدية فعليهم النصف وعلى الولى النصف و إذا تمالأ ولى الدم مع الشهود والقاضى على الحكم بقتل إنسان أو قطعه ثم تراجعوا عن ذلك ، وقالوا إنهم تعمدوا ذلك فإنهم يقادون جميعا به فيقتلون إذا كان المحكوم به قتلا ، ويقطعون إذا كان المحكوم به قطعا[1].

عفو ولىّ الدم :

وإن رجوع ولىّ الدم غير عفوه : فالرجوع - لما بينا - يكون اعترافا بخطئه ورجوعا عن دعواه ، أما العفو فإنه تنازل عن حق بعد ثبوته . ولقد ذهب الحنفية الى أن القصاص واجب عينا ، بل الواجب أحد الشيئين غير عين : إما القصاص وإما الدية ، وللولى خيار التعيين إن شاء استوفى القصاص وإن شاء أخذ الدية من غير رضا القاتل.

فعلى هذا القول إذا مات القاتل يتعين المال واجبا ، فإذا عفا الولى سقط الموجب اصلا .

وفى قول القصاص واجب عينا ، لكن للولى أن يأخذ المال من غير رضا القاتل . وإذا عفا فإن له أن يأخذ المال ، وإذا مات القاتل سقط الموجب أصلا عملا بقوله تعالى : ((فمن عفى له من أخيه شئ فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان)) .

---

(١) انظر : مغنى المحتاج جـ٤/٤٥٧ - ٤٥٨ ، الاختيار لتعليل المختار ج٣ /١٥٥ .

غير أن الحنفية يحتجون بقوله تعالى : ·(يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى)) .

وهذا يفيد تعين القصاص موجبا ، ولو كان على القاتل أحد حقين فإنه لا يصدق القول على أحدهما بأنه أوجب من الآخر .

وإذا كان القصاص واجبا فليس لصاحب الحق فيه أن يعدل عنه إلى غيره (1) .

وإذا عفا ولى الدم عن القود إلى غير مال وصرح بذلك ، فإذا كان الواجب القصاص عينا فلا مال له وقوله يعد لغوا ، وإذا كان الواجب أحد شيئين - القصاص والمال - سقط القصاص والمال جميعا (2) .

ولقد قال الشافعى وأحمد وأبو ثور وأكثر فقهاء المدينة من أصحاب مالك وغيره إن ولى الدم بالخيار إن شاء اقتص ، وإن شاء أخذ الدية رضى القاتل أو لم يرض وأختلف العلماء فى المقتول عمدا إذا عفا عن دمه قبل أن يموت : هل ذلك جائز على الأولياء ؟

قالت طائفة منهم الشافعى وهو فى العراق : لا يلزم عفوه وللأولياء حق القصاص أو العفو .

هذا ويرى مالك أن ولى الدم ليس له الا أن يقتص أو يعفو غير دية لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (كتاب الله القصاص)

فعلم بدليل الخطاب أنه ليس له إلا القصاص (3) .

---

(1) انظر : بدائع الصنائع جـ7 . كتاب الجنايات / 233 وما بعدها القواعد لابن رجب الحنبلى ، قاعدة 137 ص328 .

(2) القواعد السابقه ، صـ 330 .

(3) بداية المجتهد . لابن رشد جـ 2 . كتاب الجنايات / 296 وما بعدها .

فلسفة الحرب والسلام فى الإسلام

يميل الإنسان إلى السلام بطبيعته ، ويلجأ إلى الحرب لضرورته وهو بين السلام والحرب يمارس حياته ، ويعمر أرضه ، ويتعامل مع غيره من الناس :﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾[1] .

ولقد جاء الإسلام دعوة هادية إلى الخير مرشدة إلى عبادة الله الواحد ، مسوقة إلى عقول الناس ليفكروا ، وإلى عواطفهم ليشعروا وإلى قلوبهم ليؤمنوا ، فكان من الطبيعى أن يدعو الرسول الناس إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن يجادلهم بالتى هى أحسن وحين كان يشق عليه عناد المشركين وإعراض المكذبين ، كانت الآيات القرآنية تنزل عليه لتخفف عنه هذه المشقة ، وتثبت قدميه على طريق الدعوة ، وتوضح له حدود رسالته التى هى البلاغ وليست الإكراه : ﴿ طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، إلا تذكرة لمن يخشى ﴾[2] . ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا﴾[3] .

﴿ أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾[4] .

فكان السلام بين يدى الدعوة الى الإسلام يمهد لها الطريق إلى القلوب ، ويفتح لها مجال المحاورة الهادئة التى يمكن أن نستشفها من مثل قول الله عز وجل : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم : ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾[5] .

فالدعوة هى إلى (كلمة سواء) ... أى هادئة عادلة ، والغاية هى تحرير الفرد من عبادة الإنسان الى عبادة الله ، والنهاية هى المخاصمة السلمية : يعرض فيها أهل

(١) البقرة : ٢٥١ .
(٢) طه : ١ ، ٢ ، ٣ . (٣) الكهف : ٦
(٤) يونس : ٩٩
(٥) آل عمران : ٦٤ .

الكتاب يعلن فيها المسلمون تمسكهم بالإسلام ، ولكن هذه الدعوة المسالمة كغيرها من الدعوات ، لا تستقر لها الطبيعة ، ولا تفسح لها الأرض ، ولكن يضع المكذبون في طريقها الأحجار ويبذرون أمام دعاتها الأشواك ، وهنا يأذن الله لعباده أن يمهدوا الطريق لدينه ، وأن يزيلوا العقبات من طريقه ، وأن يهيئوا البيئة الصالحة لانتشار دعوته ، وحينئذ فلا مناص من الاشتباك ، ولا مفر من الحرب وقد : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ﴾[1].

وقد عرّفت الآية المؤمنين بأنهم هم ﴿ الذين يقاتلون ﴾ وبينت المبرر للأذن بالقتال بأنهم ظلموا ، ووضحت الراية التي يقاتلون تحتها وهي قولهم ﴿ ربنا الله ﴾.

ولا توجد في القرآن آية واحدة تدل على أن القتال في الإسلام قد شرع لحمل الناس على اعتناقه ، وإنما كان سببه ينحصر في رد العدوان وحماية الدعوة وحرية الدين حتى الآيات التي تحث المؤمنين على القتال تحمل في ثناياها ما يشير الى أنهم مدافعون وليسوا مهاجمين ، اقرءوا قول الله عز وجل ﴿ وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم ، وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر ، إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون ، ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم ... وهموا باخراج الرسول ... وهم بدءوكم أول مرة[2] ، وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ... ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين[3] ﴾ وإذا كان الإسلام قد أذن لأتباعه بالقتال في بعض الظروف التي لا مناص من القتال فيها (والناس ان ظلموا البرهان واعتسفوا فالحرب أجدى على الدنيا من السلم) .

فإنه قد وضع لهم دستورا في الحرب ، يصلح أن يكون دستورا للإنسانية كلها لما فيه من رحمة بالضعفاء ، وتكريم للإنسان الذي كرمه الله ، وتحدثنا كتب السيرة أن

---

(١) الحج : ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) التوبة . ١٢ / ١٣ .

(٣) البقرة : ١٩٠ .

سعد بن عبادة صاح يوم فتح مكة في وجه أبي سفيان بقوله : (اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، اليوم أذلّ الله قريشا) فصحح الرسول هذا القول وقال : يا أبا سفيان : اليوم يوم المرحمة ، اليوم أعز الله فيه قريشا. وأرسل الى سعد فعزله .

ولا عجب في ذلك فالرسول صلى الله عليه وسلم هو القائل : (أعفّ الناس قتلة أهل الإيمان)[1].

وإذا كان الرسول قال ذلك وهو نبي الإسلام ، فلقد قال (جيبون) . وهو من كتاب الغرب (ان الحملة الصليبية قد تركت في التاريخ أقسى ما عرف من التعصب لا ضد المسلمين فحسب بل ضد مسيحيّ الشرق ، ويكفي أنهم يوم استيلائهم على بيت المقدس ذبحوا سبعين ألف مسلم من بينهم الشيوخ و الأطفال والنساء ويتبين الفرق الشاسع بين هذه الصورة وبين تعاليم الإسلام الى المقاتلين المسلمين بألا يقتلوا طفلا ولا شيخا ولا امرأة ، وألا يجهزوا على جريح بل وألا يقطعوا شجرة يستظل بها ابن السبيل ذلكم هو الإسلام ... انساني في حروبه كما هو انساني في سلمه.

مجتمع النظافة والنظام

إن من أبرز المظاهر الحضارية للمجتمعات الحديثة ، نظافتها الظاهرة وهي تدل على طبيعتها النقية الصافية ونظامها الملتزم ، وهو يشير الى بنيانها المتلاحم المتناسق ، وكلا الأمرين - (النظافة و النظام) إن كان مظهرا تراه العين ، وتحسه الجوارح ، فهو قبل ذلك حقيقة مستقرة في النفوس ، كامنة في الطبائع ، ثم هي منعكسة بعد ذلك على كل ما حولنا من مظاهر الحياة .

وإن التوجيهات التربوية لتتصف إذ تجعل من الدروس العلمية التي توجه بها سلوك النشء في مدارسهم الأولى أن يحرصوا على نظافة ملابسهم كما يحرصون على نظافة وجوههم ، وأن يحافظوا على نظام عملهم كما يحافظون على نظام صفوفهم ، وهي في سبيل المحافظة على النظافة والنظام ترصد الجوائز لأكثر الأبناء أخذا بقواعد النظافة

---

(١) أخرجه ابن ماجه وأبو داود .

والتزاما بأصول النظام ، بل إنها لتجعل لذلك يوما تسميه (يوم النظافة) أو (يوم النظام) .

واذا كان ذلك مظهرا من مظاهر الحضارة وعنوانا من عناوين المدنية ، فإنه أساس من أسس ديننا الحنيف ... الإسلام ... ، لأنه يجعل النظافة والنظام مظهرين من الخارج .

ولكنهما نابعان من فطرة نفسية منبعثة عن الداخل ، فلقد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لينظف العقائد من الزيغ ، والنفوس من الفساد ، والفطر من الالتواء ، فدعا إلى عبادة الله الواحد ونبذ ما عداها من العبادات التي لوثت العقول وأفسدت الأفهام ، ولعل في ذلك تفسير كلمة الحنيفية ، وهي الخالصة النقية الطاهرة من شوائب الرجس والدنس وفي هذا المجال يقول الله عز وجل : ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به [٢].

والمتأمل للعبادات في الإسلام يجد أنها تعود المسلمين النظافة وتدربهم على النظام ، ننظر مثلا الى الصلاة ففيها الالتزام بالوقت ﴿ ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا ﴾ ، والانتظام في صفوف مستقيمة فإن الله لا ينظر الى الصف الاعوج ، والطاعة الواعية للقائد وهو الإمام مهما كان فما جعل الإمام الا ليؤتم به وان المسلم لا يدخل اليها إلا عن طريق الوضوء حيث يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا يقبل الله صلاة

أحدكم اذا أحدث حتى يتوضأ [٣] .

والوضوء نفسه طهارة للنفس ونظافة للجوارح ، فإنه (اذا توضأ العبد فمضمض خرجت الخطايا من فيه ، فإذا استنثر خرجت الخطايا من أنفه .... وهكذا حتى

---

(١) الحج : ٢٠ - ٢١ .

(٢) رواه الشيخان وأبو داود والترمذي .

(٣) من معنى حديث طويل رواه مالك والنسائي وابن ماجه والحاكم .

يخرج نقيا من الذنوب[1].

ليست العبادات فى الإسلام هى المجال الوحيد للنظافة والنظام ، بل ان المسلم مأمور أن يلتزم بهما فى كل أحواله ، وأن يجعلها من عاداته فى كل أموره ، وأن يحرص حتى على زينته ومظهره إن تأهب للذهاب الى المسجد سمع قول الله عز وجل : ﴿ يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ .

وسمع صوت الرسول يحذره من إيذاء المصلين بالروائح الكريهة (من أكل من هذه الشجرة فلا يقرب مساجدنا يؤذينا بريح الثوم) وعن يحيى بن سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ما على أحدكم لو اتخذ ثوبين لجمعته سوى ثوبى مهنته) .

وإن جلس بين الناس جلس بمظهر جميل وسمت كريم ، فعن زيد بن أسلم أن عطاء بن يسار أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : كان فى المسجد فدخل رجل ثائر الرأس واللحية ، فأشار اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده أن أخرج كأنه يعنى إصلاح شعر رأسه ولحيته ، ففعل الرجل ثم رجع ، فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : أليس هذا خيرا من أن يأتى أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان !) .

إن أكثر المشكلات التى تواجهنا اليوم فى مجتمعنا ترجع الى عدم النظافة أو سوء النظام ، وهذه المشكلات تجابهنا فى الطرقات والمرافق العامة ، والمواصلات ولسنا نحتاج فى حلها الى قانون صارم بقدر ما نحتاج إلى وعى رشيد ، والنظافة والنظام وغيرهما من مبادئ الأخلاق سلوك عملى صادر عن اقتناع شخصى فليقنع كل منا نفسه بهذه المبادئ وليأخذ كل منا نفسه وأهله بهذا السلوك ﴿ ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ .

الرزق الحلال الطيب

قال الله تعالى :﴿ يايها الذين أمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين ، وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واتقوا الله الذى انتم به مؤمنون ﴾ [١] .

ان الله طيب لا يقبل الا طيبا ، وان المؤمنين مكلفون بأن يتخلقوا بأخلاق الله ، فيتحرون الطيب ويتجنبون الخبيث ، وقد خلق الله لنا ما فى الأرض جميعا ، وأودع فينا حاسة فطريه تفرز ثم تقبل أو ترفض ، وهذه الحاسة خاصيه نبيله فى نفس الإنسان ومشاعره ، فهو يميل إلى الشىء تبعا لهذه الحاسه ، وينفر من الشئ الأخر تبعا لهذه الحاسه ، وليس على المرء حرج فيما احب أو كره ما لم يأمر بمعصية أو يقترف ذنبا .

ولقد جاء فى سبب نزول هاتين الآيتين أن أناسا من اصحاب رسول الله ﷺ قد أرادوا أن يرفضوا الدنيا ويتركوا النساء ويترهبوا فقام رسول الله ﷺ فغلظ فيهم المقاله ثم قال " انما هلك من كان قبلكم بالتشديد ، شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ، فأولئك بقاياهم فى الديار والصوامع ، فاعبدوا الله ولا تشركوا به ، وحجوا واعتمروا واستقيموا يستقم بكم " قال ونزلت فيهم ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما احل الله لكم ﴾ [٢] .

واذا كان الله سبحانه هو الرزاق ، وكان الناس هم محل رزقه ، فأنهم يجب أن يتقبلوا هذا الرزق بقبول حسن ، وأن يستقبلوا نعمة الله بالشكر لتدوم هذه النعمه وتزيد فان الله عز وجل يقول فى كتابه " لئن شكرتم لأزيدنكم " .

وغايه ما فى الامر أن يتحرى المؤمن الرزق الحلال ، والا يقذف إلى جوفه الا طعاما طيبا وشرابا طيبا ، وألا يضع على جسده الا ثوبا طاهرا من مصدر حلال ، فانه بهذا القصد الصالح والنيه الكريمه تتم نعمة الله على الإنسان ، ويتنزل عليه رزق الله

---

[١] المائدة /٨٧ -٨٨ .

[٢] أخرجه عبدالرزاق وابن جرير وابن المنذر عن أبى قلابه .

الحلال فلقد ذكر النبى ﷺ رجلا مطعمه من حرام ومشربه من حرام وملبسه من حرام ثم أنه يمد يديه إلى السمـــاء قائلاً : يارب يارب .. يقـــول الرسول " فأنى يستجاب له ؟ [1]

اى كيف يستجيب الله لمثل هذا الرجل وهو لا يتحرى الحلال فى كل أموره ولقد قيدت الآيه الرزق الحسن الذى يجب أن يتمتع به الإنسان بأنه طيب ، وبأنه قد أحله الله . فما دام هو طيبا فإن الطباع السليمة تقبل عليه ، وما دام الله قد أحله فيجب الا يحرمه الإنسان .

ولقد فتن كثير من العباد والمتصوفة بتعذيب النفس وحرمانها من الملذات ، وكانوا فى ذلك . دون قصد - مقلدين للعباد من بنى اسرائيل ورهبان النصارى الذين ابتدعوا رهبانية فكتبوها على أنفسهم وما كتبها الله ، ﴿ فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم اجرهم وكثير منهم فاسقون ﴾ [2] .

وقد زعم بعض هؤلاء المتنسكين أن النفس لا تزكو الا بحرمان الجسد من الملذات والبعد عن كل أنواع الزينه والمتعة .

ولكن الاسلام قد جاء يخاطب الإنسان ويتفاهم مع طبيعته ، ومن ثم فقد كان دينا وسطا لا إفراط فيه ولا تفريط : فهو لم يدع أتباعه إلى الإنغماس فى الملذات والإنسياق وراء الشهوات حتى ينسوا أنفسهم ورسالتهم التى خلقوا من أجلها ، و لم يضرب عليهم نطاقاً من الحرمان والشظف حتى تقصر طاقتهم عن تحمل أعبائه ، ولكنه نظم لهم ذلك ومدح الذين توسطوا فلم يسرفوا و لم يقتروا حيث قال عن عباد الرحمن " والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا و لم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما " [3]

وقد أرشدهم إلى اعطاء البدن حقه والروح حقها ، لأن الإنسان مركب من روح وجسد فيجب العدل بينهما ، وبذلك يتم الكمال البشرى ، وتكون الأمة الإسلامية هى

---

[1] رواه أحمد ومسلم والترمذى .

[2] الحديد /٢٧.

[3] الفرقان /٦٧ .

الأمة الوسط فلا هى عذبت نفسها بالحرمان حتى شقيت بهذا العذاب ولا هى انغمست في ملذاتها حتى صارت أسير الشهوات .

وقد يقال فى هذا المجال أن صحابه رسول الله ﷺ رضوان عليهم كانوا يعيشون حياة خشنه فيها من الشظف أكثر مما فيها من الترف ، وفيها من البؤس اكثر مما فيها من النعيم ، وقد حرموا أنفسهم من طيبات الحياة الدنيا ..

والإجابة عن ذلك أن هؤلاء الصحابه لم يكونوا على درجة واحدة من الغنى وبسطة الحال ، وأن الموسورين منهم كانوا ينفقون عملاً بقوله تعالى : " لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما أتاه الله : [1] وأما أبوبكر وعمر فقد فرض لهما بيت المال بقدر ما فرض لأوساط الناس .. لا للموسورين ولا للمعسرين ، فكانا يتقشفان ليكونا قدوة لغيرهما من العمال والولاة ، وكان عمر رضى الله عنه يفعل ذلك ويرى أنه بهذا يستبقى ثوابه كاملا عند الله ، فكان يقول أخشى ان يقول الله لى يوم القيامة : " أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها " [2] وهذا اتجاه ألزم عمر به نفسه و لم يلزمه به أحد ، وما كان الله ليحرم طيبات الحياة الدنيا وهى مطروحه أمام الأعين ومبسوطه أمام النفوس : ﴿ قل من حرم زينة الله التى اخرج لعباده والطيبات من الرزق . " [3] .

والسؤال هنا - كما يقولون للاستنكار ، أى أن الله لم يحرم على عباده زينة الحياة الدنيا والطيبات من الرزق ، ولكن علينا أن نتأمل وصف نعم الله بالطيبات لنخرج من هذا التأمل فنتحرى الطيب الذى جعله الله حلالا ودعا عباده إلى التمتع به ، والطيب من الرزق كالطيب من الثمار وهو ما نضج وطاب اكله وأصبح مستساغا .. والرزق الحرام يفور بالجسد ثم يغور به ، ويهيج بالمظهر ثم يكون حطاما ، ﴿ كمثل غيث أعجب

---

[1] الطلاق /٧ .

[2] الأحقاف / ٢١ .

[3] الأعراف /٣٢

الكفار نباته ، ثم يهيج فتراه مصفرا ، ثم يكون حطاما وفى الأخرة عذاب شديد ومغفرة من ا لله ورضوان وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور ﴾ [1] .

واذا كانت الآية قد أباحت الطيبات من الرزق ودعت المسلمين الى التمتع بها ، فانها بمضمونها قد حرمت السحت من الطعام والشراب ونفرت المؤمنين منه ، وهى بذلك تكون ملكة الإحساس بالحلال والحرام فى نفوس المؤمنين ، وإذا تكونت هذه الملكة النفسية حدد المؤمنون طريقهم فى الحياة : فخلصوا رزقهم من الحرام ، وخلصوا معاملاتهم من الغش ، وخلصوا أقوالهم من الرياء والنفاق .

وإذا كانت الآية قد نهت المؤمنين عن تحريم طيبات ما أحل ا لله من الرزق ، فقد نهتهم أيضاً عن الاعتداء " ان ا لله لا يحب المعتدين " ، والاعتداء بالاضافة إلى الإنتهاب واكل الحرام . هو الاسراف فى التمتع وتجاوز الحدود فى الاخذ من الطيبات وقد يستمرئ الإنسان المتعه الحلال فيتجاوزها إلى المتع الحرام ، فلا بد أن يكون له ضابط يحدد تصرفاته ، ولا بد ان تكون له حدود لا يتعداها ولا يتخطاها " ومن يتعد حدود ا لله فقد ظلم نفسه " [2]

ولما نهى ا لله عن تحريم الطيبات بقوله ﴿ ولا تحرموا طيبات ما أحل ا لله لكم ﴾ أمر بعد ذلك بضد مقتضى النهى الذى قبله فقال : وكلوا مما رزقكم ا لله حلالا طيبا " أى كلوا مما رزقكم ا لله تعالى اياه حال كونه حلالا فى نفسه غير داخل فيما حرمه عليكم . من الميته بأنواعها والدم المسفوح ولحم الخنزير . حلالا فى طريقه كسبه وتناوله ، فلا يكون ربا أو سحتا أو سرقة .

ونيس يراد بإباحه الأكل هنا إباحه الطعام فقط ، بل تناول كل ما هو حلال من طعام وشراب وغيرهما ، ولكنه عبر بالأكل لأنه هو الغالب ولأن الطعام هو الشىء المادى الملموس الذى يدخل إلى الجوف فيقوى الجسم وينميه ، وقد عبر بالاكل فى غير هذا

---

(1) الحديد / ٢٠

(2) الحديد /١

الموضع بقوله ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباكل " [١] ، وقوله " لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة ﴾ [٢] .

ولقد اقتضت حكمه ا لله أن يقبل عباده نعمه فيستعملوها فيما وضعت له ، ويشكروه عليها فيزيدهم خيرا وبركه ، وذلك لأن الكفار يسيئون استعمال النعمه فتحول عليهم نقمه وتصير عليهم وبالا ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة ا لله كفرا واحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار ﴾ [٣] ويكره ا لله لعباده أن يجنوا على الفطرة التى فطرهم عليها فيمنعوها حقوقها ويحرموها التمتع بالطيبات والكفار يتمتعون بما طاب وبما خبث ﴿ والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تاكل الأنعام والنار مثوى لهم ﴾ [٤] ، كما يكره لهم أيضا ان يفرطوا فيها باستباحة ما حرمه أو ترك ما فرضه ، ولذلك فانه لم يكتف بالنهى عن التحريم حتى أمر باستعمالها والتمتع بها ، ودعا إلى الشكر على ذلك بالقول والعمل وان الامتثال بهذا النهى وهذا الأمر ليتحقق بالتمتع الفعلى بما أحل ا لله دون إحساس بالحرج أو ميل إلى الحرمان ، بل لا بد ان يطيب المؤمن نفسا بهذا الامتثال ، لانه حين يمتثل لأمر ا لله فيتمتع بما أحل ا لله انما ينفذ امرا فيه مرضاة ا لله ورجاء أجره ومثوبته ، حتى إذا وجب عليه الشكر وجب لاستعماله النعمة وإحساسه بفضل ا لله عليه فى اجراء الرزق الحلال وهذا خير من عبد حرم نفسه مع ميله الفطرى ، وامتنع مع رغبته الشديدة وانعكس عليه ذلك ضيقاً وتبرماً ان لم يترجم عنه فى الظاهر فانه يحس به شعوراً فى الداخل ، وقد ينهزم أمام هذا الشعور فى بعض الأوقات فتتحطم مقاومته ، ويشتد نهمه ، ويحطم الحواجز ما بين الحرام والحلال . وقد كان رسول ا لله ﷺ يتفقد أحوال أصحابه ، ويأخذهم إلى جادة الطريق إذا هم اسرفوا فى الفهم ، ويهون عليهم العبادة إذا هم اشتدوا على انفسهم ، فلقد أخرج البخارى والترمذى عن ابى جحيفة قال : " آخى

---

[١] البقرة / ١٨٨ .

[٢] آل عمران / ١٣٠

[٣] ابراهيم /٢٨ .

[٤] محمد / ١٢

رسول الله ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء ، فزار سلمان ابا الدرداء ، فرأى ام الدرداء متبذله فقال لها : ما شأنك قالت : اخوك ابوالدرداء ليس له حاجة في الدنيا فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاما فقال : كل فاني صائم ، قال : ما أنا بآكل حتى تاكل ، فأكل ، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم ، قال : نم .. فنام ، ثم ذهب يقوم ، فقال : نم فلما كان من آخر الليل قال سليمان : قم الآن . فصليا ، فقال له سلمان : ان لربك عليك حقا ولنفسك عليك حقا ، ولأهلك عليك حقا ، فأعط كل ذى حق حقه ، فأتى النبيﷺ فذكر - ذلك له فقال : صدق سلمان" فهذا درس فى واقعية الاسلام ومعقوليته فى مخاطبه اتباعه : فهو لا يشق عليهم فى التكاليف ، ولا يترخص معهم فى العبادات ، لا يطلق لهم عنان الغرائز فينغمسوا فى الشهوات ، ولا يلجم فطرتهم البشريه بقسوة الحرمان فيسقطوا فى الطريق ولكنه يحرص على تطهير اجسادهم من السحت كما يحرص على تطهير عقائدهم من الشرك ، ولذلك كله عنوان واحد " النظافة " .. نظافة الضمير ، صفاء المخبر ونضارة المظهر وكثير من الناس لا يربطون بين القصد الحلال والبركة فى الرزق ، فيأكلون ولا يبحثون من أين حصلوا على الطعام ، ويشربون ولا يسألون ما مصدر الشراب ، ويلبسون ولا يتحرون طريقة الحصول على الكساء ، ولا يمنعهم ذلك أن يسألوا الله مع السائلين وأن يدعوه مع الداعين ، وقد يظنون أنهم بركعات خاطفة وسجدات سريعة آخر النهار يمحون ما اقترفوه فى اوله ، وقد وهموا فى هذا الظن ، فان الله لا ينخدع ، لأنه لا يخفى عليه شئ فى الارض ولا فى السماء ولا يتقبل الدعاء الا من المتيقن ، وهو سبحانه . إن اباح لعباده أن يأكلوا مما رزقهم حلالا طيبا ، فانه يذكرهم دائما به ليتمثلوا رقابته فيطلبوا رضاه ، ويتجنبوا سخطه ، فهو يقول لهم بعد أمرهمبأكل الحلال الطيب : ﴿ واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ﴾ وحين ينخدع بعض البسطاء بمظاهر الثروة الفاحشة تاتى من حرام ولكنها تزيد وتزيد .. يذكرهم الله بأصل هذه الثروة الشاذة ومصيرها فيقول : " ولا تعجبك اموالهم وأولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون " .

﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما [1]﴾.

إن محبة الله ورسوله هي المنزلة التي يتنافس فيها المتنافسون وهي قوة القلوب وغذاء الأرواح ، وهي روح الإيمان والأعمال هي التي تصل بالمحبين الى رتبة الواصلين ، وتبوئهم مقاعد الصديقين.

ولقد ذهب أهل محبة الله ورسوله بشرف الدنيا وثواب الآخرة ، لأن القلوب إذا كانت قد جبلت على حب من أحسن اليها ، وإذا كان الإنسان يحب من منحه في الدنيا معروفا أو صنع به جميلا ، أو دفع عنه مضرة فما بالك بمن منحه منحا لا تبيد ولا تزول أبدا ، ووقاه من عذاب أليم لا يفنى ولا يحول .

وإذا كان المرء يحب غيره لحسن عشرته أو لحميد سيرته ، فكيف بالنبي الكريم الذي شهد له ربه بحسن الخلق حيث قال : (وإنك لعلى خلق عظيم)[2] ، فقد أخرجنا الله به من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، وأسبغ علينا بسببه نعمه ظاهرة وباطنة ، فاستحق أن يكون حظه من محبتنا له أوفى وأكمل من محبتنا لأنفسنا وأولادنا وأهلينا وأموالنا والناس أجمعين .

يقول الله تعالى : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وازواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين[3] ﴾.

(١) النساء : ٦٩ / ٧٠ . (٢) القلم : ٤

(٣) التوبة : ٢٤ .

وليس حب المؤمنين لنبيهم حب جماعة لزعيمهم أو طائفة لرئيسهم ، وإنما هو حب أتباع الرسالة لمبلغ الرسالة ، وحب حملة المبادئ لمعلم المبادئ ، وهو في النهاية حب يتعلق بالعقيدة أكثر مما يتعلق بالدنيا ، ويتصل بالدين أكثر ما يتصل بالأشخاص ، وينتسب إلى الله أكثر مما ينتسب إلى العباد .

ولقد روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال: يارسول الله . إنك لأحب الىّ من نفسى ، وإنك لأحب الىّ من أهلى ، وانك لأحب الىّ من ولدى ، وإنى لأكون فى البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك ، فإذا ذكرت موتى وموتك ، عرفت أنك اذا دخلت الجنة رفعت وخشيت ألا أراك ، فلم يرد عليه النبى صلى الله عليه وسلم شيئا ، حتى نزل عليه جبريل عليه الصلاة والسلام بهذه الآية ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا[1] . ﴾.

وإننا لنجد ألوانا من تعلق التلاميذ بأساتذتهم ، وحب الأمم لزعمائهم ، وفناء الأتباع فى معلميهم فلا نعجب من ذلك ، لأنه لون من الوفاء وتعبير عن الحب المتجرد الذى يتصف به الإنسان حين تصفو روحه وترق مشاعره . ولقد اجتمعت فى شخصية النبى صلى الله عليه وسلم صفات المحبوبين جميعها ، والتقت فيه ملامح العظمة والإنسانية فجذبت إليه القلوب من كل اتجاه ، فلقد تمتع بصفات خلقية قبل البعثة سمى من أجلها بالصادق الامين ، واختاره ربه للرسالة فدق بها على مغاليق القلوب، وقاد المسلمين بهذه الرسالة فنقلهم من الظلمات إلى النور ، وكان بهذه الصفات إنسانا وقائدا ورسولا ، وكان حب المؤمنين له عبادة يتقربون بها الى الله ، وكان القرآن يزكى هذا الحب حين يجلّى صورة النبى فى نفس المؤمنين بقوله : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رءوف رحيم[2] ﴾ .

ولعل من اكتمال معانى الإيمان فى نفس المؤمن أن يحب رسول الله ، لأنه يحبه

---

(١) رواه أبو نعيم .   (٢) التوبة : ١٢٨

يحب الرسالة التى بعث بها ويدلل على حبه لله الذى بعثه ، فا لله عز وجل يقـول ﴿ قـل إن كنتم تحبون ا لله فأتبعونى يحببكم ا لله ويغفر لكم ذنوبكم وا لله غفور رحيم[1] ﴾ .

فإن المحب حريص على معرفة المحبوب ومعرفة ما يأمر به وينهى عنه ، ليقرب اليـه بمعرفة قدره وأمتثـال أمـره مـع إجتنـاب نهيـه ، ويكـون بذلـك أهـلا لمحبـة ا لله سـبحانه ، ومستحقا لأن يغفر له ذنوبه.

ولقد يغر كثير من المنافقين والفساق والعصاة أنفسهم فيدّعون أنهم يحبون رسـول ا لله ، ويطمعون أن يدخلوا الجنة بهذا الحب الموهوم لأن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسـلم قال : (المرء مع من أحب [2]). وكذب هؤلاء المخدوعون ، لأنهم لو أحبوه لاتبعـوه ، ولو أحسنوا الظن لأحسنوا العمـل ، وفـى مثلهـم يقـول ا لله عـز وجـل : ﴿ فخلـف مـن بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هـذا الأدنـى ، ويقولـون : سـيغفر لنـا ، و إن يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخـذ عليهـم ميثـاق الكتـاب ألا يقولـوا علـى ا لله الا الحـق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذيـن يتقـون : أفـلا تعقلـون [3] ﴾.وحـب المؤمنـين لرسول ا لله طاعـة لله ولرسـوله ، وهـذه الطاعـة هـى التـى يدخـل فيهـا إيثـار حكـم ا لله ورسوله على حكم الطاغوت من أهل الأهواء وهى التى نتعلم منها أن العمـل مـن أركـان الإيمان الصحيح ، لأن الإيمان يتوقف على الاذعان فى الظاهر والباطن لحكم ا لله ورسـوله ، حتى يستجيب المؤمن لهذا الحكم فيرضى به قلبه ، وتسلم به نفسه ، ويكون هواه تبعا لما جاء به نبيه ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكمـوك فيمـا شـجر بينهـم ، ثـم لا يجـدوا فـى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما [4] .﴾.

فهو الإيمان وهو الطاعة ، وهو الحب كذلك ، وهذه الدرجة من فقه معنى الحب لرسول ا لله عاليـــه ، ومن ثم فإن الـذى ينالـها ليحشر مع الانبيـــاء هم الصديقون

(١) آل عمران : ٣١ .

(٢) رواه الشيخان .

(٣) الأعراف : ١٦٩ .

(٤) النساء /٦٥ .

والشهداء والصالحون .

فالصديقون هم الذين زكت فطرتهم وصفت سرائرهم فميزوا بين الخير والشر ، حين يعرض لهم ، ولقد نقل عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه بمجرد ما بلغته دعوة النبى صلى الله عليه وسلم عرف أنها الحق وقبلها وصدق بها ، ولقد وردت الأحاديث الصحاح فى تصديقه للنبى صلى الله عليه وسلم حين كذبه الناس ، ففى حديث ابن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم قال : (ما عرضت الإسلام على أحد إلا كانت له نظرة غير أبى بكر فإنه لم يتلعثم) . فلما كانت مرتبة أبى بكر من مرتبة النبى صلى الله عليه وسلم فى الصدق وتحرى الحق وإيثاره على الباطل ، كان السابق إلى تصديقه ، وبذل ماله ونفسه فى نصره ، ولقد سمى الله الذين صدقا فى قوله :

﴿والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون[1] ﴾ . وأما الشهداء فإنهم ليسوا فقط المقتولين فى سبيل الله ، وإنما هم أهل العدل والإنصاف الذين يؤيدون الحق بالشهادة لأهله ، بأنهم محقون ، ويشهدون على أهل الباطل بأنهم مبطلون ، وهم الذين أمرنا الله ان نكون منهم فى قوله : ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ﴾ .

وتلك منزلة عالية تسمو نفوس المؤمنين بها درجات ، لأنها جهر بالحق فى مواجهة الباطل ، والتزام لمنهج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تبليغه دعوة الله إلى عباد الله عملا بقول الله عز وجل ﴿ فأصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين[2] ﴾.

والصالحون هم الذين صلحت نفوسهم وأعمالهم ، وغلبت حسناتهم على سيئاتهم و لم يصروا على الذنب وهم يعلمون ، وأولئك أيضا يجمعهم الله فى جنته مع أنبيائه ، لأنهم عرفوا الله فى الدنيا فعرفهم فى الآخرة ، وأحبوا رسول الله فأحبوا رسالته ، واتبعوا النور الذى أنزل معه ...

فكان هؤلاء جميعا صفوة الله من عباده ، ومن أطاع الله ورسوله كان معهم

---

(١) الزمر : ٣٣ .

(٢) الحجر : ٩٤ .

ومن أحب الله ورسوله وعمل بمقتضى هذا الحب حشر معهم .

وإذن فإن محبة الله محبة لدينه ، ومحبة رسول الله اتباع لمنهجه ، وترسم لطريقه ، فلا يكون هذا الحب ادعاء لا أساس له من العمل ، ولا يكون الانتماء الى المسلمين تعصبا لا أساس له من التقوى ، ولا يكون التعلق برسول الله عاطفة لا أساس لها من اليقين .

فإن الإسلام يربط الإيمان دائما بالعمل ، ويبنى العمل دائما على الصدق ويقيم بناء الجماعة المسلمة على التكافل والتناصر ، والصدق والتناصح ، لا على العصبية ولا على الجاهلية .

وإذا تلونت العصبيات الآن بالقومية أو الإقليمية ، فإن العقيدة تظل هى الرباط بين المسلمين ، تذكر القريب فيهم بالبعيد ، وتربط القوى فيهم بالضعيف ، وتجعلهم بالنسب الربانى خير أمة أخرجت للناس : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ .

﴿الحمد لله رب العالمين﴾

فهرست

الموضـــوع ص

التدين التزام وسلوك

علاقة المخلوق بالخالق

من القيم الخلقية للقرآن

الموضـــوع	ص

رقم الإيداع : ١٥٠١٨ / ٩٧
I.S.B.N. 977 - 9 - 5039 - 1